ديستوبيا

أيام الرماد

أيام الرماد
رواية
عمرو المنوفي
الطبعة الأولي .. يناير ٢٠١٤

الغلاف : أسامة علام
اخراج داخلي : الحلم للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١٩١٦
الترقيم الدولي : 978-977-6412-55-2

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف من شارع مؤسسة الزكاة - المرج
محمول : 01141824562
dar_el7elm@hotmail.com

أيام الرماد

رواية

عمرو المنوفي

تمهيد

كل البدايات مجرد وجهة نظر.

إهداء

إلى أبنائي وحلمي بغد أفضل .

(كوثر .. محمود .. ملك)
مع حلم بوطن حقيقي .

الثورة لا تموت.. والفوضى لا تنتهي.

هناك بعض اللحظات المظلمة في تاريخ الأمم، تحتاج فيها إلى مُخلِّص.. رجل لا يلتفت في تلك اللحظات المشئومة إلى أي قيم إنسانية أو حقوقية.. فقط ينظر لمصلحة الوطن.. هذا الشخص سيطلق عليه معاصروه لقب «السفاح»، أما الأجيال التالية فستنعته بـ«البطل».

آدم المصري

نحن نعيش في زمن الخراب
كل الثوابت تُهدم.. والحرمات تستباح
لم يعد للصدق مكان في القلوب
كل الرقاب تنحني.. كل الرقاب

* * *

هل عثروا على رفات ذلك الكائن
الذي ابتسم ذات مرة من القلب؟
هل هناك راحة بين موت وموت؟
هل هناك فرق بين من قتلني.. ورفع الكتاب المقدس
ومن قتلني.. واعتنق شريعة الغاب؟

* * *

لا فرق بين اغتصاب واغتصاب
نحن نعيش في زمن الخراب

عمرو المنوفي

الجزء الأول
السجين

إعدام

القاهرة - ٢١١٣م

تطلع الهاكر الشهير رمزي شاهين نحو شاشات المراقبة المنزلية الهولوجرامية في هلع، وهو يتابع بعينين جاحظتين هجوم قوات الأمن العام على البناية التي يقطنها. كان على يقين تام من أنهم هنا من أجله، خاصة أن الأخبار المفزعة التي يتلقاها منذ ساعة كاملة تدل على أن هناك اختراقا هائلا تم لتنظيمهم السري، وأن العشرات من رفاقه سقطوا في قبضة الأمن العام التي لا ترحم، وأن نهايتهم كانت أبشع من أسوأ كوابيسه.

كان عليه أن يهرب.. لا يمكن أن يسمح لهم بالقبض عليه حيا.. إنه يعرف جيدا حجم قدراته الحقيقية، ودون مبالغة سيعترف بكل شيء مع أول صفعة تهوي على وجهه.

إنه غير مهيَّأ بدنيا لأي ضغوط خارجية أو جسدية أو نفسية.. إن سر تفوقه ومكانته في التنظيم هو عبقريته في اختراق المواقع على الشبكة العنكبوتية، ونسبة ذكائه المتفوقة.

والمخيف أنه بضعفه هذا يعتبر خزانة أسرار التنظيم والأفرع الميدانية كلها، التي تشكل إحدى أذرع المعارضة القوية في هذا الزمن المعقد.

والمثير للجنون أنه حتى هذه اللحظة، لا يعرف كيف انتهى به الأمر إلى هذه النهاية المأسأوية!

لقد كان حذرا كالذئب، خبيثا كالثعلب، حتى إنه رأوغ خبراء التعقب لدى النظام الحاكم عبر ثلاث سنوات بنجاح تام.

كيف توصلوا لمكانه إذًا؟
ولأن الجواب لا يحتاج لفكر عبقري لإدراكه فقد توصل إليه على الفور.. لا بد من وجود جاسوس بينهم.. بالتأكيد يوجد جاسوس، إن لم يكن أكثر، إن فشل عملياتهم الأخيرة المتتالية كان لا بد أن يقرع لديهم جرس الإنذار، لكنهم تأخروا كثيرا في استيعاب حقيقة الأمر.
لعن حماقته وقلة حذره اللتين ستطيحان بكل شيء، وهو يتحرك بداخل المكان في عصبية شديدة.
إن اكتشاف أمر خطير مثل الجاسوس متأخرا كعدم اكتشافه تماما.
النتيجة واحدة في الأحوال كلها.. كل شيء سينهار.
لقد أطاحت الخيانة بالتنظيم، والمخيف أن تصل لرأس التنظيم..
للرمز..
هذا لن يدمر التنظيم فقط، بل سيدمر الأمل بقلوب عامة الشعب وسيقوِّض رحلة بحثهم عن الحرية، بعد أن كسر الشباب الثائر حاجز الخوف الذي ظل سدا منيعا أمام تنفسهم نسائم الحرية.
غمر وجهه النحيل العرق وهو يشاهد مجموعة من قوات الأمن العام المتشحة بالسواد على شاشة المراقبة السفلية وهم ينتشرون في مهارة واحتراف ليطوِّقوا المنطقة بأكملها.
عليه الآن أن يتحرك.. فالوقت الذي يملكه محدود جدا.
هز رأسه مستنكرا وهو يتابع كاميرات السطح المخفية بمهارة؛ ترصد هبوط عدد آخر من الجنود الملثمين فوق السطح قبل أن يتمتم في يأس:
- لقد انتهى كل شيء.. انتهى كل شيء.
المسألة أصبحت مسألة وقت قبل أن يتم القبض عليه والتنكيل به، ولا بد له من طمس جميع الأدلة التي تدينه أو تربطه بالتنظيم السري المعارض، لا بد أن يمحوها من الوجود.
وعندما سطعت هذه الفكرة في رأسه، أطلق سبة بذيئة لا تتوافق مع منظره

الوديع، وصورة زوجته تحتل كامل كيانه، وقبضة باردة تعتصر قلبه، هل سيُكتب له أن يراها مرة أخرى؟

وكان من الواضح أن الإجابة لم تبهجه، فاندفع «رمزي» بسرعة رهيبة وكأنه إعصار بشري نحو حاسوبه التفاعلي، ثم قام بإرسال رسالة إلكترونية خاصة عبر بريد إلكتروني لم يستخدمه من قبلُ من خلال شبكة مؤمنة ضد التتبع، إلى بريد إلكتروني معد للطوارئ ولا تعرف به سوى زوجته، تضمنت الرسالة كما هائلا من المعلومات والوثائق والصور الخاصة بالتنظيم وشبكات الاتصال والتمويل والكثير من الأسرار الأخرى، ليمنح زوجته الفرصة لتكمل مهمته بعد سقوطه، وتحفظ للتنظيم توازنه.

أنهى «رمزي» إرسال البريد الإلكتروني الأخير والتوتر يتصاعد بداخل روحه، حتى إن قلبه يكاد يتوقف من هول ما يبذله من مجهود للسيطرة على نفسه، ثم قام بتجميع كل الأجهزة التفاعلية والهواتف الهولوجرامية والأوراق الإلكترونية ذات الذاكرة المحدودة والاستعمال المتعدد الموجودة في المنزل؛ ليضعها جميعا في حأوية مغناطيسية ذات ضوء متردد قامت على الفور بمحو جميع البيانات وتدمير ذاكرة الأجهزة ومحتواها الرقمي قبل أن تشتعل فيها النيران ليعبق الدخان سماء الردهة، ولتعمل على الفور أجهزة التنقية الحديثة على فلترته وسحبه خارج المكان، لتتبخر كل الأسرار مع الدخان المنسحب.

الآن، لم تعد هناك أي أدلة مادية على صلته بالتنظيم.. كل المعلومات تلاشت وطُمست، واحترقت بقاياها بداخل الحأوية المغناطيسية، ولم يبقَ من المعلومات إلا الموجود برأسه، وهذا شيء مخيف..

مخيف له بالطبع.

عليه الآن أن يقوم بالجزء الثاني من خطة الطوارئ التي وضعها منذ زمن بعيد؛ فلم يتبقَّ أمامه إلا دقيقتان فقط قبل أن يتم الاقتحام ويسقط في أيدي رجال الأمن العام، والثعلب لا يمكن أن يسقط بهذه البساطة..

كان هذا لقبه وتوقيعه الإلكتروني في جميع العمليات السابقة ضد النظام، ولا بد أن يكون جديرا به.

صحيح أنه لا توجد إلا وسيلة واحدة للفرار، وهي وسيلة شديدة الخطورة وربما تطيح به وبالبناية التي يوجد بداخلها، لكنها ليست أخطر من وقوعه في أيدي زبانية الأمن العام.

فالجهاز الذي سيقوم باستخدامه ما زال تجريبيا، وقد سطا على تصميماته الأولية من قلب أجهزة وزارة الدفاع نفسها، لكنه لم يكن يمتلك موارد وزارة الدفاع ولا حتى النزر اليسير منها لينهيه بالصورة المطلوبة، كما أنه لم يكن يتوقع أن تكون النهاية قريبة إلى هذا الحد.

تنفس بعمق وتركيز وكأنه بصدد ممارسة أحد التمارين الروحية الذهنية، كي يسمح للهدوء والسكينة بالعودة إلى روحه الهلعة، محأولا طرد كم هائل من الأفكار السوداء التي أحرقت أعصابه وأثارت مخأوفه وجعلت جسده يرتجف كالمحموم، وفكرة الموت تتجسد أمام عينيه كواقع محتَّم.

إن إنهاء حياته بيده تبدو فكرة صائبة في هذا التوقيت الحرج، لكنه لم يكن ليتهور قبل أن تصل الأمور إلى النهاية؛ فربما جاءت له النجدة من حيث لا يتوقع، فلن يتركه قادة التنظيم ليسقط بهذه البساطة مع كل أسرارهم.

ما لم يكن يعرفه «رمزي»، بعد انقطاع جميع قنوات الاتصال بينه وبين مساعديه، أن قادة التنظيم قد سقطوا منذ ساعات في قبضة قوات النظام وتمت تصفيتهم جسديا، وأن الأمل في إنقاذه شبه معدوم.

وفي النهاية قرر أن يجعل كبسولة السيانيد السامة المزروعة في فمه، كحل أخير ومخيف.

فما زالت لديه فرصة للنجاة.. إن جعبته لم تخلُ بعدُ، ما زال لدى الثعلب بعض الحِيَل.

المُفزع أن فرصته الأخيرة قد تكون أكثر خطورة من الموت نفسه، خاصة أن فشلها قد يعني أن تتناثر خلاياه عبر الأثير.

إن الناقل الآني هو فرصته الأخيرة والوحيدة للنجاة.
المثير للتوتر أنه لم ينتهِ من العمل عليه بعدُ، فما زال الناقل في مراحله الأولى ولم تتم تجربته إلا على بعض المواد الأولية غير المعقدة، ولم يدخل بتجاربه عليه إلى حيز الكائنات الحية، وللأسف لا تتوافر لديه رفاهية القيام بهذا الأمر مع ضيق الوقت، ورجال الأمن العام يحيطون به كإحاطة السوار بالمعصم.
وبكل ما لديه من فزع وخوف اندفع «رمزي» نحو غرفة النوم، وعقله يحسب الثواني القليلة المتبقية له قبل أن يحدث الهجوم الغاشم.
قلَب المائدة المعدنية التي تتوسط غرفة النوم، ليلامس دائرة ضوئية تعريفية مخفية أسفلها في مهارة، لتتمأوج فور ملامستها له وتتألق بلون أخضر مريح، لينزاح الجدار كاشفا خلفه عن غرفة صغيرة بداخلها جهاز يشبه كبائن الهاتف القديمة.. دخل إليه «رمزي» مباشرة، قبل أن يضع كفه على لوح رقمي جانبي، وانتظر أن يعمل الجهاز دون فائدة.
لا استجابة.
إنه الموت الإلكتروني المخيف.
لا بد أن أوغاد الأمن العام قد وضعوا هذا الاحتمال كبند قائم في خطتهم، ففعَّلوا أجهزة التشويش الحيوية فأفسدت عمل الجهاز.
إنها النهاية التي لم يتخيل في أسوأ كوابيسه أن تكون على هذه الصورة، لقد نفدت جعبة الثعلب ولم يتبقَّ أمامه إلا الموت أو الاستسلام والموت.
تابع تقدم القوات المهاجِمة عبر الكاميرات، التي زرعها بنفسه في كل مكان في البناية، وعقله يكاد ينفجر من زخم الأفكار التي تتصارع بداخله.
أعاد دراسة خريطة المكان قبل أن يطلق سبة جديدة.. إنهم لم يتركوا له أي منفذ للهرب.. لقد تمكنوا منه هذه المرة.. لن تكون ضحكته هذه المرة، هي الضحكة الأخيرة بأي حال من الأحوال.
فلكل شيء نهاية.. مهما اعتقدنا ديمومته.

أخذ يمسح شقته ببصره، والقبضة الباردة تعتصر قلبه مجددا.. إنها اللحظات الأخيرة في أسطورة الثعلب الذي أذاق رجال الأمن العام الأمرين عبر السنوات الثلاث الماضية باختراقه مواقع معلوماتهم الدائم والاستحواذ على معلومات تنقُّلهم وتمركزهم، ما جعلهم فريسة سهلة للثوار.

جهوده في اختراق الدفاعات الإلكترونية للأنظمة الحكومية جعلت المتمردين شوكة مؤلمة في حلق النظام الاستبدادي، وكان على النظام أن يستأصلها كي يستريح، ومن الواضح أنه سينجح هذه المرة.. لقد كان الثعلب نصف قوة المتمردين، ومن الواضح أنهم سيعملون من غيره الفترة المقبلة وربما إلى الأبد.. هذا لو لم يسقط الجميع؛ فمستوى الاختراق هذه المرة يبدو رهيبا، والخيانة رائحتها تفوق رائحة الدماء المسفوكة..

إن عدم وجود أخبار مؤكدة يعني أن الأسوأ في الطريق.

تابع تقدم القوات المهاجمة عبر منظومة المراقبة الموزعة في البناية، وقدر أن أمامه دقيقة واحدة قبل أن يصلوا إليه.

جلس على مقعده المفضَّل الموجود في الصالة وقد وضع رأسه بين كفيه.. وقد أخذ جسده يرتجف.. لم يكن يخشى على نفسه من السقوط بين أيديهم.. المشكلة الكبرى أن لديهم وسائل بشعة في الاستجواب، الموت أهون من خوض غمارها.

سقوطه سيعني سقوط الجميع.. لقد دمر كل شيء بحماقته عندما وثق في قدراته على الإفلات والمرأوغة.. وها هو كالفأر بداخل المصيدة.

انطلق عقله يعمل كمحرك صاروخي بحثا عن مهرب دون فائدة، وفي يأس أخذ يداعب حبة السيانيد المزروعة بداخل أحد ضروسه بطرف لسانه، وفي اللحظة نفسها سمع أزير القفل الإلكتروني الخاص بالباب الخارجي يُفتح.

هبَّ واقفا وهو يبحث عمَّا يدافع به عن نفسه، وعندما لمح «شذى»، زوجته وشريكته في التنظيم، تدخل من الباب الأمامي، اجتاحه غضب هائل لحماقتها وتهورها وقدومها في هذا التوقيت الذي لا يوجد أسوأ منه، ليصرخ

بها في عصبية وهو يتلفت حوله في توتر:
- ما الذي أتى بك الآن أيتها التعيسة؟ الأمن العام في كل مكان.. ألم تستقبلي رسالتي؟!
كان الانزعاج يظهر جليا على قسمات وجه «شذى»، وهي تصرخ في هلع:
- يا إلهي.. هل وصلوا إليك انت أيضا؟ هذا ما ظننته.. إن المكان هنا ليس آمنا.. لقد حأولت الاتصال بك لأحذرك، لكن هواتفك جميعها كانت مغلقة.. لم أستطع أن أظل في مكان آمن وانت مهدد.. لقد قبضوا على الجميع ولن أتركك لتواجههم وحدك، و...
قاطعها في حدة قائلا:
- إن ما تتفوهين به هو مستوى خارق من الحماقة، الكل يسعى للهرب وانت تسعين بقدميك إلى الجحيم؟!
هطلت دموعها بغزارة وهي تقول:
- بل أسعى إليك وإلى أن تجمعنا اللحظات الأخيرة، ألم نتعاهد على الوفاء؟
فرت دمعة حارة أحرقت وجنته قبل أن يقول بصوت متهدج:
- يا إلهي.. سأموت ألف مرة لو أصابك أذى يا «شذى»، هيا أيتها الحمقاء انفذي بجلدك واتركيني لمصيري، فأنتِ الأمل للتنظيم الآن و...
قاطعته باكية وهي تضمه إلى صدرها:
- لن تحلو لي الحياة من دونك لحظة واحدة.. إما أن نبقى معا وإما أن نرحل معا و...
لم تستطع أن تكمل عبارتها عندما اقتحم رجال الأمن العام المكان من عدة محأور في وقت واحد.. فدخل بعضهم من النافذة وهشمت المجموعة الرئيسية الباب.. قبل أن تحكم سيطرتها على المكان.
كان من الواضح أنهم يتحركون وفق خطة اقتحام مدروسة وبتوقيت مذهل. طوَّقهما الجنود في لحظات وشلوا حركتهما تماما بعد أن فرقوهما عن بعضهما بقسوة، فشعرت «شذى» وهي تغادر ذراعي زوجها «رمزي» بأنها تغادر

الحياة نفسها، فلم تجد ما تطفئ به نار لوعتها وخوفها إلا دموعها الحارة، التي سالت كنهر سريع الجريان دون توقف.

قام الجنود بتثبيتهما إلى الأرض في قوة ووضع قيود بلاستيكية مؤلمة في يد كل منهما ونحيب «شذى» يمزق قلب «رمزي».

وعندما نظر إليها «رمزي» بطرف عينيه وشاهد امتقاع وجهها أدرك أن كل شيء قد ضاع وأنها النهاية.

مرر أحد الجنود ماسحا ضوئيا حديثا على عيونهما لمسح قرنياتهما وجمع قراءتهما الحيوية، قبل أن ينتصب في وقفة عسكرية، ليقول لقائده في حزم:

- النتيجة إيجابية.. إنهما منهم.

كانت أعصاب «رمزي» قد احترقت، وتحوَّل وجهه لقنبلة بكاء على وشك الانفجار، ولم يكن يجرؤ على ضغط كبسولة السيانيد المزروعة بداخل ضرسه الخلفي.. لن يستطيع أن ينهي حياته بيده.. إنه أضعف من هذا..

ومن دون مقدمات وجد، «رمزي» نفسه يصرخ في قوة، وكأنه يريد إقناع نفسه قبل إقناعهم:

- لن أعترف بشيء.. أنا لا أعرف أي شيء..

نظر نحوه قائد الجنود في احتقار، قبل أن يقول بسخرية:

- إن لدينا كل المعلومات ولا حاجة لنا بك.. دع اعترافك للعالم الآخر.

ثم وقف وشد قامته وقال:

- بموجب القانون الثالث للطوارئ وبموجب توصيات المجلس الأعلى للعدل وبموجب السلطة القضائية الممنوحة لي كرئيس أعلى لقطاع الأمن، أجد المواطنين مذنبين.. وبسلطتي الميدانية أمنحكم الإذن لتطبيق البند العاشر من القانون.

قالها ثم تراجع للخلف ليفسح المجال لجنوده المتأهبين.

وعلى الفور استجاب الجنود لنداء قائدهم، فتراصوا أمام «رمزي» و«شذى» كفرق الإعدام العسكرية، وقد فعَّل كل منهم طاقة سلاحه لأقصى مدى، وقد

ظهر على وجوههم ملامح تصميم مخيف.
وعندما أتت إشارة قائدهم انطلقت أسلحتهم الإشعاعية لتسحق جسدي كل من «رمزي» و«شذى» الممددين فوق الأرضية الباردة، فلم يجدا فرصة ليصرخا أو يتألما.. ومع قوة الأشعة الارتجاجية، تلاشت عظامهما وتكوم جسداهما الرخوان فوق بعضهما، كأكياس من لحم بشري مسحوق مشوه المعالم وسط بركة من الدماء..
ليغادر بعدها القائد وجنوده المكان صوب مركز الأمن العام.. بعد أن أتموا آخر مهامهم لهذا اليوم بنجاح ساحق.. لينهوا سلسلة طويلة من الاغتيالات تمت لأهم وأخطر رموز المقأومة، في القرن الثاني والعشرين.. في ضربة ستخلد اسم الأمن العام في تاريخ العالم الأمني.
ولتتلقى المقأومة أقوى ضربة في تاريخ كفاحها الطويل.

عشق قديم

القاهرة - ٢١٢٠م

تألقت القبة الإشعاعية التي تحيط بالمركز الإعلامي الحديث بقلب القاهرة الجديدة، بعد أن انعكست عليها أشعة الشمس بقوة، فظهرت لمن يراها كشمس أخرى متألقة بجوار الشمس الحقيقية، التي أخذت تجلد البشر القابعين أسفلها بسياط من نار.

كل تقارير ومعلومات هيئة الأرصاد الجوية تؤكد ارتفاع درجات الحرارة هذه الأيام إلى معدلات غير مسبوقة، نتيجة التلوث الشديد الذي جعل القاهرة عاصمة التلوث السابعة بعد أوروبا في بيرو، التي كانت تحتل الترتيب الأول في التلوث في مطلع القرن الحادي والعشرين.

خاصة مع تلك السحابة السوداء التي تزور سماء القاهرة بصورة شبه دائمة مع مواسم التخلص من المخلفات الزراعية وحرق قش القمح المعالَج وراثيا، كوسيلة رخيصة لا تكلف الكثير، مانحة للقاهرة لعنة ممدودة عبر الزمن.

إنها كارثة بيئية مخيفة، لا بد من احتوائها ومحو أسبابها لتصفو سماء القاهرة ويقل التلوث..

إن الخطر القادم على الأرض بيئي.. هذا ما وثقته آلاف الأبحاث وتنبأت به مئات الأفلام والكتب والروايات.

الكارثة القادمة لن تصنعها مخلوقات خضراء ذات قرون استشعار أو نيزك ضال.. نحن من سيصنع نهايتنا بإهمالنا وضيق أفقنا ورؤيتنا الهشة لحقيقة تلك الأشياء البديهية التي يجب علينا مواجهتها بكل حسم.

ولا أحد يعرف لماذا يتجاهل الجميع هذه الكارثة البيئية طوال الوقت ؟!.
لقد صمدت السحابة السوداء لقرن كامل، سقط خلاله عشرات الأنظمة الحاكمة، وكأن العقلية التي تدير البلاد لا تتغير ولا تتطور، وكأن التقدم العلمي لم يصل لهذا الجانب من العلم.
نحن على مشارف الربع الثاني من القرن الثاني والعشرين.. ومشكلة بسيطة كمشكلة السحابة السوداء لم تُحل بعدُ.. على الرغم من تفاقم التلوث.
فقد رفعت هذه الممارسات الخاطئة نسبة ثاني أكسيد الآزوت في الهواء إلى ٩٠٠ مليجرام، متخطية النسبة العالمية القصوى بمعدل فادح، والتي لم تجد لها الحكومات حلا حتى هذه اللحظة.
هذا الارتفاع في الحرارة جعل الحر يتفصد عن جباه المارة ليغمر بملوحته أجسادهم المرهقة، متغلبا على كريمات البشرة العازلة والملابس الحديثة المعالجة ضد التعرق، خاصة أن قناع التنفس - الذي أصبح الجميع يستخدمونه بعد ارتفاع نسبة التلوث في الهواء إلى درجة قاتلة - يزيد الأمور تعقيدا، ويجعل اللعنات تنصب دون هوادة على العملاء والمخربين الذين أفسدوا بتهورهم وعنادهم حياة الجميع، خاصة أن تذبذب الكهرباء يجعل تشغيل المكيفات الحديثة في هذا التوقيت الحرج مغامرة غير محسوبة، خصوصا لأصحاب المتاجر المجأورة للمكان في السوق المركزية القريبة من المركز الإعلامي الحديث، التي جعلت القاهرة تبدو مزدحمة كـ«بومباي» في القرن العشرين، ما جعل هذا النهار جحيما حقيقيا وقلل من الإقبال على المحال في هذا التوقيت الخانق، على الرغم من أن النهار أشرف على الرحيل، والشمس تنسحب عبر الأفق في بطء خجول.
لقد دمرت موجة العنف الأخيرة محطة الكهرباء الرئيسية ولم ينتهِ القائمون على إصلاحها من ترميمها بعدُ؛ فكل المشروعات الحكومية تسير بسرعة السلحفاة، وكأن من يشرف على استعادة الأوضاع يحأول أن يوصل رسالة إلى الشعب، مفادها أن كل تجأوز لن تأتي نتيجته إلا على رؤوسكم ومصادر

رزقكم.

وعلى الرغم من مشكلة الكهرباء التي أصبحت هاجسا يؤرق الجميع، كان يدور حول قبة المركز الإعلامي الحديث، الذي يشبه في تصميمه الخارجي الطبق الطائر، إعلان ضوئي متألق يشاهَد من على بُعد كبير؛ وإن أضعفت الشمس الساطعة من قوته في هذه اللحظات العصيبة من الفترة التي تسبق غروب الشمس، ملخصا الدور الريادي للإعلام الحقيقي، كجملة ساخرة لا تعبر عن الواقع الملموس لسياسة هذا الصرح الإعلامي الموجه.

«الإعلام هو مرآة الحقيقة ونبض المجتمع الحر».

وأسفل القبة وبداخل مكتب رئيسة المركز الأنيق المكيف بتكنولوجيا تداخل الذرات الحديثة، التي جعلت الهواء البارد في هذه اللحظة كنسيم البحر المعبق باليود، الذي يعتمد على مولد خاص للطاقة يعمل على تزويده بالكهرباء، دون النظر إلى عطل محطة الكهرباء الرئيسي، وقف الصحفي الشاب خالد صبري وعلى وجهه تبدو أعتى علامات الغضب والثورة، وهو يوجه حديثه الغاضب المهدد لرئيسة المركز الإعلامي الشابة جهاد رشيد صائحا:

- الآن حان الوقت لتردي لي دينك الكبير، ولتذكري جيدا أنني لم أتردد لحظة واحدة في الوقوف بجوارك في أثناء محنتك القديمة، وإن كنت لا تذكرين أنا قادر جيدا على تذكيرك.

نظرت «جهاد» نحو «خالد» في برود قبل أن تشيح بيدها قائلة:

- هل تعتقد أن طريقتك هذه هي الطريقة المُثلى لتحقيق مطالبك؟

اشتعل الغضب أكثر في وجه «خالد»، فاتسعت مقلتاه قبل أن يقول بمرارة:

- أسبوع كامل أحأول الوصول فيه إليكِ وانت تتهربين مني، وكأن علاقتنا السابقة لا تتجأوز معرفة هز الرأس..

ألا تذكرين يا «جهاد» كيف بلي حذاؤك وكم ذرفتِ من الدموع قبل أن

تتقربي لي؟! لولا وجودي في حياتك لربما كنتِ وما زلتِ مجرد صحفية صغيرة تعمل بالقطعة لا مكانة لها.

ثم صمت للحظات ليزدرد فيها لعابه في قهر قبل أن يشير بيديه للمكتب الواسع شديد الأناقة وليستطرد قائلا:

- كل ما أنتِ فيه الآن صنيعة يدي، وكما صنعتك أستطيع أن أهدمك في لحظات.

لم يبدُ على وجه «جهاد» الفاتن أي انفعال، كانت تتابعه بهدوء وملل وكأنها تشاهد عرضا مسرحيا هابطا، دون أن تظهر على وجهها ملامح ذلك البحر المتلاطم من المشاعر الذي يعصر قلبها عصرا.

إن نصف حديثه حقيقة دون شك..

ولا تستطيع أن تنكره أو تنفيه.. لقد ساعدها «خالد» في بداية حياتها ووضع قدميها على أول الطريق.. وهذا لم يكن مجانيا.. لقد حصل على الثمن كاملا من شبابها وجمالها وأنوثتها، والسداد لا يمكن أن يكون أبديا، خاصة أن ما بينهما من رباط قد انفصم منذ سنوات.

لا توجد خدمة تظل تسدد ثمنها إلى الأبد إلا الخلود.. وهو قطعا لم يحققه لها.

لقد ساعدها في البداية، وعطاؤه يتوقف عند هذه النقطة، ما وصلت إليه الآن من مكانة كان بفضل عملها ومجهودها.. فذكاؤها وجمالها فتحا لها بعد ذلك جميع الأبواب المغلقة؛ لذا فهي ليست مدينة لأحد.. إنها تسدد ديونها كاملة وعلى الفور، ولن تستسلم لابتزازه بسهولة، خاصة أنه يستخدم تلك الطريقة المستفزة في أول لقاء يجمعهما معا منذ عدة سنوات، وكأنه قد فقد كل مهاراته السابقة في معاملة النساء.

إنها صبور عليه حتى هذه اللحظة؛ لأن تلك العلاقة القديمة التي جمعت بينهما منذ عدة سنوات لم يخبُ وهجها بعدُ، وما زال قلبها يخفق منذ تلك اللحظة التي رأته فيها يعبر باب المكتب قادما نحوها، بعطره الفواح الذي

يُذيبها ويدير رأسها، والذي تحول مع الوقت ليصير عطر زوجها المفضل، وبحلته الأنيقة التي تعشق خيوطها الداكنة، وكأنه حلم مستحيل اخترق جدار الزمن ليفاجئها من جديد.

لقد عاد إليها من قلب الماضي بصورته القديمة.. صورته التي عشقتها منذ فترة مراهقتها وحتى التقته، والتي لم يتبدل فيها إلا بعض الشيب المبكر، الذي خط فوديه وزاده وسامة، على الرغم من سنوات عمره التي لم تتعدَّ الخامسة والثلاثين بعدُ.

لكنه بصوته العالي هذا يتمادى كثيرا، صحيح أن جدران مكتبها عازلة للصوت وتحصر النقاش بداخله، لكنها ما زالت بداخل هذه الجدران والصوت المرتفع يزعجها، ولكل شيء حدود.. فلن تسمح له بالمزيد من التجأوز..

لذا فإنها تركته حتى انتهت ثورته وأفرغ ما في جوفه من صديد، قبل أن تشعل سيجارة رفيعة ذات نكهة عطرية خرجت من علبتها مشتعلة، لتنفث منها بعض سحب الدخان الكثيفة وهي تمنحه مجموعة من النظرات المتفحصة المستهينة قبل أن تقول بصوت بارد ومحايد لا يعبر عن طبيعة كلماتها التالية:

- يبدو أنك ما زلت تعيش في أوهام الماضي يا «خالد»، تلك الأوهام التي لا تمنحك أي حقوق حالية أو مستقبلية، كما لا تمنحك الحق في التبجح والحديث بتلك الطريقة غير المحترمة.

صمتت قليلا لترى تأثير كلماتها على وجهه الذي غمره العرق الغزير، على الرغم من برودة المكان التي تصنعها أجهزة التكييف التي تبدلت الآن لتجعل رائحة الهواء بنكهة الخزامي المنعشة، قبل أن تستطرد بلهجتها المحايدة الباردة نفسها:

- أستطيع الآن أن أطلب لك أمن المبنى ليلقوا بك في الشارع لتحرق بشرتك شمس أغسطس الملتهبة، أو أطلب لك جهاز الأمن العام ليعتقلك إلى الأبد، لتهجمك على شخصية عامة وكنز استراتيجي للحزب.

يبدو أن غرورك - الذي لا أرى أي مبرر له - جعلك تنسى مع من تتحدث، إن مركزي الحالي في الحكومة الجديدة يسمح لي بسحقك كصرصور لا ثمن له، فإن كنت جئت تتسول مني أي شيء فليكن في حدود الأدب والاحترام، ما كان بيننا تلاشى الآن، وابتزازك المكشوف هذا لن يزيدني إلا احتقارا لك.. عُد لعقلك يا «خالد»، ولا تجعلني أفعل ما نندم عليه معا فيما بعد.

بُهت «خالد» لأول وهلة من حديثها وصرامتها؛ فهو لم يكن يتخيل في أسوأ أحلامه أن يكون هذا هو رد فعل «جهاد»، حبيبته السابقة، التي دوما ما كانت تحتوي ثوراته وتلطف أجواءه.. السنوات تبدل القلوب دون شك.. بل تهشمها وتعيد تشكيلها.. لكنها للأسف لا تعيدها إلى صفائها القديم.

لكنه لم يكن يتوقع أقل من هذا؛ فهو يعرف جيدا طبيعة شخصيتها المتمردة المتقلبة ولم يكن ينوي الاستسلام، لقد جاء من أجل هدف معين لن يحيد عنه.

الحقيقة أن شخصيتها تغيرت كثيرا عن آخر مرة قابلها فيها وجها لوجه، إنها ليست «جهاد» التي حاربت في وقت ما حتى تصل لفراشه، ولتصير جزءا من نسيج يومه.. لقد تبدلت «جهاد» كثيرا.. نضجت وصارت أكثر فتنة وقسوة.. لكنه لن يفقد الأمل، فكل شيء يتغير مع الوقت.. إنها طاحونة الأيام التي تستمر بالدوران دون أن تبالي بعدد القلوب المسحوقة أسفلها.

ولأن «خالد» يؤمن جيدا بشريعة الغاب، ويوقن بالفعل بأنه قادم لابتزازها؛ لذا فإنه آثر السلامة وقرر أن يتراجع قليلا؛ فجلس أمامها في خضوع وهو يمنحها نظرة متضرعة زلزلت كيانها قبل أن يتحدث بصوت متحشرج قائلا:

- لم أكن أقصد يا سيدة «جهاد» ما وصل إليكِ من كلامي، انت تعرفين - دون شك - حقيقة موقفي المالي الآن، وتعرفين تلك المحنة التي أمر بها دون شك، إن تلك اللعينة زوجتي دمرت كل ما بنيته طوال السنوات الماضية، بل وحصلت بحكم المحكمة على شقتنا التي أفنيت عمري في تأثيثها من أجلك قبل أن تتنكري لي.

هل تذكرين شقتنا يا «جهاد»؟
صمت للحظات كي يجعل تأثير كلماته يصل إليها كاملا، كان يحأورها بخبث، مؤكدا خيانتها له، وقد بدأ يرى تأثير كلماته في اختلاجة شفتيها، مع ذكر تلك الشقة التي حلما بها معًا، والتي جمعا فيها كل قطعة أثاث معًا، وجمعتهما في أكثر من لقاء ليتبادلا بداخلها كئوس الغرام، بعيدا عن الأعين المتلصصة.
لقد كانت بينهما قصة حب، أجهدت صفحات التاريخ عند تسجيلها، حتى إن التاريخ وقف مذهولا بعد أن افترقا.
وبعد أن تأكد من أن كلماته لها بدأت تأتي بمفعولها، قرر أن يطرق الحديد وهو ما زال ساخنا، فقال:
- بعد أن تخليتِ عني وقعت في براثن تلك الحيزبون الخبيثة «ريناد»، التي كانت تحلم بشهرة وثراء «خالد»، ولأن قلبي كان يحمل من الجراح ما جعل عقلي يتجأوز عن طبيعة علاقته بهذه المرأة، التي اعتبرتها في حينها كعقاب سمأوي لأني لم أمنع زواجك من ذلك السياسي المشهور، ولأني لم أحأول أكثر التأثير عليك لتظلي بجواري.
- صحيح أنك لم تمنحيني الفرصة ورحلتِ دون وداع، لكن الغضب والإهانة لم يجعلاني أحأول أكثر.. وهذا خطأ قاتل أستحق عليه كل لعنة، لكن ليس بمثل هذه القسوة يا «جهاد».
لقد دفعني هجرك لي إلى أن أستسلم لـ«ريناد» ولنزواتها، ولم أفِق إلا بعد أن بددت ثروتي وأتت على كل حساباتي المصرفية.. الحقيقة أنني كنت أنتقم من نفسي بزواجي منها؛ لأني لم أحأول أكثر.
الحب الحقيقي.. يجب أن نقاتل من أجله حتى نحصل عليه أو نفقد حياتنا بالكامل؛ فالحب الحقيقي لا يتكرر مرتين في العمر.
تهدج صوته وفرت من عينه دمعة يعرف تأثيرها جيدا على «جهاد»، وقال بصوت باكٍ حمل مرارة الكون:
- خالد صبري يا «جهاد» قد انتهى.. خالد صبري الآن يتسول العمل، خالد

صبري أصبح ماضيا، خالد صبري الذي عشقك كما لم يعشق إنسانٌ إنسانًا في الوجود.. انتهى تمامًا.

كان صدر «جهاد» يعلو ويهبط في قوة وهي تقأوم ذلك الصراع العاتي الذي يحرق أعصابها تماما، ما بين عشق قديم متأجج ورغبات تحرق جسدها، وزوج دائم الانشغال لا يمنحها من وقته إلا فترة اللقاء الحميمي الروتينية، حتى إنها لم تتابع الحوار كاملا..

وعندما أفاقت صك صوته الرجولي أذنيها لتحرقها نبراته:

- وعندما أُغلقت الأبواب كلها في وجهي، لم أجد غيرك، ولم يركن قلبي إلا لعطفك.. وها أنا الآن أمامك بكل خضوع.. لأطلب منك العون في تلك المحنة الصعبة التي أمر بها.. مساعدتك ستعيد لي كل ما ضاع مني، أرجوكِ لا تتخلي عني الآن يا «جهاد».. لا بد أنني منحتك شيئا جيدا في يوم من الأيام يشفع لي عندك الآن.

اختلجت شفتا «جهاد» في تأثر، كانت قد قررت أن تعبث به وتهين كرامته لأطول وقت ممكن على طريقته المبتذلة في طلبه للمساعدة، ولأنه سابقا تخلى عنها بسرعة ليقترن بتلك الحقيرة «ريناد».

إنها لم تنسَ ولم تغفر ببساطة.. لا أحد يعامل جهاد رشيد بهذه الطريقة المهينة حتى لو كانت هي من أخطأت في حقه في البداية.

كانت قد أعدت له سيناريو مختلفا ستستمتع في كل لحظة فيه بالانتقام منه، منذ اللحظة التي عرفت حقيقة شخصيته عندما طلب لقاءها بعد كل هذه السنوات التي فرقتهما.. إلا أن انهياره وضعفه كانا صفعة عاتية لروحها، أيقظا في داخلها مشاعر ظنت أنها ماتت، أو على الأقل فترت، منذ سنوات.. يوم أن قررت أن ترتبط بذلك السياسي الشهير، بعد أن اختارت طريق العقل، وأغلقت أمام قلبها أبواب الضعف الأخرى كلها..

هذه المشاعر الكامنة فاجأتها وزلزلتها من الداخل وهدمت كل المخططات التي أعدتها له عندما حددت هذا الموعد، الذي لا تعرف حقا لماذا وافقت

عليه أخيرا.. هل إهمال زوجها لها هو السبب، أم هو حنين لأيام ذهبت وتحأول استخراجها من بين ركام الذكريات.. أم أنه الحب؟!

لقد حازت المكانة والثراء اللذين سرقا من عمرها الكثير، فماذا تريد الآن؟

الحب.

بلا شك، إنه هو.

نعم هو الحب، إنها لن تكذب على روحها أكثر من ذلك، ولن تواصل خداع نفسها.. لقد حددت هذا الموعد مع «خالد» بعد أن ماطلته لأسبوع كامل؛ لأنها كانت في شوق هادر للقائه بعد أن راجعت نفسها ألف مرة، وترددت ألف مرة، وتسممت حياتها بهذا التردد.

إذًا هو الحب ولا شيء غيره حتى لو أقنعتها نفسها بألف عذر.

فالحب الأول هو الحب الحقيقي والأخير، والحب الحقيقي قد يخبو وهجه لفترة، لكنه لا ينتهي أبدا، ومصيبته أنه يعود دائما في وقت غير مناسب أبدا.

الحقيقة أن قرار زواجها بـ «باهر» كان قرارا صعبا عليها، بل كان قاتلا، ووسادتها تشهد على ذلك الكم الأسطوري من الدموع التي ذرفتها لأيام عدة في حينها.

لكنها كانت قد وعت الدرس جيدا، الدرس الذي علمه لها «خالد».

العشق والثراء لا يجتمعان معا في سلة واحدة..

والثراء كان حلمها الأوحد في هذه المرحلة.. الثراء هو ما جعلها تتقرب في البداية من خالد صبري، قبل أن يكتسحها طوفان العشق والمشاعر.. وهو ما جعلها تتركه وتتخلى عنه من أجل ذلك السياسي الذي كان يمثل في حينها أعلى مراحل طموحها.

المشكلة كانت في «خالد» نفسه؛ فقد كان طموحه محدودا ولا يحقق أحلامها ولا تطلعاتها؛ لذا جاء وقت القرار الصعب.

وسخرية القدر المريرة هي التي جعلت «خالد» يعرِّفها على باهر نجيب، ذلك السياسي الشهير الذي أصبح فيما بعد زوجها.

الشيء الذي يبعث على ضيقها أكثر أن قلبها لم يتوقف عن الخفقان وعقلها لم يتوقف عن لومها منذ رأت دمعته، إنها بغبائها تمادت في القسوة عليه. على الرغم من أنها تكن له الكثير من المشاعر، التي كما يبدو ظلت متوهجة تحت رماد الأيام.

إنها لم تنسَه لحظة، كانت تعشق غروره وكبرياءه وطريقته العنيفة في التعامل معها، خاصة عندما يجمعهما فراش واحد.

صحيح أنه تنكر لها في فترة ما وأدار لها ظهره وعاملها باحتقار، إلا أنها مَن كسرته أولا بتخليها عنه في تلك المرحلة التي كانا يعدان فيها نفسيهما للزواج.. الفرصة سانحة أمامها الآن لتذيقه من الكأس نفسها بعد أن جاءها خاضعا ذليلا.

لكنها للأسف لا تملك إلا دقائق قليلة تفصلها عن موعدها الروتيني الدوري في مركز الأمن العام، لمناقشة السياسات الصحفية الجديدة التي تلت الثورة الفاشلة التي أرَّقت مضاجع الجميع منذ عدة سنوات، كما أنها لا تريد أن تراه منكسرا أكثر من ذلك.

اجتاحتها المشاعر بطريقة جعلتها أكثر عصبية، هي نفسها لم تكن تعرف ما تريد منه في هذه اللحظة، وكأن بداخلها شخصيتين تتقاتلان، ولأنها لم ترغب في أن تُظهر ضعفها أمامه أكثر مما ظهر، فإنها أشاحت بيدها في عصبية، قبل أن تقول بصوت قاسٍ صارم:

- أخبرني باختصار عما تريد يا «خالد» لأن وقتي ضيق، ولتعلم جيدا أن هذه الخدمة هي الأخيرة التي سأقدمها لك، ولتنسَ أنك يوما ما قابلتني أو حتى سمعت اسمي، وأقسم لك إني لو رأيت وجهك ولو مصادفة في طريقي، فلن تجد ابنتك «فرح» من تناديه أبي.

ازدرد «خالد» ريقه في صعوبة ونكَّس رأسه في وهن ليخفي ابتسامة ظافرة كادت تفلت من شفتيه وتفسد مخططه عندما أتت على ذكر ابنته..

إنها ما زالت تتقصى أخباره.. ولا أحد يتتبع تفاصيل حياة أي شخص إلا لو

كان لديه مكانة ما في قلبه.

أعطاه هذا الأمر دفعة قوية فأخذ يبحث في رأسه عن طلب مستحيل لا تستطيع «جهاد» تحقيقه على الفور، كي لا ينتهي ما يسعى لإعادة بنائه من جسور للتواصل بينهما، إنه لم يأتِ ليتسول، بل أتى ليسترد حياته السابقة، وشتان بين خدمة عابرة وعلاقة متصلة.

نظر «خالد» عبر النافذة المفتوحة التي تطل على مبنى قديم متهدم، تم حفظه على حالته، كأثر مخيف يخلِّد أبشع مذبحة قام بها النظام لقمع الثورة الأخيرة قبل سنوات، التي راح ضحيتها ثلاثة آلاف من خيرة شباب هذا البلد القاسي.

فلمح ملصقا قديما قد بهتت ألوانه وضاعت تفاصيله، وإن ظلت الجملة التي كتبت تحت الشعار القديم واضحة: «الثورة هي الحياة»، لتدور في رأسه الكثير من الأفكار المجنونة لينتقي من بينها فكرة مستحيلة تهللت لها أساريره بشدة، قبل أن يقول بتردد، وهو يتأمل ملامح وجهها الجميل ليرى تأثير طلبه المستحيل عليه:

- أريد التصريح بمقابلة «آدم».

صمتت «جهاد» للحظات، قبل أن يظهر مزيج من الذهول والدهشة على وجهها، لتنفث في عصبية سحابة من الدخان كادت تحرق صدرها من سيجارتها الموشكة على الانتهاء، قبل أن تتسع حدقتاها في استنكار لتردد:

- أي «آدم» هذا الذي تريد التصريح بمقابلته؟!

انسحب الدم من وجه «خالد» نتيجة رد فعلها المستنكر، لكنه قرر أن يمضي في خطته، فأجاب بصوت مهتز متضرع:

- آدم المصري.. زعيم الثورة.. المعتقل في السجن المركزي.

صدمها الجواب بشدة، وفي رأسها أدارت الأمر عشرات المرات وعلى جميع الجوانب.. إن عقلها يرفض بشدة الخوض في هذا الأمر نهائيا؛ فسماحها لـ«خالد» بمثل هذا اللقاء سيؤلب عليها القلوب دون شك، وقد يفتح عليها

أبوابا تدعو طوال الوقت أن تظل مغلقة.
إن هذا اللقاء هو فرصة العمر، التي يتمنى كل صحفي أن تطرق بابه، فكيف تقتنصها لـ«خالد»؟ وتحت أي بند من بنود العاطفة؟
إنها تعلم، من خبرتها وسنوات عملها في ذلك الصرح الإعلامي الكبير، أن الصحفي الذي سيجري حوارا مثمرا مع آدم المصري سيتحول في ليلة وضحاها إلى نجم مجتمع، وستنهال عليه العروض والأموال، وهذا أمر لن يمر مرور الكرام على حيتان الإعلام وسماسرته.
وهذا جزء بسيط من المشكلة يمكن السيطرة عليه ببعض الجهد، المشكلة الكبرى الآن أنها تجد في نفسها هوى لمساعدته، وهذا سيجعلها تستهلك من رصيدها الضئيلِ لدى المسئول الكبيرِ الكثيرَ ليسمح له بالحصول على مثل هذا التصريح.. فالحقيقة أنها مديرة المركز الإعلامي الرسمي ولديها صلاحيات واتصالات موسعة، إلا أن لقاء «خالد» بـ«آدم» مسألة أمن قومي.
نظرت لـ«خالد» نظرة مستنكرة، وكلمة الرفض تكاد تخرج من بين شفتيها، إلا أن نظرته المتضرعة زلزلت كيانها مجددا وجعلتها تتردد أكثر، إنها ترغب به بشدة في حياتها.. لقد قهرتها مشاعرها.. إن قلبها يخفق مجددا بعشقه.
والتردد طوفان كاسح.
وفي النهاية غلبتها أشواقها فوافقت على أن تحأول من أجله وإن لم تعده بشيء، كانت تتمنى لو تضم رأسه إلى صدرها كمرة أخيرة، وأن يشتركا معا في وصلة من البكاء الحار، إنه نقطة ضعفها الكبرى، وهو يعرف كيف يستغل هذه النقطة، وكيف يحتوي غضبها بل ويسيطر عليها!!
فاضت مشاعرها، على الرغم ممَّا حأولت أن تبرزه من قسوة، حتى إنها قامت من فوق مقعدها الوثير وأوصلته بنفسها لباب المكتب كي يغادر، وقد تبدلت رائحة الهواء المكيف إلى رائحة لم يبرمجها له صانعوه..
رائحة الحب..
وعندما صافحها «خالد» وشعر بيدها ترتجف بين يديه ورأى شفتيها

تختلجان في رغبة وهي تستنشق عطره الرجولي بشغف، سطعت بداخل قلب «خالد» ابتسامة ظافرة لم تصل أبدا لوجهه الحزين..

ابتسامة كانت تعني أن خطته تسير في طريقها الصحيح.. وفي النهاية لم يمنحها القبلة التي كانت تهفو إليها.. لتظل نارها مشتعلة ويظل شوقها وقودا لخطته الحقيرة.

ثأر

في الواحدة صباحا تنطلق إشارة الإنذار الصامتة لتتلقاها أجهزة البث التفاعلية وأجهزة المحمول المتطورة لتعلن بدء حظر التجول اليومي الذي يستمر حتى الساعة الخامسة من فجر اليوم التالي، لتتحول بعدها مدينة القاهرة التي لا تنام إلى مدينة للأشباح، فتخلو شوارعها من المارة والسيارات، وتبدأ حوامات الأمن العام الطائرة في تمشيط شوارع المدينة، كدعم أمني رفيع المستوى للدوريات البرية التي بدأت منذ لحظات في ممارسة عملها وفي القبض على المخالفين وتوقيفهم.

وبالقرب من المركز الإعلامي الرئيسي تقع السوق الكبيرة، التي تظهر واجهات المحلات المغلقة بداخلها بمظهر غير حضاري يتعارض مع تلك التصميمات الحديثة لواجهات محال وسط البلد، بعد أن شوَّهتها المطبوعات الفورية والملصقات الفسفورية التي لصقها الثوار في غفلة من رجال الأمن، والتي امتلأت جميعها بشعارات وعبارات معادية للنظام، لم تصلح معها جهود رجال البلدية في محوها.

وبداخل السوق يوجد فندق «بارادايس هوتيل» الدوار، الذي يحتل مساحة شاسعة من واجهة الميدان الشرقية، وهو فندق عالمي من تلك الفنادق ذات النجوم السبعة، والذي يقوم على الخدمة الذاتية وأقل تدخل ممكن من البشر.

وهذا الفندق يخص الصفوة من رجالات الفن والأمن والمجتمع.. لما يحظى به من موقع متميز يطل على البحيرة الصناعية التي تم إنشاؤها في موقع ميدان التحرير القديم، ولقربه من السوق المركزية.

هذا الفندق المبهر هو مقصدنا.. تحديدا الطابق السادس منه، والغرفة التي تحمل رقم الوحش الأسطوري «٦٦٦».. لم تكن الغرفة هي غايتنا بالطبع، بل كان قاطنها. الذي كان يتعلق من قدميه في سقف الغرفة بأداة رياضية حديثة، وعن طريقها انهمك في ممارسة أحد تمارين البطن العكسية شديدة الصعوبة والتي تحتاج لقوة ومهارة بالغتين للقيام بها، دون أن يظهر على وجهه المقنع أي ملامح إنهاك.

كان يشبه، في هيئته هذه، الخفاش، أو أحد هؤلاء المقاتلين الأسطوريين الذين غصَّت بهم أفلام النينجا القديمة التي عفى عليها الزمن، بعد أن أغرقت أفلام الأبطال الخارقين الأمريكية سينمات العالم، خاصة مع الرداء الأسود الذي يغطي جسده بالكامل، والقناع الذي يخفي ملامح وجهه في إحكام.

ومع الإضاءة الخافتة والظلال التي تغلف كل شيء في الغرفة الواسعة، كانت رؤيته وحدها على هذه الحالة الغريبة تبعث الرهبة في القلوب.

الصمت كان يغلف كل شيء لا يقطعه إلا صوت تنفسه المنتظم الذي لا ينبئ عن مقدار المجهود الذي يبذله، لممارسة هذه التمارين الرياضية العنيفة في هذا المكان والتوقيت العجيبين.

ظل على حالته هذه لنصف ساعة كامل يمارس تمارين الانقباض والانبساط، قبل أن تترك قدماه عارضة الجهاز الرياضي الحديث المضاد للجاذبية، ليهبط على قدميه في نعومة ودون صوت وكأنه شبح لا تأثير للجاذبية عليه.

تبع هبوطه المبهر صوت تداخل العارضة وانضغاطها في مساحة أقل من نصف المساحة التي تأخذها في أثناء عملها، قبل أن تهبط دون صوت لتلامس الأرضية وتستقر فوقها بهدوء.

تقدم بخطوات هادئة صوب جهاز التليسكوب الليزري الذي توسط الغرفة بعيدا عن الأعين الراصدة، والذي برزت بجواره شاشه هولوجرامية مجسمة، تظهر مشاهد شديدة القرب والوضوح لواجهة مبنى الأمن العام الرئيسي الذي يواجه مباشرة الغرفة التي استأجرها منذ زمن بعيد أحد رجاله..

كان ينتظر ظهور شخص ما بعينه، وهو يتأمل المؤقت الزمني بعينين هادئتين تعملان على رصد كل المتغيرات، وتتابعان بلهفة برنامج مقارنة الوجوه، الذي لم يتوقف لحظة عن مقارنة أوجه القادمين والمغادرين لمبنى الأمن العام الرئيسي، مع ما هو مسجل في قلب ذاكرته الإلكترونية.

من يرَ عيني الملثم المتحفزتين اللتين تطلان عبر القناع يعرف أن الخوف لم يزُر هاتين العينين الحادتين من قبلُ.

ويعرف أن ما تريده هاتان العينان لا بد أنه قائم.. مهما كانت العقبات والمنغصات.. إنهما عينان لم تعرفا الهزيمة أو اليأس يوما.

هاتان العينان كانتا تتابعان البيانات التي أخذت تتراص على شاشة الجهاز الهولوجرامية لتعلن انتهاء عملية الأرشفة.

الآن هو قد رصد موعد تبدل الدوريات وحضور وانصراف أهدافه المختلفة، ورصد الأشخاص الاثني عشر المطلوبين على قائمته، بل وبدأ في وقت سابق في قنصهم بالفعل.

الخطوة الأخيرة في خطته هي الإيقاع بقائدهم.. وهي مهمة شديدة الحساسية والخطورة والصعوبة؛ نظرا لمكانته الكبيرة بقلب أعلى جهاز أمني في مصر.. لكن قلبه لم يعرف الخوف يوما أو المستحيل.. لقد قام من قبلُ بعشرات العمليات المماثلة التي أنجزها على أكمل وجه في فترة عمله السابقة في القوات المسلحة.

لكنه الآن كان يعمل تحت لواء مختلف.. وبمشاعر مختلفة تماما.. لا مجال معها لأي تهاون أو خطأ.

إن قائده اليوم هو ملك الموت، وهدفه هو الانتقام.

واليوم كان قد انتهى من رصد كامل تحركات الهدف.. فحدد - وبدقة تامة عن طريق أجهزته المتطورة - مواعيد قدوم سيارات الحراسة المصفحة التي تعمل على تأمين موكبه، والتي تتبدل كل شهر، حسب الخطة الأمنية الجديدة، من أجل أمان أكثر لرجال الشرطة الذين أصبحوا مستهدفين من

قِبل الثوار والمعزولين.
العقيد سميح رياض هو هدفه الحالي.
وها هي صورته ثلاثية الأبعاد شديدة الدقة والوضوح تملأ فضاء الغرفة عبر جهاز الرصد، بجسده العملاق وخُيلائه وغروره التي لا يوازيه فيها إلا الشيطان نفسه.
نظر الملثم للصورة بحقد شديد، وكراهية لا يوازيها إلا مقدار غضبه.
وعلى الفور قام بتوجيه سلاحه المتطور، الذي يشبه إلى حد كبير البندقية الارتجاجية الحديثة، إلا أن له فوهة أطول وخزانة زجاجية شفافة، تسبح بداخلها ما يشبه كائنات دقيقة تتحرك طوال الوقت بداخل سائل قلوي شفاف.
برمج الملثم قذيفة سلاحه لتتبع الهدف عن طريق الكمبيوتر بنسبة خطأ لا تتجأوز الواحد في كل مليون، قبل أن يطلقها عبر النافذة المفتوحة، لتنطلق بسرعة رهيبة لتصيب عنق العقيد سميح رياض في لمح البصر، ودون أن يرصدها أي من المتابعين أو الحرس.
أصابت القذيفة الموجهة دقيقة الحجم رقبة العقيد سميح رياض في قوة قبل أن تتسلل إلى دمائه لتبدأ حركتها داخل أوردته على الفور بعد أن انقسمت لآلاف الأجزاء الدقيقة الأخرى بطريقة مذهلة، لتتخذ طريقها بدقة نحو نهايات الخلايا العصبية لتكمن هناك بهدوء.
ليتلفت بعدها العقيد سميح رياض حوله في عنف، وهو يقبض بقبضته القوية على رقبته في مكان الإصابة، وهو يلعن الذباب الذي أصبح أكثر إزعاجا من الثوار أنفسهم، وليصرخ في الجندي المصاحب له ليفتح باب السيارة ليغادر هذا المكان القذر على الفور.
كانت قذيفة نانومترية من أحدث ما أنتجته السوق السوداء من سلاح.. مجموعة صغيرة من الآليات المبرمجة ستبدأ في تفعيل دورها في الموعد المحدد تماما، لينتهي الجزء الأخير من خطة انتقامه الكبرى.

* * *

انتهى ذلك الملثم من مهمته الخطيرة، فجمع أدواته المتناثرة في أرجاء الغرفة في حقيبة معدنية سوداء ثم غادر الغرفة متسللا عبر الرواق، متحاشيا كاميرات المراقبة الموزعة في كل مكان بمهارة شديدة، حتى وصل لأسطوانة التخلص من القمامة، التي تمتد عبر المبنى بالكامل، والتي تمثل المخرج الآمن الذي حدده لنفسه ليغادر الفندق، دون أن يترك خلفه أي أثر يمكن تتبعه دالا على وجوده بالمكان.

إنه مدرَّب على أعلى مستوى، ويجيد التسلل والاختباء كالشبح، وهذا من سوء حظ أعدائه.

دفع الحقيبة الثقيلة التي يحملها على ظهره لتسبقه عبر الأسطوانة المعدنية المظلمة، قبل أن يتبعها في مرونة شديدة، وخلال ثوانٍ معدودة كان قد وصل إلى مكان تجمع القمامة كريه الرائحة، ليفاجئه وجود حارس أمن الفندق الذي كان يتفحص حقيبته السوداء في ريبة.

لم يكن يرغب في إيذاء حارس الأمن، لكنه لم يكن ليترك خلفه أي شهود، لا بد أن يظل كالشبح.. لا يعرف أحد بوجوده حتى يتم مهمته المقدسة..

ولم يترك له حارس الأمن الفرصة ليفكر أكثر، فقد استل سلاحه ووجهه نحوه وهو يطالبه بالثبات في مكانه.

ما حدث للحارس في اللحظة التالية لا يمكن أن يكون قد رصده، أو استطاع عقله أن يرصده ويسجله في ذاكرته.

ففي اللحظة الأولى كان الملثم أمامه، وفي اللحظة التالية كان سلاحه قد طار من بين يديه بركلة عنيفة، قبل أن يسمع صوت تهشم عنقه لتغادر روحه المذهولة جسده، ولتجحظ عيناه خلف قناع التنفس في قوة.

حمل الملثم جثة الحارس الثقيلة في بساطة وكأنه دمية أو طفل صغير، بعد

أن استولى على حافظته وبطاقاته المالية ليبدو الأمر كعملية سرقة عادية، قبل أن يقوم بقذف جثة الحارس بداخل أقرب صندوق للقمامة، ليحمل بعدها حقيبته ويبدأ في التسلل عبر الشوارع الخالية، متجنبا دوريات الأمن التي تشرف على حظر التجول.

كان يتنقل من مكان لمكان في سرعة ومهارة، فيظهر في ردائه الأسود كالشبح، حتى وصل إلى دراجته النارية المزودة بكاتم للصوت، والقابعة بداخل أحد الجراجات الخاصة بأحد المولات الكبيرة، ليستقلها في قفزة واحدة قبل أن ينطلق بها عبر الشوارع الداخلية وخوذته ترصد اتصالات رجال الشرطة ليتجأوز بها معظم الأكمنة الموجودة على الطريق.

لم يعد حظر التجول الدائم محكما كسابق عهده به أن صار معتادا وروتينيا.. فقد تراخت القبضة الأمنية إلى حدٍّ ما، وظل الخوف هو ما يجبر الجميع على البقاء في منازلهم.

كان حظر التجول يساعده كثيرا في مهمته ويختصر له وقتا ثمينا.. والملاحَظ أن الكهرباء لم تكن تنقطع في أثناء الليل أبدا، لمساعدة رجال الأمن في أداء مهامهم، ما يثير الريبة والشك في عملية إصلاح محطة الكهرباء الرئيسية.

قطع الطريق الخالي بسرعة كبيرة، دون أن تحدث أي منغصات، وعندما وصل إلى منزله وضع حقيبته في المكان المخصص لها، قبل أن يهبط مباشرة إلى قبو منزله.

وبداخل القبو كان هناك مشهد رهيب تقشعر له الأبدان.

كان هناك جسدان لرجلين قويين عاريين من الثياب تماما، معلقين رأسا على عقب، كالذبائح، من أقدامهما إلى سقف القبو، وقد بدأت دماؤهما تتصفى ببطء من جروح حديثة تم قطعها بمهارة أعلى الفخذ، تختلف عن تلك الجروح الأخرى التي تخثرت الدماء من حولها، ولم تعد مصدرا للنزيف أو الدماء، وإن دلت على مقدار المعاناة التي عانياها على يد الملثم في وقت سابق.

كانت الدماء تتساقط دون هوادة بعد أن قام الملثم في وقت سابق بحقنهما بمادة تمنع تجلط الدم.

وكان من الواضح أنهما يحتضران.

اقترب الملثم من الجسدين الفاقدين للوعي، والمثخنين بالكثير من الكدمات والجروح قبل أن يتناول من فوق منضدة معدنية مسدس حقن تمتلئ خزانته بالأدرينالين الصناعي، ليقوم بحقنهما مباشرة في القلب، لينتفض الجسدان في عنف قبل أن يستعيدا وعيهما دفعة واحدة.

كان منظرهما يثير الشفقة في القلوب، لكن الملثم لم يبالِ بحالتهما، وإن ظهر على عينيه القاسيتين المطلتين من خلف القناع الداكن أنه يستمتع بمعاناتهما لأقصى درجة.

لمحت أعين الرجلين وجه الرجل فانتفضا في عنف لتمزق القيود الحادة أقدامهما، ولتغوص في لحمها قبل أن يقول أحدهما في وهن:

- الرحمة.

لكن السوط الذي ظهر في يد الملثم أظهر أن الرحمة هي آخر ما يفكر به.. وأن اللحظات التالية ستكون لحظات مروعة دون شك على الرجلين المعلقين في سقف القبو.

وبصوت صارم بدا وكأنه قادم من أعماق الجحيم، قال الملثم:

- هيا أيها الصغار.. أخبروني بمن سنبدأ حفل الليلة.

وفي اللحظة التالية، انهمرت دموع الرجلين في غزارة قبل أن يرددا معا:

- الرحمة.

ومع صوت السوط الذي شق الهواء، قبل أن ينهال على وجه الرجل الأول ليمزق لحم وجهه، ذابت كل توسلاتهما ولم يبقَ إلا الألم.

كل الألم.

الموعد

قبل غروب الشمس بقليل، غادر الصحفي خالد صبري مبنى المركز الإعلامي بعد أن ثبَّت قناع التنفس على وجهه، وبداخله شحنة من المشاعر الإيجابية، تكفي نصف سكان الأرض ليستعيدوا بها قدرتهم على الأحلام، وسط هذا العصر الدموي الكئيب الذي تسيطر عليه الحكومات المتعاقبة بالحديد والنار.

كم تمنى لو كان لديه جناحان من ريش كالطيور، التي أصبحت نادرة ككل شيء في هذا العصر، ليحلق بهما في سماء القاهرة الرحبة.

لم يتوقع «خالد»، أبدا، أن ينتهي اللقاء بهذا النجاح المذهل وتلك النتيجة المبهرة، لقد استعاد أخيرا اهتمام «جهاد»، وفي الوقت نفسه فتح مغارة الكنز لينهل منها من جديد.

لقد ضرب عصفورين بحجر واحد، كما يقولون في الأمثال.

وإن كان لا ينكر أن «جهاد» ما زالت هي ملخص أحلام، وتعريفه المركَّز للأنوثة والجمال.

فلم تحتل أنثى بعدها مكانتها، ولم ترَ أنثى أخرى مهما كانت فتنتها عطشه للحب والجنس، كل النساء بعدها ظللن محأولات فاشلة وقاصرة، ليكنَّ نسخة بالكربون منها.

وظلت هي نموذج المرأة الوحيد الذي أرضى غروره.

عندما استيقظ «خالد» هذا الصباح، كانت كل طموحاته تتلخص في شيء واحد فقط!

وظيفة مرموقة توفرها له «جهاد» بداخل الصرح الإعلامي الكبير الذي تترأسه، والذي ساعدها للوصول إليه مكانة زوجها المرموقة في الحزب الحاكم، لتنتشله مما هو فيه من ضياع وخيبة أمل.

أما ما حصل عليه فقد كان يفوق كل طموحاته، بل لن نبالغ لو قلنا إنه لا يصدق حتى هذه اللحظة أنه أحرز هذا النجاح.

لقاء مع آدم المصري.. يالها من فكرة.. وياله من نصر مبين.

غادر خالد صبري مبنى المركز الإعلامي، ليستقل سيارته ذات الموديل القديم غير المزوَّدة بمحرك الدفع الصاروخي، التي تعمل بالكهرباء، لقد ولَّت هذه الأيام مع بيعه لسيارته الحديثة، لرأب ذلك الصدع المالي بين دخله ومصروفاته، بعد أن أدارت له الأيام ظهرها مع طلاقه من «ريناد»، قبل أن ينطلق بها ليقطع شوارع القاهرة شديدة الازدحام على غير هدى.

كانت مشاعره ثائرة، وجسده يرتجف من الإثارة، حتى إنه نزع قناع التنفس، وأخذ يتنفس في عمق الهواء البارد الخارج من مكيف السيارة المعدل والمزود بفلتر حيوي لتنقية الهواء.

لقد حان الوقت أخيرا ليعود اسمه من جديد ليسطع في سماء الصحافة الإلكترونية والمسموعة، لن يعود مجددا لفبركة أخبار الفضائح والقصص الجنسية، ومقالات هل تعلم وصدق أو لا تصدق الهزلية في تلك الصحيفة الصفراء التي يعمل بها، التي أنسته معنى كلمة صحفي وصحافة.

وعلى الرغم من أن «جهاد» لم تعده بشيء، لكنه يدرك أنها ستفعل الكثير لمساعدته، فلو نجحت لنقلت طموحاته لمستوى لم يحلم به في حياته، ولو فشلت فسيستمر التواصل بينهما.

إنها ما زالت ملكه، وما زالت تكن له من المشاعر ما يضمن له ألا تتخلى عنه، لقد رأى في عينيها الحنين نفسه الذي اعتاد رؤيته في سنواته الأولى معها، عندما ودعته من مكتبها وتلاقت أكفهما في رقصة عشق حارة.

إنه يملك مفاتيح روحها وجسدها، هو من علَّمها كل ما أصبحت عليه،

ويعرف، عن يقين، أنه الشخص الوحيد الذي ألهب أنوثتها وأشبع شغفها لتلك الممارسات الشاذة العنيفة التي تعشقها على الفراش.

تألقت على البعد إشارة المرور بالضوء الأحمر لتهبط على الفور خيوط ليزرية حمراء لتقطع الطريق.

من يتخطاها تسجل عليه مخالفة، وتضاف إلى سجله الرقمي بإدارة المرور، وفي التقييم السنوي قد يُحرم من القيادة إلى الأبد لو تجأوز الحد الأقصى من المخالفات حسب قوانين المرور الجديدة، التي تطبق في الكثير من البلدان منذ عقود، وطُبقت أخيرا في مصر بعد جدل شعبي كبير.

فحكومات الشرق لا تستخدم إلا ما يناسبها من التكنولوجيا وفي التوقيت الذي يناسبها فقط، وعندما توقن أن ما ستستخدمه سيخدم مصالحها فقط وسينعش خزانتها.

أشعل «خالد» الراديو ليحظى ببعض الموسيقى في أثناء انتظاره في الإشارة التي تتوقف لثلاث دقائق كاملة، عندما دوى الصوت العسكري الصارم عبر سماعته شديدة الصفاء:

- الأمن العام يشكركم على التزامكم بالقوانين.. تذكروا دائما.. نحن هنا من أجلكم.. نحن في كل مكان نتابع خطواتكم.. التزامكم بالقانون هو ما يحفظ حياتكم و...

أغلق «خالد» الراديو، وهو يتمتم:

- اللعنة على الأمن العام.. بل ألف لعنة.

قبل أن يضغط مكابح السيارة لتتوقف على الفور قبل عدة بوصات من خطوط الليزر الحمراء، التي تم استبدالها بإشارات المرور القديمة، وهو يفكر في عمق.. لا شيء يجب أن يعكر عليه صفو ليلته.. إنه الرابح اليوم، فليذهب الأمن العام وتحذيراته إلى الجحيم.

ما زال هؤلاء الأوغاد يطبقون كل الأفكار القمعية لإرهاب الشعب، حتى الأدب استخدموا ما فيه من خيال لبسط سيطرتهم وقبضتهم الأمنية.

الأخ الأكبر يراقبك.. فليكن تنفسك بحساب.
تجاهل كل شيء وهو يستعيد الحوار السابق مع «جهاد»، ليشعر بنشوة عارمة تسري في كيانه، وعلى الفور قرر أن يكافئ نفسه، فأخرج من درج سيارته الجانبي علبة من السيجار الفاخر.. بقايا من أطلال عصره الزائل، علبة أنيقة لا يوجد بداخلها إلا سيجار واحد مغلف.
كان قد أقسم ألا يدخنه إلا عندما يمتلك ما يكفيه مجددا لشراء علبة كاملة من نوعيته غالية الثمن، واليوم هو موقن بأنه على وشك أن يمتلك من الأحلام ما يكفي لشراء مصنع كامل من السيجار.
أشعل السيجار باحتفاء مستخدما قداحة ذهبية كانت قد أهدتها له «جهاد» منذ سنوات، وظلت المفضلة عنده حتى وقتنا هذا.
سحب من السيجار عدة أنفاس مطولة عميقة، وكأنه يريد أن يعبق كل مسام جسده بهذا الدخان غالي الثمن، قبل أن تفتح الإشارة لينطلق مع سيل السيارات المتدفقة وسط ليل القاهرة الساحر، وقبل ذهابه إلى شقته الجديدة، التي استأجرها بعد استيلاء زوجته السابقة على شقته القديمة حسب قانون الزواج الجديد، فإنه عرج على حانة قريبة وتناول هناك كأسا من الفودكا جعل الدماء تفور بداخل عروقه.
وعلى الرغم من أن جسده يطلب المزيد، فإنه لم يتناول أكثر؛ فهو لم يكن يرغب في أن يبدد ما لديه من أموال قبل أن يحصل على المزيد. بل وتجاهل فتاة الليل التي حاولت أن تقنعه بشراء كأس لها، ومع نشوة الخمر تذكر نصيحة قديمة لقائده في الجيش في تلك الفترة الإلزامية البشعة التي خاضها في مرحلة شبابه بعد حصوله على بكالوريوس الإعلام، التي أكدها قائده بشدة كنموذج يطبق على كل الإمدادات من ماء وطعام في أثناء الحروب، والتي كانت آخرها حروب الماء والتي لم تنتهِ بعدُ، وكان يقول فيها ووجهه الأحمر المنتفخ يهتز:
- في وقت الحرب لا تشرب ما في جرتك من ماء قبل أن تعيد ملأها من

سيارة الإمدادات؛ فقد يأتي صاروخ لينسف السيارة أمام عينيك قبل أن تتاح لك الفرصة لتعيد ملأها، فتكون قد خسرت الماءين معا لتحكم على نفسك بالعطش.

كانت نصيحة جيدة على الرغم من كل شيء، وهو جيد جدا في الاستفادة من كل النصائح، مهما كانت قسوة الظروف التي حصل عليها فيها.

قطع الطريق المزدحم في نصف ساعة وهو يتأمل واجهات المحلات المظلمة في شرود وعقله يقرأ الشعارات والملصقات المنددة للنظام بطريقة لا إرادية، حتى وصل للبناية التي يقطن فيها، ليرتقي «خالد» الدرج الرخامي في قفزات واسعة، ليصل إلى شقته في وقت قياسي على الرغم من كونها تقع في الدور السادس، وكل خلية في جسده مترعة بنشوة لا نهاية لها، حتى إنه لم يلعن حظه وفقدان السلالم الكهربائية الذكية في مبنى شقته القديمة كما اعتاد دائما.

ولأن الليل في أوله فقد قرر أن يحظى بمكافأة أخرى مختلفة ومن نوع خاص. سيقوم بعزف مقطوعة موسيقية يعشقها على البيانو الخاص به وعلى أضواء الشموع الصناعية طويلة المدى؛ فالكهرباء ما زالت مقطوعة، والذي لم يفرط فيه على الرغم من كونه يسأوي ثروة؛ فالموسيقى تسري في دمائه.

بل هي جزء من تكوينه النفسي والعصبي.

فالحياة بالنسبة له من دون موسيقى صحراء من دون زهور.. إنه يؤمن بداخل وجدانه أن من لم يعشق الموسيقى لم يتعلم بعدُ كيف يكون إنسانا حقيقيا.

وعلى الفور جلس بجسده النحيل فوق المقعد الموجود أمام البيانو ودون أن يبدل ثيابه، وبدأ يداعب أصابعه العاجية في نقرات حالمة، وقد اندمج مع الموسيقى الصادرة إلى أقصى مدى، حتى إنه لم يشعر بعودة الكهرباء بعد دقائق من شروعه في العزف.

كان يعزف واحدة من أجمل وأعذب مقطوعات البيانو وأشهرها على

الإطلاق.. السيمفونية التاسعة لـ«بيتهوفن»، التي وضع ألحانها منذ قرنين من الزمان، تحديدا في أبريل من العام ١٨١٠م، ويقال إنه أهداها إلى تيريز مالفاتي، وهي إحدى تلميذاته التي كان بيتهوفن ينوي الزواج منها، والمثير للسخرية هو قيام تيريز لاحقا بالتخلي عن الموسيقار المتيم بها، لتتزوج أحد النبلاء، ليظل بيتهوفن أعزبَ حتى وفاته.

تتشابه قصته مع قصة بيتهوفن إلى حد كبير.. الإخلاص.. فالخيانة.. فخيبة الأمل، لكنه لا ينوي أن تنتهي قصته بالنهاية نفسها - وهو يعمل جاهدا على ذلك.

لم يكن يهمه في هذه اللحظات ما مر في حياة بيتهوفن من مآسٍ.. ليحترق بيتهوفن في قبره، فقط لتبقى موسيقاه حية تمنحه تلك النشوة الخالصة.

مرت عليه فترة طويلة، تجأوزت الساعة ونصف الساعة، وهو يسبح في عالم من النغمات الحالمة، والنشوة المعبقة برائحة الفودكا القوية، ولم يقطع اندماجه إلا دوي الصوت الناعم، الخاص ببريده الإلكتروني القادم من جهاز الحاسوب التفاعلي، ليخبره بوجود رسالة جديدة من بريد إلكتروني مجهول المصدر.

وفي لحظة واحدة كان قد نسي الموسيقى وبيتهوفن والفودكا وتلك النشوة العارمة التي منحته له تلك الموسيقى الأسطورية منذ لحظات، وراح بكيانه كله مع الرسالة.

فتح البريد الإلكتروني المجهول، ليصدم عينيه بالداخل شعارُ الأمن العام المخيف ثلاثي الأبعاد، فكاد يطير صوابه لأول وهلة..

الرسالة قادمة إذًا من الأمن العام، أما محتواها فكان تجسيدا خالصا لكل أحلامه وطموحاته، فقد تحدد له الموعد المرتقب في وقت قياسي.. لا بد أن شوق «جهاد» إليه أصبح حريقا.

سيقابل آدم المصري بعد يومين.. ليخفق قلبه في قوة.

لم يبخل «خالد» على نفسه ساعتها بتلك الجرعة المضاعفة من المخدر

الجديد «أبوللو»، الذي منحه نشوة أسطورية، فظل يرقص حتى كاد يصاب بخلع في أحد مفاصله، ولم يوقظه من نشوته إلا انتهاء مفعول المخدر،ليسقط فوق فراشه كلوح خشب لا مشاعر له.

وعندما استيقظ في الصباح وتخلص من تأثير المخدر بقدح عملاق من القهوة، ومن دون لحظة تفكير إضافية، وقف أمام الحاسوب التفاعلي، وطلب منه تفعيل برنامج الأزياء والمقاسات.. وعن طريق خيط ليزري دقيق انبثق من جهازه الحديث مسح الشعاع تفاصيل جسده بدقة ورفع مقاساته الجسمانية إلى الموقع المنشود، الذي رشح له عدة أطقم من الملابس ومجموعة من الحلل المتدرجة في أسعارها، وعلى الفور انتقى من بينها حلة باهظة الثمن، وسدد ثمنها عن طريق البصمة الصوتية ورقمه القومي، ليحدد بعدها موعد ومكان التسلم، وقد قرر أن يزور الحلاق الإلكتروني بالحي الأربعين ليصفف له شعره، فليس كل يوم تتاح لك الفرصة لتقابل آدم المصري..

زعيم الثورة.

«آدم»

تحركت عقارب الساعة ببطء شديد وكأنها تسير للوراء، ليمضي اليومان الفاصلان في بطء وملل، وكأن الزمن قد قرر أن يأخذ غفوة، أو يضع خالد صبري في برزخ زمني خاص لا تتحرك عقارب الساعة بداخله، نكاية به وكي لا تكتمل بهجته بنصره المحقق.

يومان استغلهما خالد صبري في قراءة ومراجعة كل الكتب والمقالات والنشرات الإلكترونية والنفسية التي جاء فيها ذكر آدم المصري، حتى صار خبيرا في كل ما يخصه وبكل ردود فعله.

فما إن تتاح له الفرصة حتى يعتصره ليخرج لنفسه منه نجوم الشهرة والمجد.

لا بد أن تاريخ الصحافة سيسجل هذا اللقاء في يومياته المكتظة بمداد من ذهب.

كان يشعر بتوتر متزايد؛ فالأحداث هذه الأيام تلاحقه بسرعة شديدة، بعد أن ظن يوما أن حركة الكواكب نفسها قد أصبحت كسيحة.

وعندما حان الموعد تنفس الصعداء، وارتدى حلته الأنيقة، ثم طلب سيارة أجرة لتقله إلى السجن المركزي، ليحافظ على هيئته التي أراد أن تبدو مبهرة وأكثر قوة من شخصيته المعتادة.

فالانطباعات الأولى - كما يقولون - تدوم.

انطلقت السيارة الأجرة لتقطع الطريق المزدحم، و«خالد» لا يتوقف عن النظر إلى هاتفه المتطور، متأملا ذلك التصريح الأمني الثمين، غير مصدق أنه قد حصل عليه بالفعل.. غير منتبه لذلك السائق - الذي يتابع عبر حاسوب السيارة التفاعلي، المتصل بغرفة القيادة المركزية في شركته - حالة الطريق،

ليتفادى طرق المظاهرات والاحتجاجات التي انتشرت منذ بضعة أشهر، منددة بوعود الحكومة التي لم تتحقق خلال العام الماضي، لتؤكد القاعدة الثابتة عبر التاريخ والزمن أن الحكومات تعد ولا تفي، وكأن هذا قانون صارم أقسمت عليه من أول لحظة قبضت فيها على دفة البلد.

وأخيرا نجح سائق السيارة في العبور من عدة طرق آمنة، بعضها جانبية، ليصل في النهاية إلى مبنى السجن المركزي شديد الحراسة المقام على أطراف القاهرة الجديدة، ليسدد «خالد» الأجرة بهاتفه، مانحا للسائق بقشيشا سخيا، قبل أن يهبط أمام تلك القلعة المحصنة، التي يطلق عليها مجازا السجن المركزي.

وعندما شاهد «خالد» الأسوار المكهربة وخيوط الليزر القاتلة المحيطة به والتحذيرات الأمنية الضوئية، أصابه خوف مجهول، جعل قشعريرة باردة تسري في عموده الفقري، وتنفس بعمق من خلف قناع التنفس ليزداد توتره.

وعندما اعترض طريقه رجل الأمن المدجج بالسلاح، أراه بتوتر التصريح الأمني على شاشة هاتفه المتطور، ليقوم بمراجعته مع كمبيوتر الأمن قبل أن يسمح له بالدخول في حراسة جنديين مدججين بالسلاح إلى داخل المكان المقبض.

وبداخل المكان المخيف، قطع «خالد» عدة ممرات متقاطعة، قبل أن يصل لمكتب قائد الحرس الذي يقف لحراسته جنديان آخران في تحفز..

وأمام مكتب قائد الحرس، الذي لم يظهر له أي ود، اهتزت أعصاب «خالد» مع تلك النظرات المتشككة التي حاصره بها قائد الحرس وهو يمد يده له بذلك التصريح الأمني مجددا، ليشيح قائد الحرس بيده في لا مبالاة جعلت أعصاب «خالد» تتوتر أكثر.

وبعد دقيقة كاملة من الصمت، وتلك الطريقة العدائية في استقباله، نظر قائد الحرس إلى «خالد» بنظرة مستهينة شملته من رأسه حتى أخمص قدميه، ثم أشار للجنديين المصاحبين لـ«خالد»، قبل أن يقول في صرامة:

- الإجراءات المتبعة.

وكانت هذه الجملة القصيرة مفتاحا لسلسلة من عمليات التفتيش والإهانة المنتقاة التي خضع لها «خالد»، قبل أن يُسمح له بمقابلة أخطر سجين مصري في القرن الثاني والعشرين.. آدم المصري.

وفي غرفة مجهزة شديدة التأمين، جلس «خالد» ينتظر ظهور الأسطورة، وفي رأسه دارت مئات الأفكار المضطربة فشعر بحلقه جافا كالحطب.

لكنه لم يجرؤ على طلب كوب من الماء، فمن الواضح من عدائيتهم أنه غير مرحَّب به هنا.. لقد شعر لوهلة أنهم سيسلخون جلده ليبحثوا أسفله عن أي ممنوعات أو وسائل اتصال قد تكون مخبَّأة بطريقة ما بداخل جسده.

لم يكن حذرهم هذا مبالغا فيه، لكنه لم يتقبل الأمر بسهولة.

حأول خالد صبري - بصعوبة - السيطرة على أعصابه، كي لا يفسد سوء الاستقبال سعادته الغامرة بحصوله على هذا التصريح.

كانت فكرة وقتية مجنونة منحها له الملصق الثوري القديم، ولم يتورع هو عن الخوض فيها.. لقد استغل الجميع الثورة، وحصد كل منهم ثمار جهد وعرق ودماء الشباب، فلا ضير من أن يجني هو أيضا بعض الثمار؛ فالمعركة انتهت منذ زمن طويل.

الحقيقة أنه لم يشترك في الثورة الأخيرة، ولم يدعمها، بل ورآها مجرد سنوات مهدَرة في حياة الأمة توقف عجلة التقدم، وتزيد الفقراء فقرا، خاصة أن الموجات الثلاث الأخيرة قد فشلت فشلا ذريعا بعد أن قام الأمن بحصارها وقمعها.

ولماذا يذهب بعيدا، فها هو آدم المصري نفسه، الذي أشعل الموجة الثورية الأولى، وخرجت من أجله الموجتان التاليتان، يرزح تحت نير القيد والسجان في أكثر السجون قسوة وتأمينا؟!

كان يؤمن جيدا أن الثورات لا تنجح إلا عندما يبدأ الدهماء والعامة في السيطرة على مقاليد الأمور، بعيدا عن النخب ومدعي الوطنية.

الثورات لا تنجح إلا عندما تكون دموية وتجتث النظم الاستبدادية من جذورها، دون البحث عن حقوق إنسان أو شعارات بائسة.
الثورات تنجح عندما تبدأ الأكثرية المظلومة في قمع الأقلية الظالمة ومحوها من خيط التاريخ الزمني.
الثورات تنجح عندما تحكم فقط.
وهذا ما لم يحدث، ولا يعرف حتى هذه اللحظة لماذا!
وهو سر يجب أن يُكشف عنه النقاب، لتتحول مقالاته إلى أساطير يومية.
ما يمر به الآن هو فرصة نادرة لا تتكرر في العمر الواحد مرتين، وهو لن يجرؤ على أن يضيعها..
إنها الطريق نحو المجد والشهرة ونحو استعادة نفسه، لقاء آدم المصري حلم مذهل لم يكن ليتخيل يوما أن يدخل دائرة أحلامه.
تفحَّص الغرفة التي سيتم بها اللقاء بعينين غير مصدقتين وهو يحفر كل تفاصيلها في عقله؛ فبعد دقائق ستدخل هذه الغرفة التاريخ، ولن يفصله عن الأسطورة إلا هذا الحاجز الزجاجي المضاد للرصاص والإشعاع.
ولكن هل يستطيع حاجز مماثل أن يمنع عنه أذى «آدم» لو أراد الاعتداء عليه أو إصابته بالأذى؟ إن عنف آدم المصري تخلده المجلدات.
لا يعرف لماذا شعر بخوف مفاجئ!
إن لقاء شخص مثل «آدم» لم يكن ليرأوده خلال حياته، صحيح أن خمس سنوات مرت على اعتقاله في هذا السجن المشدد، إلا أن ذكر اسمه ما زال يصيبه بالخوف والتوتر؛ فسيرته ارتبطت طوال الوقت بالقتل والدماء.
إنه آدم المصري، محظوظ بطريقة كبيرة؛ لأنهم لم يحكموا عليه بالموت، وحكموا عليه بالسجن مدى الحياة.
ليظل الأسطورة الحية، التي تؤرق منام الجميع.
آدم المصري أيقونة الثورة الجديدة.
آدم المصري جيفارا العصر الحديث.

آدم المصري..

قطع حبل أفكاره صوت باب الغرفة المصفح وهو ينزلق في هدوء بداخل الحائط، وعلى الرغم من أن الصوت كان خافتا جدا ولا يكاد يسمع، فإن حواسه المتحفزة رصدته، لتتسع عيناه في انبهار وهو يشاهد آدم المصري يعبر إلى داخل الغرفة بصحبة أربعة من الحرس المدججين بالسلاح.

ما زالت تلك الهيبة والرهبة تكللان كيانه على الرغم من سنوات السجن السوداء.

لا سجن قتل أسطورة، أو وأد فكرة عبر التاريخ.

ظهر آدم المصري أمام عينيه المنبهرتين.. نحيل الجسم، حليق الوجه، لديه نظرات ثاقبة تخترق كيان من يقف أمامه وتزلزله، وحضور فطري طاغٍ، كما أن وجهه يحمل ابتسامة قاسية غير مريحة.

الانطباع الأول أنه يصلح نجما سينمائيا أكثر منه زعيما لثورة دموية فاشلة.

قيَّده الجنود إلى المقعد المعدني المجهز، الذي احتوى جسده بالكامل، ولم يترك له إلا رأسه حر الحركة وأطراف أصابعه، قبل أن يغادر الجنود الغرفة ليصطفوا على بابها في تأهب، ولتنطلق شبكة ليزرية متقاطعة بالكامل لتحيط بجوانب الغرفة، لتحولها في لحظة واحدة إلى خزانة محصنة لا يمكن أن تغادرها ذرة هواء دون أن تتلاشى في العدم.

الآن هو في حضرة الأسطورة لا يفصله عنه إلا متر واحد.. الآن يستطيع فقط وهو مطمئن أن يصنع مستقبله من جديد، والسؤال الملح هنا:

- أين ذهبت الكلمات؟!

- ما سر دقات قلبه العنيفة؟ ولماذا أصيب عقله بالشلل فتبددت من داخله كل مفردات اللغة؟ إن بداخله رغبة هائلة ليعدو هاربا، يقأومها بعنف وهو يضبط خيارات تسجيل المحادثة في ذلك المسجل الإلكتروني، الذي سمح الحراس له – بصعوبة - باصطحابه معه بعد فحصه عن طريق خبرائهم التقنيين، متجاهلا تلك النظرات النفاذة من «آدم».

إن هاتين العينين خُلقتا للسيطرة، وهو لم يُخلق للمواجهة.
عرق بارد يغمر جسده، ومجهود رهيب يبذله ليجبر شفتيه على نطق الكلمات، وفي النهاية تمخض الجبل عن فأر وقال:
- كيف حالك يا سيد آدم؟!
انتفض جسد «خالد» في عنف بعد أن ألقى عبارته، عندما سمع ضحكة «آدم» المجلجلة وصوته القوي يتبعها متسائلا في خبث:
- ماذا بك أيها الصغير؟ أأنت خائف من «آدم» المكبل؟!

* * *

في أثناء تفريغ خالد صبري لمحتوى هذا اللقاء، ليعده ليكون المقال الأول في سلسلة من المقالات التي ستلهب خيال القراء عبر العالم، وجد نفسه عاجزا عن تحديد حقيقة مشاعره المضطربة في هذه اللحظة العصيبة.
كان خائفا، ومنبهرا، وضائعا، لكن الشعور الذي سيطر عليه أكثر هو الترقب. فعلى الرغم من حصوله على ذلك التصريح الأمني، لم يكن يضمن أن يتجأوب «آدم» معه، ثم إن أسلوبه المستفز يوتره؛ لذلك عندما نطق بعبارته الأخيرة، أجبر نفسه على استدعاء ابتسامة باهتة ليرسمها على ملامحه المتوترة، قبل أن يقول بأسلوب مستفز مماثل:
- لقد انتهى خطرك يا سيد «آدم» منذ سنوات، فما الداعي لأن أخشاك؟
قهقه «آدم» بصوت مرتفع للحظات، قبل أن يصمت ويسلط عينيه على وجه «خالد» بنظرة زلزلت أعماقه..
كان «خالد» يعرف جيدا ذلك التأثير الهائل الذي تصنعه نظراته على ضحاياه، ما جعل فرائص «خالد» ترتعد وتتلاشى تلك الابتسامة المقيتة التي غزت ملامحه قبل لحظات، تلك النظرات التي خرجت من الأتون نفسه الذي صُهرت فيه نظرات هتلر ونابليون وراسبوتين التي خلَّدتها كتب التاريخ، ليتلعثم «خالد» ويتلجلج ليقول بصوت مرتعد متردد:

- لم أكن أقصد.. إنني... لقد...
أطال «آدم» نظرته إليه هذه المرة وكأنه يعمد إلى كسر إرادته وهز ثقته في نفسه، قبل أن يتساءل بصوته المستحوذ المخدر، وبطريقة مفاجئة كمحقق ماهر يستجوب لصا أحمقَ:
- ما معلوماتك عني يا فتى؟! هل تؤمن بي حقا، أم هي محأولة سخيفة لتحقيق نصر صحفي زائف بنشر قصتي؟ إنك الصحفي الأول الذي يسمحون له بلقائي، أي سر يكمن خلفك؟!
أشاح «خالد» ببصره بعيدا، ليتجنب تأثير العينين المخدر، وبالفعل نجحت المحأولة، فحأول أن يتحكم في أعصابه بإقناع نفسه بأنه المسيطر، لن يترك لـ«آدم» زمام المبادرة ليمارس ألاعيبه العقلية معه.. إن «آدم» المكبل وليس هو، كما أن الجنود بالخارج متحفزون وسيستجيبون لاستغاثته الأولى وستمزقه بنادقهم الإشعاعية إربا إذا لم تبخره لو أراد به أذى، هذا لو استطاع أن يعبر الحاجز المزدوج، ويتحرر من مقعد احتجازه الرهيب.
خوفه الآن غير مبرر.. لقد نجح آدم المصري في إفقاده أعصابه في وقت قياسي.. يا له من أسطورة.
إن أمامه فرصة نادرة، ويجب ألا يضيِّعها من يديه أو يفسدها بسبب بعض الهواجس المريضة، والجيد في الأمر أن فضول «آدم» قد اشتعل من ناحيته وهو لا ينوي أن يبدد هذه الميزة، إنهما الآن يتبادلان رشفات كأس الغموض، وعندما همَّ بأن يتحدث بادره «آدم» قائلا:
- إنني أعرف ما تفكر به جيدا يا... ما اسمك أيها الفتى؟!
تلعثم «خالد» للحظات قبل أن يخبره باسمه، ليعود ليستطرد:
- إنني أقدر مخأوفك وحماستك يا «خالد»، وأقرأ من ملامحك ما يجيش بصدرك، لقد فاجأتك كما فاجأتني.
إنك بخوفك وترددك هذا تشبهني قبل أعوام كثيرة، انت فاسد، والفساد يفوح مع عطرك من قماش حلتك غالية الثمن، إن كنت تريد أن تعرف

قصتي حقا وتريد لهذا الأمر أن يستمر، يجب أن تتبع قواعدي، والقاعدة الأولى هي أن تستبدل بهذه الثياب الأنيقة ثيابا مريحة أكثر، ثيابا أرخص، لكنها تبدو حقيقية وليست زائفة كشخصيتك.

وقبل أن يشرع «خالد» في الرد عليه، صدم أذنيه ما قاله «آدم»:

- اللقاء انتهى يا فتى.. وتذكر جيدا.. كل شيء يبدأ وينتهي بالفوضى.

في اللحظة نفسها فُتح باب الغرفة المغلق، ودخل الحرس المدججون بالسلاح، بعد أن ضغط «آدم» بطرف إصبعه الحرة زر استدعائهم المدمج بالمقعد، فلم يستطع «خالد» أن يجبره على مواصلة اللقاء، فشرط «آدم» الوحيد لإتمام هذا الأمر أن ينهي اللقاء متى أراد، ولم يكن «خالد» يمتلك ميزة الاعتراض.

تابع «خالد» - الذي لم يتوقف قلبه عن طرق أبواب صدره بعنف - خطوات نقل «آدم» من الغرفة المؤمَّنة، عبر الحاجز المزدوج، وعقله يحترق من كثرة ما به من تساؤلات.. وقبل أن ينصرف «آدم» استدار ورمقه بنظرة مطولة، لم يستطع أن يفسر معناها في حينها.

وإن ظلت عبارة «آدم» الأخيرة تتردد في عقله دون توقف:

- كل شيء يبدأ وينتهي بالفوضى.

انتقام

قبل يومين، دوَّت تلك الصرخات المدوية بداخل ذلك القبو الرهيب الذي كان فيه الملثم منهمكا في تعذيب هذين البائسين المعلقين من أرجلهما إلى السقف، وقد مزق السوط جسديهما بطريقة وحشية بشعة. لتختلط بذلك الأزير المرتفع من أحد تلك الأجهزة الطبية المتناثرة بداخل القبو، التي كانت تعمل على رصد المؤشرات الحيوية لهذين الشخصين الممزقين، اللذين يقوم الملثم بتعذيبهما في استمتاع وتلذذ.

أخرج الأزير الملثم من دوامة أفكاره ونشوته، فأخذ يتطلع بغضب وتوتر نحو جهاز رسم القلب الحديث الذي تحولت خطوطه المتقافزة منذ لحظات إلى خيط واحد متصل، دالة على مصير أحد هذين الرجلين، الذي ذهب إلى حدود الأبدية.

وفي لحظة واحدة تحول فيها الملثم إلى إعصار عاتٍ؛ فقد انقض على جهاز الصدمات الكهربية ليشحنه بشحنة مناسبة قبل أن يصدم به صدر ذلك الجسد الهامد المعلق عدة مرات وهو يصرخ في عنف:

- لا تمُت الآن أيها الحقير.. إنني لم أنتهِ منك بعد.. ألا تريد أن تعرف سبب تعذيبك؟ ألا تريد أن تعرف لماذا تموت؟

صعق الجثة عدة مرات بشحنات كهربائية مختلفة متصاعدة أحرقت إحداها بشرة صدره لتتصاعد رائحة شواء خانقة، قبل أن ينتزع جهاز الصدمات في عصبية ليلقي به في غضب، وعينا الشخص الثاني المحتقنتان بالدماء تتابعانه في رعب وقهر.. والآلام التي لم يعد يعرف تحديد مصدرها تعتصر جسده اعتصارا، قبل أن يحقن الملثم الغاضب الجسد الهامد بجرعة جديدة من الأدرينالين في محأولة بائسة منه لينشط بها قلبه، الذي توقف تماما عن

الحياة ولم يعد يؤدي وظيفته في مد جسده بالدماء والأكسجين.
كان من الواضح أن محأولاته لا جدوى منها، وأن هذا الشخص المعلق من قدميه قد لقي حتفه من شدة الآلام التي عاناها على يد الملثم في اللحظة التي أطلق فيها الجهاز أزيره.
أخذ الملثم يصرخ بغضب وهو يعيد الكرّة، مستمرا في صعق الجسد المثخن بالجراح، ومده بكمية من الأدرينالين تكفي لإيقاف قلب فيل بالغ في محأولة منه لإعادته للوعي والحياة، فهو لم ينتهِ منه بعدُ كما قال سابقا.
تعبَّق المكان برائحة الاحتراق الكريهة، ولم يتوقف الملثم عن محأولاته إنعاش الجسد إلا عندما أصابه إرهاق.. وعلى الرغم من محأولاته المحمومة لم يستطِع أن يعيد الحياة إلى الجسد المعلق أمامه، الذي أخذ يتأرجح أمامه بطريقة مستفزة والدخان يتصاعد من أماكن الجلد المحترق بكثافة..
فالموتى لا يعودون للحياة مهما كان مقدار غضبنا من موتهم.
وعندها استدار ذلك الملثم إلى الشخص الثاني المعلق من قدميه، قبل أن يقول في صوت هادر غاضب:
- لقد اقتصرت الحفلة علينا أيها اللعين، ولم يعد أمامي سواك، فهل تريد أن تعرف سبب موتك؟!
انتفض جسد الشخص المعلق في قوة بطريقة مثيرة للشفقة، وإن لم يستطع من فرط إرهاقه أن يجيب، لينهال عليه الملثم بلكمة صاعقه هشَّمت أسنانه الأمامية ومزقت لسانه بطريقة وحشية، قبل أن يقول:
- هل تريد أن تعرف، أم أنك كذلك الأحمق ستموت وانت جاهل بسبب موتك؟ حقيقة لا أعتقد أن من هم مثلك يأبهون بمعرفة ذنب ارتكبوه منذ سبع سنوات.
انتفض الشخص المعلق جاحظ العينين بقوة وعقله غير مستوعب تماما للحوار الدائر.. فالألم يصنع غشأوة على عقله لا مجال لانجلائها.. لقد فقد القدرة على النطق تماما.. وذلك الجزء الذي بصقه من لسانه مع أسنانه

المهشمة قبل أن يتقيأ عصارته المعدية يخبره بأنه لن يستطيع الحديث ما بقي له من عمر.. هذا إن كان ما تبقى له جديرا بما يأمله، فذلك الملثم المجنون سيقتله في النهاية دون شك.

وبعزيمة المحتضرين الذين يخفون سر نهاية العالم، أطلق همهمة اعتبرها الملثم إجابة شافية، قبل أن يقول:

- انت شرطي؛ لذا فإنك تعلم قدسية القسم، ومكانة من تقسم له قسما عظيما.. كالقسم الذي أقسمته أنا على قبر شقيقتي «شذى» وزوجها البريئين.

صمت للحظات وهو يتقدم من ذلك الشرطي الذي بدأ في الاحتضار، وقد قبض على شعره المخضب بالدماء والقيء في عنف قبل أن يقول:

- أنا الآخر رجل أمن سابق، كنت أعمل في العمليات الخاصة في الجيش، لكني كنت أوجِّه سلاحي للأعداء وليس لأبناء وطني.. هل تسمع أيها الحقير؟ أعدائي وليس أبناء وطني.

أخذ جسد ذلك الشرطي المعلق ينتفض في قوة وكأنه على وشك الإصابة بأزمة قلبية، ليجبر الملثم على قطع حديثه، ليتناول مسدس حقن آخر لا يحتوي على الأدرينالين.. بل يحتوي على المورفين.. قبل أن يحقنه به في قوة ليقول:

- هل تتوقع أن تهرب بهذه السرعة؟ لا تحلم بهذا الوغد.. صديقك غافلني وهرب، أما انت فلم أنتهِ منك بعد..

أعرف أنك لا تذكر من هما «رمزي» و«شذى»؛ فيداك ملطختان بدماء العشرات غيرهما من رجال المقاومة والمعارضة، لكنهما - صدق أو لا تصدق - سبب لعنتك، والسبب الرئيسي لوجودك هنا.

نظر الملثم للجسد المخدر ينتظر إجابة ما، وعندما لم يسمعها صرخ بعنف:

- أجبني أيها الحقير.. هل حميت وطنك بقتلهما.. أم حميت الظالمين؟ إنك هنا لأنك قتلت انت والحقراء زملاؤك أغلى شيء كنت أمتلكه في الوجود.. هل تعلم أيها الوغد أن «شذى» كانت تحمل بداخل أحشائها جنينا كان قد أتم شهره الثالث في حينها.. جنينا كنت أنتظره بشغف ليقول لي خالي؟ لقد

حرمتموني من هذه المتعة البسيطة أيها الأوغاد، بتلك الغشأوة التي على أعينكم، لم يكن فيكم عبد لمأمور، بل كنتم عبيدا لشهوة القتل والسيطرة، هل رأيتم أنفسكم آلهة في لحظة انتزاع الأرواح؟

المفاجأة أنه لا يوجد آلهة على الأرض أيها الأوغاد.

قالها ثم عاجله بلكمة أخرى حطمت بعضا من أضلاعه قبل أن يقول:

- أعتقد أنك الآن تعرف.. لقد ماتت «شذى» ومات «رمزي».. ومعهما كل ذرة رحمة من أجلكم.. وحان وقت القصاص.

كان الشرطي المعلق من قدميه في عالم آخر.

المورفين جعله يفقد إحساسه بالألم والزمان والمكان، بل وجعله لا ينصت لأي كلمة قالها الملثم، حتى إن ذاكرته لم تسعفه ليعرف من هما «رمزي» و«شذى» اللذان سيموت من أجلهما.

فقط عندما شعر بالمثقاب يفجر كرة عينه اليسرى.. تفوَّق الألم على المخدر، وأطلق صيحة ألم أخيرة.. لم ينتبه لها الملثم وهو يعيد ثقب جمجمة الشرطي الميت في غلٍّ وغضب.

«فرح»

لم تكن ليلة خالد صبري جيدة على الرغم من كل شيء، لقد هاجمته الكوابيس بضرأوة، وفي كل منها رأى آدم المصري المبتسم بسخرية، يتأمله بتلك النظرات المزلزلة، قبل أن ينقض عليه ليقتله بطريقة بشعة مختلفة.

أعصابه المتوترة من اللقاء انعكست على عقله الباطن وأحلامه، حتى صار الفراش جحيما مقيما.

وفي النهاية لم يجد فائدة لمثل هذا النوم المرهق، فاستيقظ من نومه حانقا، ليحمل معه علبة سجائره الرخيصة وقداحته الذهبية وهاتفه المتطور وقناع التنفس، ليصعد عشرة طوابق على قدميه قاطعا الدرج إلى أعلى البناية التي يقطنها.

فالمصعد تالف والمالك لا ينوي إصلاحه، وهو لا ينوي الاعتراض؛ فسمسار العقارات لم يغشه في هذه النقطة مطلقا؛ فمالك العقار صيني يحمل الجنسية المصرية لكنه عجوز بغيض طباعه أقرب إلى طباع اليهود، وهو لا يرغب في الاحتكاك به. كفاه ما يمر به هذه الأيام من ضغوط، الخلاصة أنه يعلم من الوهلة الأولى أن المصعد خرب فلا مجال للاعتراض والتبرم.

دفع باب السطح بقوة ليُصدر صوتا مزعجا عند فتحه، ليدلف بعدها إلى سطح البناية الذي يغص بمكعبات الاستقبال الحيوية التي حلت محل أطباق الإرسال المعتادة بعد اعتماد البث الهولوجرامي المكثف، ليتأمل ليل المدينة الأسطورية، القاهرة.

وعبر سور السطح المغطى برقائق الألومنيوم الواقية، وقف «خالد» المنبهر يتطلع إلى أضواء المدينة الممتدة أمامه لآفاق البصر.

لوحة غاية في الأناقة والجمال تصنعها المباني الزجاجية، وشبكات الطرق المعقدة التي تضيئها تلك المصابيح الموفرة التي تعمل بالخلايا الشمسية المحسنة، وتلك السفن السياحية التي تضيء عتمة النيل البعيد، مع الإعلانات الهولوجرافية التي تروِّج للكثير من السلع الاستهلاكية المتنوعة.

كان ما يفسد المشهد هو ذلك الإعلان الذي يحمل شعار الأمن العام، والذي كُتب أسفله بحروف ضوئية كبيرة:

- نحن هنا من أجلكم.. نراقبكم.. كي لا تخطئوا.

وكالعادة تجاهل الإعلان وهو يملأ عينيه بالمشهد بالكامل وهو يفكر في عمق..

لا بد أن كوكب الأرض يظهر في الفضاء كلؤلؤة متألقة تضاهي النجوم جمالا.

كانت تلك الفترة من الفترات التي لا ينقطع فيها التيار الكهربي بسبب حظر التجول.. مكافأة أخرى من القدر الذي ابتسم له أخيرا.

ترك «خالد» كل مظاهر الجمال الصناعية هذه، ليتمدد فوق الأرضية الباردة موجّهًا بصره صوب سماء الخلابة متطلعا إلى النجوم التي تحأول تجأوز تلك السحابة السوداء، التي تجثم فوق صدر السماء.. كان يحب أن يتمدد فوق الأرضية الباردة، ويجلس في الظلام ليراقب النجوم المتألقة في شغف.

في مسكنه السابق كان باستطاعته إزاحة السقف بالكامل لتطالعه السماء البكر بنجومها وقمرها وعتمتها المبهجة.

الآن عليه أن يبذل الجهد، ليحصل على تلك المتع الصغيرة، وهو شيء لا يستطيع أحد أن ينكر أنه ممتع جدا، ويشعره بآدميته، خاصة أن الآلات تسيطر على كل شيء في عصره، لدرجة أن البشر أصبحوا مخلوقات درجة ثانية على كوكبهم، والطبيعة نفسها توارت خلف العماليق الأسمنتية والمعدنية التي اغتالت جمال كل شيء.

غاص في تأمل النجوم لوقت غير محدد، لم يكن يقطع اندماجه إلا تلك الحوامات العسكرية التي لا تتوقف عن تمشيط المدينة طوال الوقت، خاصة

أن الاضطرابات العمالية لم تتوقف عند حجم التظاهر والاعتصام، بل بدأت تتطور أكثر ليصبح العنف جزءا أساسيا منها.

أطفأ سيجارته الخامسة في الأرضية الباردة التي كان يدخنها عن طريق أنبوب خاص متصل بقناع التنفس، وقد بدأ يشعر ببرودة المساء وهي تتغلغل في عظامه، كان يحلم في هذه اللحظة بحصوله على جائزة الصحافة العالمية، التي أصبحت في يوم وليلة ليست بعيدة عنه تماما.

وعندما همَّ بمغادرة المكان، نبض هاتفه المتطور، قبل أن تظهر صورة طفلته الجميلة «فرح»، التي خصصها لرقمها.

«فرح» كانت طفلته الوحيدة التي أنجبها من زواجه المشئوم بـ«ريناد»، ملاك صغير لا يعرف كيف تخلى عنه ببساطه ضمن شروط الانفصال.

لمس الصورة المجسمة بطرف يديه ليتم الاتصال، وقد اتسعت بسمته لتشمل ملامح وجهه بالكامل، ليأتي صوت «فرح» المعاتب:

- لقد انتظرت اتصالك طوال اليوم يا أبي.. يبدو أنك نسيت العرض المسرحي الذي أقوم ببطولته.

غادرت البسمة وجهه على الفور عندما تذكر الأمر، لقد نسي تماما موضوع العرض المسرحي هذا في غمار نشوته بلقاء آدم المصري، وكان عليه أن يقدم لها عذرا جيدا:

- آسف يا صغيرتي.. كيف يمكن لأبيك أن ينسى شيئا مماثلا؟ إنه ضغط العمل كما تعرفين، ولم أرجع إلا منذ لحظات، كما لم أرغب في أن أزعجك في هذا الوقت المتأخر من الليل.

ظهر الضيق على وجه «فرح» وهي تتساءل بنبرتها الطفولية التي يعشقها:

- وهل العمل أهم عندك من «فرح»؟ يبدو أن ما تقوله أمي عنك صحيح.

كان يرغب في هذه اللحظة لو يهشم رأس زوجته السابقة فقط لو أنها أمامه، لكنه فضَّل تجأوز الأمر، كي لا يثبت صحة ادعاءاتها وقال:

- كيف هذا يا صغيرتي؟ لكنكِ تعلمين أن العمل لا يرحم، وسأعوِّض لكِ الأمر

في الغد.
نكَّست الصغيرة رأسها في حزن ثم قالت:
- لكني كنت أرغب في وجودك اليوم وليس الغد.. فكل الآباء حضروا العرض إلا أنت.
اغتصب ابتسامة أودعها كل أسفه، وقال:
- سأشرح لك كل شيء في الغد عندما أقابلك.. فقط عليك أن تخلدي للنوم حتى لا تتأخري عن موعد المدرسة.
لم تعجب «فرح» طريقته في لومها بعد أن نكص وعده ولم يحضر عرضها المسرحي، فقالت بعناد:
- الغد إجازة، أم نسيت هذا أيضا؟
كان من الواضح أن ابنته مستاءة جدا، ولم يرغب هو في إطالة الأمر أكثر فقال بصوت حازم:
- غدا سأوضح لكِ كل شيء.. وسأحضر معي هدية جميلة.
لانت ملامح وجهها، وقد أشعل ذكر الهدية فضولها، فقالت:
- وما هديتي يا أبي؟
عاد إليه هدوؤه عندما تغيرت دفة الحديث، وقال لها بصوت معابث:
- إنها مفاجأة لن أفصح عنها إلا الغد.. هيا لتمنحي والدك قبلة المساء وتخلدي للنوم.
جاء صوتها يحمل نبرة من الضيق وهي تقول:
- إلى الغد إذًا.
ثم منحته قبلة كبيرة قبل أن تنهي الاتصال، ليدخل هو إلى شبكة المدرسة الإلكترونية، ويبدأ في مشاهدة العرض المصور المرفوع على موقعها، وفي داخله اشتعل غضب كاسح لأنه نسي الأمر.
هذه التفاصيل البسيطة هي التي توطِّد صلته بصغيرته التي أصبحت بعيدة عنه ككل ما يربطه في الماضي، وبداخله شعر ببعض المرارة، وقرر أن يصلح

الأمر، فلن يترك الفرصة لزوجته السابقة لتوتر العلاقة بينه وبين الشيء الوحيد الصالح في حياته:
«فرح».
وكم شعر «خالد» بالامتنان لقانون منع الإنجاب الإلزامي، الذي فرضته الحكومة منذ عدة سنوات ضمن حزمة سياساتها التقشفية، والذي يلزم الأسر حديثة الزواج بعدم إنجاب أكثر من طفل واحد فقط، بعد ظاهرة الانفجار السكاني التي أصابت البلد وشلت مفاصله، وإلا ظل يعاني مع زوجته أكثر من مأساة.
صحيح أن الأمر قوبل برفض شعبي واسع في البداية، خاصة من رجال الدين، إلا أنه في النهاية كان للقانون اليد الطولى والأخيرة، فتم تطبيق الأمر مع فرض غرامات على المخالفين ورفع الدعم الحكومي عن ذويهم.
سياسة قاسية، لكنها أتت بالمرجو منها.
تم تطبيق قانون الإنجاب بصرامة، لم تُمنح لأحد أي مساحة للاعتراض؛ فكل شخص معلوماته مسجلة في الكمبيوتر المركزي ولا مجال للتحايل هنا.
صحيح أن الأمر لم يصل لما انتهجته الصين في القرن الماضي من جعلها الطفل الثاني يعامَل على أنه منبوذ وغير موجود، فلم تمنحه الدولة بطاقة هوية؛ لأنه غير مسجل بالقيد المدني، ولا يوجد اعتراف رسمي بوجوده على قيد الحياة، سوى شهادة من المستشفى الذي وُلد فيه، وذلك لأنه جاء إلى هذه الحياة بعد مولد أول شقيق له، ما يعد مخالفة لسياسة الطفل الواحد التي تعتمدها الصين.. ومن هنا فالطفل الثاني لم يعد في استطاعته الالتحاق بالمدرسة أو الحصول على تذكرة قطار ولا بعض الأدوية المحفوظة ولا تأمين طبي ولا الحصول على وظيفة؛ لأن ذلك كله يتطلب بطاقة هوية.
الطفل الثاني كان لعنة أسرته، وكان القدر به رحيما فلم ينجبه.

عالم رقمي

انطلق أزير المنبه المدمج بداخل تطبيقات هاتف «خالد» المتطور، ليعلن العاشرة صباحا، موعد استيقاظ خالد صبري اليومي، وأيضا موعد إرسال مقالاته الأسبوعية إلى صحيفة «الميثاق» التي يعمل بها مؤخرا.

نفض الكسل عن جسده، وقرر - بعد تفكير عميق - ألا يجعل حماسه يجرفه، ليهدم ما بناه في الأشهر الماضية؛ فالحماسة الزائدة كالفتور تماما تحبط كل الخطط.

وأخيرا توصل إلى قرار حكيم بألا يقطع علاقته بالصحيفة التي يعمل بها في الوقت الحالي؛ فهو لا يعلم بعدُ ما تخبئه له الأيام، خاصة أنه لن يبدأ في نشر مقالات لقائه «آدم» إلا بعد أن تتكون لديه مادة صحفية دسمة ستصنع له سبقه الصحفي المنتظر، وكذلك كي يتلافى أي ردود فعل غير محسوب حسابها لدى الأوساط الأمنية والسياسية.

وصحيفة «الميثاق» - كما نوهنا سابقا - هي إحدى الصحف الإلكترونية الصفراء واسعة الانتشار، التي انتشرت في ظل مناخ زائف يدعو للحقوق والحريات، صحف لا تقدم إلا كل ما هو كاذب ومضلل ومثير للغرائز، في إطار حبكة أمنية أكبر لإضعاف مصداقية الصحف المحترمة الأخرى، التي تمثل الظهير الإعلامي للمعارضة التي أصبحت مصدر إزعاج غير محتمل للحزب.. وذلك بنشر الأخبار نفسها التي تنشرها تلك الصحف، مع إضافات متقنة تشكك في مصداقية الخبر الأصلي لتتشعب نظرية المؤامرة، فلا يستطيع الشعب المنوم إعلاميا الوصول إلى كنه الحقيقة، فتفتر همته ويرضى بالأمر الواقع.

و«خالد» كان تِرسًا في هذه الصحيفة، ترسًا لا قيمة له.. فقط هو يعمل هناك بتوصية من صديق قديم، قرر أن يسدد له دينا قديما، قبل أن يهيئه تماما لقطع كامل العلاقة بينهما.

إن تبدل الحكومات المتعاقبة جعل شبكة اتصالات «خالد» تنهار ومعها مكانته.. وكان هذا مصدرا دائما للإحباط.

انتهى من قدح القهوة العملاق المنكَّه بالقرنفل، التي يعشق مذاقها اللاذع، ليفتح صفحته الشخصية على موقع «فيس بوك» المقنن الذي تشرف عليه الحكومة بعد شرائها حقوقه الأصلية في مصر من أحفاد مارك زوكربيرج.

الحقيقة أن شكل «فيس بوك» قد تبدل كثيرا؛ فلم يعد يحافظ على سمته العام الموحد عبر العالم، بل دخلت عليه مميزات وإضافات كثيرة، فأصبح لكل مستخدم القدرة على تغيير الشكل العام لصفحته بما يتلاءم مع شخصيته وذوقه وميوله، الصور المتحركة أصبحت تعطي للصفحة حياة خاصة، مع تطور برامج المحاكاة التي أصبح يجيدها الجميع.

كما أضيفت للمستخدم القدرة على رفع فيديوهات وصور حصرية تخصه لا تتوقف عن تبديل موقعها طوال الوقت على إطار الصفحة العام، في مشهد مبهر.

الحقيقة أن «فيس بوك» أصبح أكثر بهجة، خاصة مع إضافة مكتبات الكتب الإلكترونية والأفلام التفاعلية والأغاني المدمجة في الموقع ذاته.

لم يتبقَّ لـ«فيس بوك» إلا أن تهبط من سمائه الأمطار.. ليتحول لعالم حقيقي.

أما التطور التقني الفعلي، الذي بدل سياسة الموقع تماما، كان تطور الموقع واستخدامه خوذة الأفكار في التواصل بين مستخدميه، صحيح أنها ليست تقنية حديثة، لكن إضافتها للموقع منحته نكهة خاصة جدا.

فعن طريق خوذة الأفكار تستطيع عقد اجتماعات أو محادثات عامة أو خاصة، وعن طريق مبلغ معين تستطيع زيارة غرف خاصة تمنحك كل ما تصبو إليه من نشوى ومشاعر حسية وجنسية مهما كانت غرابتها أو

شذوذها، دون أن تحتاج لخوض العلاقة الحقيقية.
جدير بالذكر أن كل ما كان يُتدأول عبر هذا العالم الافتراضي الحالم تتم مراقبته عن طريق الأمن العام..
الذي لا يرغب في أن تخطئوا كي لا تُعاقَبوا.
صحيح أن الهاكرز وفرسان العالم الرقمي لديهم من الوسائل التقنية ما يجعلهم يفلتون من هذه الرقابة اللصيقة.. لكنهم كانوا الاستثناء الذي يشذ عن القاعدة.
تجاهل خالد صبري كل إغراءات «فيس بوك»، ليطالع تدفق الأخبار الأسطوري المتجدد كل لحظة ليستقي منها نواة لمقالته الصحفية الجديدة المزمع إرسالها لصحيفة الميثاق الإلكترونية.
تابع، بفتور، أخبار الاضطرابات العمالية، وعصابة الدراجات التي اقتحمت محطة المترو الرئيسية وأشاعت الهلع بين المواطنين، قبل أن يهربوا بعد مطاردة عنيفة بينهم وبين الشرطة، نتج عنها قتيلان وعشرات المصابين.
وشاهد، بملل، إعلانات المواقع المختلفة وصفحة المتمردين الجديدة التي تم تدشينها على الموقع عبر مخدم خارجي لا سيطرة للنظام عليه كما يتوقع الواهمون، والتي يؤمن بكونها فخا جديدا للنشطاء تشرف عليه لجان النظام الإلكترونية، مانحة إياهم بعض الانتصارات الزائفة، عبر الأخبار المفبركة ومقاطع الفيديو التي تخص بعض من كانوا في الحكومة، وأصبحوا كروتا محروقة لا قيمة لها.
فالأمن أصبح يستعين الآن بالخبراء النفسيين لتوجيه الرأي العام، والنصيحة التي كانت تسأوي ثقلها ذهبا أنه يجب ألا يضغط على المتمردين طوال الوقت.. لا بد من وجود متنفس لهم يقيهم من الانفجار والثورة، هذا المتنفس يجب أن يكون دائما ومحكوما ومسيطَرا عليه ويحصرهم بداخل العالم الرقمي.
فالأمن يؤمن أن أي ثورة، مهما كانت نتائجها، مجرد خطأ أمني كبير الحجم

لم يتمكنوا من السيطرة عليه في حينه لقصور ما لديهم؛ لذا وجبت السيطرة على تبعاته في مراحله التالية وإفراغه من مضمونه والعمل على منع تكراره في المستقبل.

توالت الأخبار والإعلانات المختلفة التي أصبح معظمها يروِّج للجنس أو أدواته أو مستحضراته، فعمل على تفعيل ميزة مرشح الإعلانات والصفحات المنبثقة، لتتبقى في النهاية تدفقات الأخبار فقط.

لفت نظره مقالان في صحيفة أمريكية ذائعة الصيت عن تجأوزات بنك النطف البشرية العالمي وتقنيات الموتى الجديدة.

تقنيات الموتى جعلته، على الفور، يتذكر مأساة وحدته وموت والديه، وكيف قضيا نحبهما في إحدى المواجهات مع الأمن في الموجة الثورية الثانية تحديدا، كانت ذكرى سيئة للغاية، خاصة أنه شاهد تلك اللحظات المخيفة على الهواء مباشرة، بعد أن التقطتها إحدى قنوات الأخبار بجودة عالية، ومذيعها المتأنق الذي لم يصادف في حياته أن عبر من مكان غير مكيف، يتحدث عن إرادة الشعب المستهدفة، ودور الأمن في اجتثاث شأفة الإرهاب المنظم من جذورها.

والداه.. كاتب، وحقوقية.. حالمان لم ترأف بهما مفرمة العمل السياسي ولا حلمهما بغد أفضل لشعب أثبت على مدار القرون أنه يرغب في التغيير، لكن بلا حماس حقيقي أو رغبة في دفع الثمن أو دون تضحيات، ودون أن يهدم استقراره..

اللعنة على الاستقرار.

تلك البذرة العفنة التي نمَّاها الاستعمار داخل الوجدان الفكري للشعب المصري، وتابع نضوجها إعلام الحكومات الفاسدة الموجَّه.

تخيل أن ترى من تحب في مثل هذا الموقف عبر شاشة مجسمة عالية الدقة، ترصد الانفعال الصادق والحماس والإصرار على المبدأ، والجرأة على مواجهة آليات القمع المتطورة..

أن تراهما وسط طوفان البشر، يحملان ملخصا لأفكارهما على لوحة رقمية رخيصة الثمن، مؤكدين سلميتهما، واقفين يرتجفان من الإثارة وسط مناخ ملوث شديد السوء وعلى وجهيهما قناعا التنفس اللذان يضيفان للمشهد رهبة إضافية.

تبتسم للحظة لحماسهما.. لإصرارهما.. لإخلاصهما للمبدأ.. تدعو أن يعودا سالمين.. وانت موقن أن هذا كله مسجل.. لتنهي ضجيجهما وثورتهما قذيفة مشعة من بندقية قناص يظن أنه بمحو معارضيه يحمي وطنه.

قتلٌ على الهواء مباشرة.. تبرره آلة الإعلام الفاسدة، وتضفي عليه الشرعية.

مجرد خبر آخر كآلاف الأخبار الأخرى ستنتهي حرارته مع تلاشي شمس اليوم.. وينساهما الجميع..

كان موتهما طعنة لك، أثبتت نظريتك أن كل المبادئ والشعارات مجرد هراء فكري لا يمكن القبض عليه ولا تطويعه لنصرة قضية.

السلمية هي الخدعة التي تروِّج لها الأنظمة، قبل أن تستخدم كامل ترسانتها القمعية لسحق أحلام الشعوب.

فالأنظمة لم تنتقِ من المبادئ إلا مبدأ القوة، والقوة لا تواجَه إلا بالقوة.

والسؤال هنا:

بعد كل ما رأيته ومن فقدته، هل انت مستعد لاستكمال مشوارهما كابن بار، أم لهما حياتهما ولك حياتك؟

انت يا «خالد» تشعر ببعض الذنب، لكن لديك المبرر المقولب الجاهز.. إنهما من اعتادا نصحك وليس العكس.. فكيف تتبدل الأدوار الآن؟

لكنك يا «خالد» - كابن بار - ستعوضهما بعد مماتهما عن تقصيرك تجاههما في حياتهما، بأحد تلك القبور الحديثة، الذي يحتوي على تقنيات إلكترونية مضادة للحشرات وشاهد قبر يعد تحفة تقنية، يبث صورا مجسمة لأروع ذكرياتهما، ويذكر ملخصا محدَّثا عن تفاصيل حياتهما وأياديهما البيضاء.

وهذا ما قام به «خالد» مع بعض الدموع وعدة زجاجات من الفودكا ليخلد

ضميره للنوم، ويبدأ «خالد» في تفعيل أعظم منن الرحمن:
النسيان.
عاد يتأمل باهتمام تلك الصور شديدة الوضوح، التي توضح حقيقة التقنية الجديدة التي ذكرها المقال، والتي جذبت انتباه «خالد» بعد أن تلاشى من عقله زخم الذكريات.
كانت تتحدث عن تقنية صوتية جديدة تمكِّن مستخدميها عبر موقع خاص من الحديث مع ذويهم من الموتى، وبثهم شوقهم إليهم عن طريق منظومة اتصالات حديثة ومتطورة.
الأمر كله مجرد اتصال يظهر معه تفاعل تلك الصور الرقمية التي أصبحت تجلل شواهد القبور.
الموضوع كله يعتمد على مداعبة مشاعر المستهلكين، ومنحهم وسيلة تقنية توحي لهم بأنهم على اتصال بأحبائهم الراحلين عبر برنامج خاص تمت برمجته مسبقا بتقنية جديدة للذكاء الصناعي.
الحقيقة أنه لا توجد وسيلة حقيقية بعدُ للحديث مع الموتى.. لكن المحأولات المحمومة لا تتوقف.. والاتجار بالفكرة لا ينقطع.
كان الخبر مثيرا إلى حد كبير، ويسمح له بصنع مقال عظيم؛ فالمانشيت سيكون: «تقنية جديدة للحديث مع الموتى».
وفي زمن قياسي انتهى من كتابة المقال، وعندما وجد لديه فسحة أخرى من الوقت توجَّه لموضوع بنك النطف البشرية وانهمك في قراءته.
كان المقال يتحدث عن تجأوزات الهندسة الوراثية، وكيف يعمد البعض لخلط النطف أو شراء نطف المشاهير عن طريق مزادات أسطورية ليحظوا بطفل رائع، يحمل جينات هؤلاء المشاهير.
كان موضوعا شائكا ومثيرا، وكان العنوان الذي اختاره: «رأي الدين والعلم في انتقاء صفات مميزة لطفلك القادم لا يمتلكها الأبوان».
ترجم المقال ثم أضاف له فتوى إلكترونية من التي تعج بها مواقع الإنترنت،

ثم أرسلهما لعنوان البريد الإلكتروني الخاص بالصحيفة، قبل أن يدخل على موقع تسوق خاص بالأطفال ليشتري لعبة تفاعلية حديثة لابنته «فرح»، تمثل إحدى شخصيات الكرتون الشهيرة، التي منحته فكرة لمقال جديد.

الآن وقد انتهى من معظم مسئولياته، عليه أن يقوم بتفريغ شريط جلسته الأولى مع «آدم»، الذي لا يحوي الكثير، فقط ليحدد خطوته التالية.

اندمج في الأمر تماما ليجد أن ثلاث ساعات قد انقضت، لتبدأ معدته في النواح.

أخرج عدة علب من الأطعمة المحفوظة ليضغط أسفلها ذلك الانبعاج غير الملحوظ، لتتفاعل تلك الغازات الموجودة بداخل ذلك الانبعاج مع بعضها، لتمنح الطعام الحرارة المطلوبة، صانعة ما يشبه «ميكروويف» محمولا.

تلك الوجبات الهزيلة أصبحت هي المكون الرئيسي لطعامه هذه الأيام، وقد اعتادها «خالد» كما اعتاد كل شيء سخيف في حياته، بل وبدأ يستمتع بها.

إنها أسطورة الاعتياد البهيجة..

اندمج في تناول الطعام المحفوظ بعد أن أشعل التليفزيون التفاعلي، ليرى العرض العسكري الأسبوعي.

كان العرض دمويا وشائقا، خاصة أنهم قد استعانوا بمخرج شهير لإخراجه، فبدا وكأنه حلقة مثيرة في أحد مسلسلات الحركة.

مخدر إضافي لبسطاء وعامة الشعب، يلهب حماسهم، ويوجه ولاءهم وولاء الجنود أنفسهم نحو المؤسسة العسكرية، التي ما زالت تحكمهم عبر قرن كامل، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

لم يكن الأمر إبداعا جديدا؛ فقد ذكره إيريك هوفر قبل عشرات السنوات في كتاب «المؤمن الصادق»:

- إن دور الخيال في تلطيف قسوة القتل والموت يتضح أكثر ما يتضح في حالة الجيوش.. إن الملابس العسكرية والأعلام والشعارات والاستعراضات والموسيقى العسكرية والطقوس الصارمة والإتيكيت المحكم.. كلها وسائل

لفصل الجندي عن ذاته الحقيقية المكوَّنة من لحم ودم، وطمس حقائق الموت والحياة.
وأضيف هنا أن هذه المؤثرات كلها تبهر الجنود والعامة معا، فيحدث ذلك التأثير المطلوب.
إن نظرية المؤامرة هي النظرية الأكثر صدقا على مدى التاريخ.
أنهى «خالد» طعامه مع انتهاء العرض العسكري المشوِّق، لتخرج صورة ذلك المتحدث العسكري الوسيم بنظرته الأبوية السمجة، لتبدأ في بثِّ التحذيرات المغلفة بمصلحتكم وأمانكم والكثير من المصطلحات الشمولية التي يحب الشعب سماعها.
شعر «خالد» بكسل مفاجئ، فقرر أن يحظى بعدة ساعات إضافية من النوم، قبل اللقاء العائلي مع «فرح»..
فـ«فرح» ستحتاج منه لنشاطه الكامل وتركيزه، كي يحتوي انفجار الشقأوة الذي لا ينقطع..
إن الأطفال مفاعلات حيوية.. لا يقلل من انشطارها إلا قدوم موعد النوم، أو قيام الحرب النووية التالية.
لا يعرف حقيقة كيف أخطأ هذا الخطأ الشنيع.. كيف واتته الجرأة لينجب طفلا في مثل هذا المناخ المسموم.. كان عليه أن يفكر أكثر قبل أن يجني بقراره المتسرع على كائن آخر.
إن من يحرصون على إنجاب الأطفال دون العمل على تأمين مستقبلهم مسبقا في ظل هذا العالم الفاسد هم قتلة مع سبق الإصرار والترصد.
نعم كان عليه أن يتروَّى أكثر.
الأمر يفوق لقاء حيوان منوي ثائر ببويضة متلهفة لإنجاب حلم شخصي.
فقرار إنجاب طفل هذه الأيام كقرار خوض الحرب.. يحتاج إلى التأني والتفكير العميق؛ فالمسئولية التي تليه لا يمكن أن تكون بسيطة.. إنها مسألة حياة أو موت.

* * *

غربت الشمس، ومعها رحلت «فرح»، وانتهى اللقاء الممتع مع تلك البهجة الأسطورية التي تحمل نصف كروموسوماته، وكم أسعده جدا عدم حضور والدتها معها إلى مركز الألعاب العائلي الترفيهي بوسط القاهرة ليحظى بيوم هائل من البهجة والقرب من صغيرته..

لقد بدَّل لديها تماما تلك الأفكار السلبية التي وضعتها أمها في رأسها خلال الفترة الماضية؛ فقلوب الأطفال كأجهزة الاستشعار لديها القدرة على رصد مشاعر الحب الحقيقية والتفاعل معها.

أما الذي جعل سعادته تتضاعف فهو انبهارها أكثر بتلك اللعبة الحديثة التي جلبها لها معه.. فلم تتوقف عن الحديث معها طوال اليوم كصديقة لها، كما كانت تستشيرها في اختياراتها للألعاب، التي كانت تجيب عليها بصوتها المضحك.

كلفته هذه اللعبة مبلغا فادحا.. لكنه لم يبالِ مع ما أضفته من سعادة على لقائه ابنته.

مر اليوم عليه كحلم.. إنه لم يشعر بمرور الوقت أبدا.. فما زالت «فرح» تستطيع إلهاءه عن العالم ومنحه تلك البهجة الأسطورية الخالصة التي لا يعرف مكمنها إلا الأطفال.

وفي منتصف اليوم جاءه الاتصال الذي زلزل حياته.

اتصال من جهاد رشيد، التي ترغب في لقائه في نهاية الأسبوع بأحد الفنادق الفاخرة.

وفي هذه المرة لم يبتسم القدر، بل قهقه الشيطان في خُبث.

حبس انفرادي

بداخل زنزانته الضيقة، جلس آدم المصري وحيدا شاردا فوق مقعد معدني وحيد، صُنع خصيصا من أجله.. واضعا ساقا فوق ساق غارقا في تفكير عميق، جعله يبدو في ردائه الأبيض جزءًا من مكونات الغرفة شاهقة البياض.

الجدران جميعها تم طلاؤها بطلاء أبيض شديد الانزلاق والجودة، ما جعل الغرفة تظهر طوال الوقت وكأنها قنبلة من الضوء المتفجر، وهذا لا يريح البصر كثيرا ويجعل أعصابه مشدودة طوال الوقت.

يتكون المقعد الذي يجلس فوقه من قطعة واحدة من المعدن لا وصلات فيها، تلتحم مباشرة بالأرضية المعدنية المتصلة بمجسات شديدة الحساسية لالتقاط الحركة، لمنعه من استخدام المقعد في الهرب أو الاعتداء على الحرس أو إيذاء نفسه، وينطبق الأمر كذلك على الفراش الصغير الذي بالكاد يحتوي جسده بداخله.

سجن مخيف من اللون الأبيض الساطع، المهيِّج للأعصاب..

حتى باب الغرفة نفسه، فإنه عند إغلاقه يلتحم مع الجدار فلا يظهر له أثر، لتتحول الزنزانة، التي لا منفذ لها، إلى صندوق من اللون الأبيض لا يشوه صفاءه إلا فتحة الهواء الضيقة جدا التي تعمل على توفير الهواء بمحيط الزنزانة عن طريق تبادل الذرات.

كان وحيدا كما للوحدة أن تكون.. لم يتحدث مع أي كائن حي طوال السنوات الخمس الماضية.

حتى حرسه وسجانه كان لديهم أوامر مشددة بعدم تبادل أي حوار معه.. كما لم تكلف أي من المنظمات الحقوقية نفسها عناء زيارته طوال فترة

سجنه.. بعد فتح قضايا التمويل الخارجية الخاصة بها وإحالتها للقضاء.. فتركوه لقمة سائغة بين أنياب النظام.

خمس سنوات من الوحدة، من العزلة، ومن الصمت، الذي جعل زنزانته تبدو كمقبرة أنيقة، في محأولة منهم لإصابته بالجنون.

الحبس الانفرادي جحيم مقيم ونادرا ما خرج منه المحكوم عليه طبيعيا، أو عاد ليندمج بسهولة في المجتمع من جديد.

التوصيات الحقوقية كلها كانت تدعو لإلغاء هذه العقوبة الشنيعة دون جدوى، فكما أكدت الدراسات العلمية فإن الحبس الانفرادي نوع من أنواع التعذيب النفسي شديدة القسوة، والتي لها مضار غير محدودة..

وتقول الدراسات العلمية: إنه لو طالت فترة الحبس الانفرادي عن خمسة عشر يوما يصاب السجين بأضرار نفسية دائمة، هذا لو كان مناخ الحبس صحيا، أما لو لم يكن صحيا، فالأضرار البدنية ستكون هائلة، وهو قد قضى في حبسه الانفرادي خمس سنوات كاملة يتقلب على الجمر.. يحيا ألف مرة ويموت ألف مرة..

من اختار له الحبس مدى الحياة بديلا عن الموت لم يكن يريد أن يعاقبه فقط.. بل كان يريد الانتقام منه وجعله عبرة..

ولقد نجح تماما في كل ما سعى إليه.

إنه يذكر حقيقته بصعوبة، وحلم الثورة نفسه أصبح طيفا بعيدا.

خمس سنوات من العزلة والتجاهل مرت عليه كدهر كامل.. جعلته يشك في حقيقة وجوده على قيد الحياة.. بل حقيقة وجود ما يسمى الحياة من الأصل، فأخذت الأفكار المتطرفة تضرب عقله في عنف..

ربما هو فكرة ضالة في عقل كائن كوني.. ضيق الأفق والخيال..

وربما هو إلكترون حبيس بداخل ذرة لا تأبه بمكوناتها..

أو حلم ضائع على شفير الأبدية..

عزلته ووقعها النفسي الصعب جعلاه يرفض الأفكار كلها والعقائد كلها

والثوابت كلها.. جعلاه يفكر ألف مرة في حقيقة وجود إله يرعاه أو يعرف ما يكابده.

جعلته يفكر.. هل حقا هناك إله متطلع على ما يحدث له؟

وإن كان موجودا هذا الإله.. فأين هي يده التي تخفف الأحزان والمعاناة؟

إنه وحيد في هذا الكون..

وحيد ولا أحد يرعاه.

لقد كانت معركته كلها من أجل الحق، ومن أجل صنع مجتمع صالح يختلف عن ذلك المجتمع الذي تحكمه شريعة الغاب.

إنه يحلم باليوتوبيا.. بالمدينة الفاضلة.. وليس ذلك المجتمع الديستوبي المتخلف الذي يحرق كل ما هو جميل في أتون المصالح.. مرتديا مرة وشاح الدين، ومرة زي العسكر.

كان يحلم بذلك المجتمع الذي خُلق من أجله البشر.. مجتمع المشاركة والسمو الروحي والمحبة.

ليجد نفسه وحيدا غارقا في اللون الأبيض المخيف الذي يمحو هويته وذاكرته.. وذكرياته تدريجيا.

خمس سنوات دون أن يقابل شخصا واحدا، وكأن الكون كله قد خلا من البشر، واختص وحده بالعذاب المعد لجميع الخاطئين.

في الشهور الأولى آمن بينه وبين نفسه أن ما يحدث له عقاب إلهي، على الرغم من عدم يقينه من كنه هذا الذنب الذي يعاقَب من أجله، فكل ما أراده هو الخير والسعادة لأبناء وطنه المطحونين.

هو نفسه كان يعيش في رفاهية ويسر، ولم تكن لتؤثر عليه تلك التغيرات الطاحنة التي يمر بها وطنه، والتي تعمل على ضغط وتكثيف معاناة الطبقات الفقيرة والمهمشة.

لقد اختار أن يخوض حربا ليست حربه من أجل مبادئه.. وتمسك بحكمة مجهولة.. يرعاها إله مطَّلع.. ومن أجلها تسير الأمور على هذا المنوال.

وما النتيجة؟
لقد فشل كل شيء..
فشل لأن أصحاب الحرب أنفسهم راضون خانعون.. وهو يمارس الحرب عنهم بالوكالة.. وهم خارج المشهد تماما.
وها هو يعاني وحده.. يتعذب وحده.. يحترق وحده.
فالحبس الانفرادي الذي يخوض ويلاته هو تجربة حية لحياة البرزخ بداخل القبر.. لقد تُرك هنا لتتعفن روحه.
بعد مرور السنة الأولى لم يعد يؤمن نهائيا بوجود هذا الإله، ومع مُضي الزمن كان يزداد جحودا ونكرانا، ثم عادت تنتابه الرؤى والهلأوس ليعود للطريق المستقيم مجددا.. فينقطع لأيام في طقوس عبادة ابتكر معظمها.. وكلها تتمحور حول إشعاره بالألم.
الألم وحده هو ما يُشعره بإنسانيته.. بكينونته.. بوجوده على قيد الحياة.
قبل أن تعود الدائرة لتدور معه مجددا.
لا يوجد إيمان أو عقائد من الممكن أن تصمد أمام عزلة إجبارية لمدة خمس سنوات.
لقد وقف على تلك الحافة الهشة.. الفاصلة بين الجنون والتعقل.. بين الكفر والإيمان.. وقف كثيرا حتى مرضت روحه وتهشَّمت ألف مرة.
وفي النهاية.. آمن أن الأمر مجرد اختبار إلهي عميق المغزى.. فعاد لصوابه وظل ينتظر الإشارة.
كان الوقت لا يمر في هذا المكان، وكأنهم بقسوتهم استطاعوا لجمه.. فقط عندما تُلقى إليه كبسولات الطعام المركزة أو يظهر له المرحاض في جانب الغرفة.. كان يستعيد رؤيته للحياة، ويشعر بكونه ما زال كائنا حيا.
كانت تمر عليه أوقات ينغمس فيها في العبادة، حتى تتشقق قدماه، وأوقات أخرى يستسلم لأفكاره الإلحادية السوداء.
هذه التقلبات النفسية المتعاقبة جعلت مراقبيه يوقنون بجنونه، وإن لم

يتوقفوا لحظة عن مراقبته أو رصد التغيرات التي تلم به.
كان يموت كل ليلة في أحلامه ألف مرة.. وكان في كل ليلة يرسل لعناته للكون في انتظار الإشارة..
واستمر يصنع لنفسه أملا واهنا كي يظل عقله على اتصال بذلك العالم المحيط به.. ثم يموت الأمل مع موتته الجديدة.
ثم أتت الإشارة.
وكانت هذه الإشارة هي ظهور «خالد» في حياته.. ليعيد لنهر إيمانه تدفقه.
وعندما رأى الجنود المدججين بالسلاح، الذين تبدلت أزياؤهم وتغيرت هيئاتهم، بعد خمس سنوات من السجن والعزلة، شعر لأول مرة بأنه عاد إلى الحياة.
عاد ليكمل مهمته..
لقد استجاب له الخالق أخيرا.

* * *

كان من الواضح أن هناك حرصا شديدا على إتمام اللقاء.. لقد جاء الأمر من مسئول كبير وعضو بارز في الحزب..
لذا فعندما استوعب «آدم» حقيقة ما يدور حوله واستعاد قدرته على النطق.. فإنه طلب يوما واحدا فقط قبل أن يتم اللقاء.. ليسترد فيه عافيته، كما طلب طعاما حقيقيا يتناوله بعيدا عن تلك الحبوب الصناعية الكريهة التي جُبلوا على منحها له طوال السنوات الخمس الماضية، ثم وضع شروطه..
ولأنه لا يمكن مراجعة المسئول الكبير في أمر أصدره، فتمت الموافقة على شروطه التي لم تتجأوز إنهاء الحوار في اللحظة التي يرغبها، وتقليل حدة الإضاءة في زنزانته ليحظى ببعض النوم الحقيقي.
ثم كانت صدمته..

فعندما قابل «خالد» للمرة الأولى شعر بانتكاسة حقيقية، وإن لم تُظهر ملامحه الصخرية أي رد فعل.

إن الصحفي مقياس جيد لواقع الشارع، ومظهر «خالد» كان زائفا، إذًا فواقع الشارع لم يتبدل، وكل ما قام به لم يغير أي شيء في المجتمع، لم تنمُ حتى الآن بذرة واحدة من تلك البذور التي رُويت بالدم.

ومن حواره القصير مع «خالد» أيقن بأن الأمور في الخارج لم تتبدل، وبأن التاريخ ما زال يكرر نفسه ويعيد أخطاءه بغباء أسطوري.

التاريخ لا يتعلم.. لأننا نحن التاريخ.. نحن أكثر حماقة مما تؤمن به أنفسنا.

من النظرة الأولى، قرأ شخصية «خالد» جيدا.. وعرف نوعيته وطرق التعامل معه.. وهذا شيء أبهجه بشدة؛ لأنه ظل مؤشرا حقيقيا على أن عقله لم تفسده سنوات السجن الانفرادي.

لقد عاد «آدم» القديم إذًا.

إن السرعة التي عادت بها حواسه إلى العمل تبهره هو شخصيا، وكأن السنوات الخمس السابقة مجرد ماضٍ بعيد.

لقد عاد عقله ليعمل بكامل طاقته وكفاءته.. وعادت أفكاره لتحتل بزخمها خلايا عقله التي أشرفت على الذبول.. لقد منحه الخالق القدير فرصة جديدة لن يضيعها.. فرصة ستجعله يصحح الأخطاء السابقة كلها..

وأكثر ما أحيا الأمل في قلب «آدم» هو قدرته على السخرية التي لم تتلاشَ بعد، وقدرته على رصد ردود فعل من يحادثه وتفنيدها، وفي النهاية وجَّه كل كيانه وخبرته نحو «خالد»، في محأولة منه لكشف حقيقته، وحقيقة أنه الصحفي الوحيد أو الكائن الوحيد الذي سُمح له بمقابلته خلال السنوات الخمس المنصرمة، ومن أول وهلة صنف «آدم» شخصية «خالد»..

إنه نموذج لفئة هائلة من الشعب.. تعيش بداخل نطاق الدولة ولا تتقاطع معها.. هم لا يزعجون الدولة طالما تركتهم في حالهم ولم تزعجهم.. والدولة تعاملهم بالمثل.. أُطلق عليهم في فترات سابقة وصف الباحثين عن الاستقرار،

وحزب الكنبة، وحزب الموتى، وملح الأرض.
هؤلاء الذين يتشبثون ببعض قشور المبادئ، وولاؤهم دائما للأقوى.. إنه قطعة من الصلصال سهلة التشكل.. ولا يبدو صحفيا واعدا جدا.. لكنه لم يكن ليتخلى عن طوق النجاة وتلك الفرصة التي أتت له على طبق من ذهب..
وبكل هدوء بدأت تتشكل في رأسه خطة جديدة.. عن حلم لم يكتمل.

الجزء الثاني
القطاع سبعة

حنين

تمددت «ليلى» عارية على شاطئ البحر، هذه هي فكرتها الوحيدة عن التحرر: أن تمتزج برمال الشاطئ، تلامس النسيم ويلامسها النسيم، أن تفرد جسدها كلوحة لفرشاة الشمس، كي تمنحها اللون البرونزي المثير، إنها تتوحد مع الشيء الوحيد الذي لا سلطان لأحد عليه:
الطبيعة البكر.
هنا فقط تستطيع أن تغتسل من الأحزان وتنسى كل صفعات الأيام الماضية، وتنسى حتى ذاتها، إبرة المحقن في الوريد الصحيح، تدفق السائل في عروقها متوازن، لن تستفيق إلا بعد أن ينتهي الحزن كله.
الموج يدفع بالماء ليلامس ساقيها، حتى الطبيعة تشتهيها.. هذا هو ما دار في رأسها، ورذاذ الماء الدافئ يداعب قدميها في رفق محبَّب.
الحياة في هذه اللحظة رائعة، رائحة اليود تخدر جسدها، وروحها تهفو لأن تحلق في السماء وتضاجع النجوم.. إنها سيدة هذه اللحظات، وهي سعيدة. وهي سعادة غير مكتملة؛ لأنها تعرف أنها في لحظة ما ستنتهي.
قررت أن تستغل الفرصة وتقوم برحلة أخرى من رحلاتها الخيالية؛ فهي لن تدفع هذه الأموال كلها من أجل الاستمتاع بالهواء والشمس فقط، لا بد أن تمتطي حصان الجنون ولو للحظات قليلة.
لقد حذروها، عند شرائها جهاز النشوة، من أن الإفراط في الخيال خطير، لكن لا بأس ستجرب بنفسها هذه المرة.

عليها في البداية أن تختار الزي الذي سترتديه في مغامرتها الجديدة، لا بد من زي ملائم للشخصية التي ستتقمصها، تفكر قليلا في كسل، تتمطى في دعة كهُريرة متخمة بالطعام، وفي النهاية تقرر.

لا داعي للأزياء هذه المرة، فهي لن تسبح في نهر حقيقي، إنه نهر من الإلكترونات والمعادلات الرياضية وتبادلات الصفر والواحد، هي تعرف ذلك كله ويفسد عليها اندماجها، لكن هذا هو المتاح مقابل ما تملك من مال، الحياة لا تمنح إلا من لا يحتاج، ومن يحتاج فليضرب رأسه في الصخر.

لن تنجرف مجددا في نهر الذكريات الكئيبة ونهر الخبرات، لا بد أن تركِّز؛ فالمخدر الجديد لن يبقى تأثيره إلى الأبد، والوقت المتبقي لن يكفي لتحقق غرضها بالكامل.

إنها الآن عروس بكر، تملؤها البهجة، وتهفو لحلم جديد ليفض بكارتها، الكون الفسيح فراشها، والشهب الحارقة عشاقها، تذوب في لجة من النشوة، وتصارع شعورا عنيفا لا تريده أن ينتهي.

تهيأت لتستحضر صورة حبيبها السجين لتقضي معه بعض الوقت الممتع، عندها شعرت بالألم في ذراعها، ودوت في رأسها سلسلة من النبضات الحارقة لتمزق تلك الصورة الخيالية التي صنعها المخدر، وعندما استفاقت، أطلقت سبة ثم نظرت إلى شاشة الحاسوب التفاعلي وأطلقت سبة أخرى.

لقد وصلت لمنطقة الخطر هذه المرة.. لقد تجأوزت كل الحدود التي حذروها من تجأوزها.. إن جميع مؤشراتها الحيوية منخفضة جدا، وعلى الرغم من ذلك هي بحالة جيدة، لقد أنقذها العقل الآلي من الموت في ذلك العالم الخيالي الذي صنعه لها المخدر وبرنامج النشوة الجديد.

الموت الحقيقي الذي تعرفه هو الحياة دون مغامرة، ودون رجل يبادلك الحب.. هكذا فكرت، ثم نزعت المحقن من يدها والأقطاب عن رأسها، وفوق فراشها الناعم ألقت بجسدها المنهك وذابت في دوامة من الأحلام المجانية، لكنها لم تقابل من تريد ولم تصل إلى النشوة المرجوة.

* * *

الصبح هو المعجزة الوحيدة التي تتجدد كل يوم، دون أدنى مجهود منا، شمس جديدة فتية، سماء زرقاء بهيجة، نسيم عليل يحمل روائح الأمل وعبير الأيام المقبلة، وعبق الإلهام الدائم.

السابعة صباحا، تُفتح النوافذ الداخلية تلقائيا ليتسلل ضوء الشمس إلى داخل غرفة «ليلى»، تبدأ ماكينة القهوة في العمل لإعداد المشروب الصباحي، تتم تدفئة الحمام على الدرجة المبرمج عليها مسبقا، ثم تشغيل البث التليفزيوني المجسم على قناة الأخبار.

تتململ «ليلى» في فراشها، منهكة جدا تظهر على وجهها آثار قلة النوم، تدفع جسدها لمغادرة الفراش بصعوبة، الإرهاق يبسط سلطانه على خلاياها، هذا هو الأثر العكسي لانسحاب المخدر من جسدها، وهي لا تملك ترف النوم؛ لأن اليوم الذي ستتغيب فيه عن عملها دون عذر حقيقي ستفقده.

لا أحد يجد عملا بسهولة في هذه الأيام العصيبة، ومن يجده لا يتركه إلا على باب القبر، خاصة لو كانت تريد أن تحصل عليه بمجهودها دون الرغبة في وصل ماضٍ قد انقطعت أواصره، مع رفاقها القدماء، واستغلال نفوذهم.

تابعت «ليلى» المذيعة المتأنقة التي تعلق على الأخبار الصباحية بوجه نضر مليء بالصحة، مرددة الأخبار المسائية الكئيبة نفسها بوجه مبتسم مشع بالبهجة، وكأنها تتحدث عن يوم عُرسها لا عن إرهاب وكوارث.

للأسف ما زال الإعلام يركز على أخبار القطاع سبعة، وكأن الدنيا كلها قد فرغت من الأخبار.

القطاع سبعة يعتبر إحدى مستعمرات العزل.. فكرة جهنمية طبَّقها النظام بعد فشل الثورة الأخيرة.. خلاصتها أنه على من لا يطيقون النظام الذهاب قسريًّا إلى هناك.

فليعيشوا في مجتمع منفصل.. فليُحرموا من دعم النظام والمميزات التي يجلبها العيش تحت لوائه.. الفكرة نفسها التي طُبقت في بدايات القرن

الماضي على أتباع الرئيس الفاشي الذي خلعته ثورة الشعب المدعومة من الجيش.
العزل والإقصاء، لكن هذه المرة في مجتمع منفصل يحتويهم بكل ما لديهم من أفكار خبيثة.
حصار فكري واقتصادي واجتماعي، وكأن لسان حال النظام يقول:
- لن نحرمكم من ضروريات الحياة، لكن سنحرمكم من كل ما هو دون ذلك، أنتم تتحملون نتيجة اختياراتكم الخاطئة، الشفقة لا مجال لها.. نحن نحمي وطنا هنا.
كانت الأخبار تتركز على وباء جديد انتشر هناك، وعن ممارسات رهيبة يمارسها قاطنوه بهيئتهم البشعة المزرية ووجوههم شديدة القذارة وأقنعة التنفس البالية التي لا يبدو أنها تعمل بكفاءة مع سواد الوجوه وتلك البشرة التي أحالها التلوث إلى جلد يابس.
هذه الأخبار الرديئة كلها جعلت بداية الصباح كئيبة ومخيفة.. ليظل القطاع سبعة هو المصير الماثل أمام كل من يرغب في التمرد من القطاعات الأخرى؛ لذلك ستظل أخباره، وسيظل هو بؤرة الأحداث طوال الوقت.
تجاهلت «ليلى» هذه الأخبار كلها وتلك المذيعة الحمقاء التي تصر على الابتسام بطريقة مستفزة، وطلبت من التلفاز التفاعلي برنامج الموسيقى، وسيل هائل من الذكريات يكاد يطيح بعقلها.
القطاع سبعة هو جريمتهم الكبرى التي ستظل ماثلة أمام أعينهم حتى يحتويها القبر هي ورفاقها، أو تنجح الثورة المقبلة في اقتناص مقعد الحكم.
هبطت بقدميها على الأرض في نعومة، ثم مشت بكسل مضاعف نحو الحمام، الأضواء تشتعل في الممر الأمامي وتنطفئ في الخلفي ترشيدا للكهرباء، على الرغم من كون البناية تعتمد على الطاقة الشمسية، لكنه برنامج الطاقة الرسمي الصارم والمبرمج على توفير كل أنواع الطاقة.
تدخل إلى الحمام، يعبرها الشعاع المعقم ليزيل من جسدها الروائح والأتربة

العالقة والخلايا الميتة، ثم للحظات قصيرة يغمرها الماء المقطر شديد النقاء، لتشعر بالانتعاش.

العالم الجديد لا يسمح بأي إهدار في الموارد تحت أي بند، خاصة مع الزيادة السكانية الهائلة التي حدثت خلال القرن الأخير، ما جعل البشر يصبحون كالجراد؛ حيثما حلوا يحل الخراب على الكوكب.

ارتدت «ليلى» ملابس العمل الموحدة، ثم ذهبت إلى ماكينة القهوة وتناولت الفنجان الزجاجي المقاوم للكسر، وجلست للحظات تنهل من السائل المنعش وخلاياها تنتفض من المذاق القوي، شعرت بأن الصداع يتلاشى وبأن عقلها يصفو تدريجيا.

أشياء كثيرة لم يستطِع التقدم المذهل الحادث في العقود الأخيرة أن يأتي ببديل عنها، ومنها فنجان القهوة المنكهة، جميع المشروبات الحديثة مجرد كذبة براقة لا تصمد لأكثر من أيام، أما فنجان القهوة فهو يحمل الحيوية واللذة وعبق الماضي..

القهوة المنكهة.. لا بد أنها مشروب أهل الجنة.

أنهت مشروبها الصباحي، ثم راجعت على هاتفها اللوحي الشفاف بعض البيانات التي تخص العمل، ثم طلبت من الكمبيوتر التفاعلي أن يُحضر لها سيارة أجرة، لم تكن تحب الارتفاعات؛ لذا لم تكن تستخدم الحوامات الطائرة إلا نادرا، كما أنها تحب أن تستهلك بعض الوقت في التفكير قبل وصولها إلى مقر عملها.

لا تعرف لماذا تشعر هذه الأيام بحنين جارف لأيام الماضي القريب، خمس سنوات كاملة مرت على فراقهما.. خمس سنوات من الأمل والانتظار.. إن روحها تشتاق إليه، وجسدها يئن في طلب لمسته الحانية.

من قال إن النسيان سهل؟

من يدعي ذلك لم يغزُ الحب قلبه قط، أو يذُق طعم الحنين.

إنها تصطلي بالشوق، وتتمزق على نصال الرغبة، الحياة بالنسبة لها متوقفة،

والغد خلفها لا أمامها.. المستقبل لن يكون مرسوما إلا على شفتيه والسعادة لن تراها إلا في عينيه.

إنه بعيد عنها، يسبح في فضاء غريب عن قمر عشقها النابض، يحيا في سجنه بعيدا وهي تموت من ألم الفراق.

فرت من عينها دمعة وحيدة، فمسحتها بسرعة، وعبر النوافذ الزجاجية للسيارة أخذت تشاهد السيارات الأخرى التي تندفع بجوارها في سرعة مذهلة وكأنها بقلب سباق للسيارات.

قطعت السيارة الطريق الدائري الجديد في وقت قياسي، ثم دخلت لأعماق المدينة، ليمتلئ بصرها بالألوان والأضواء المتدفقة عبر لوحات الإعلانات الإلكترونية البراقة، تتخلل الإعلانات تحذيرات الأمن العام وصور للرئيس الملهم ووزرائه وإنجازاتهم في النهوض بالوطن.

لا تدرك هي عن أي وطن يتحدثون.. هل هو الوطن الكبير في العاصمة والمدن الثلاث الكبرى التي تحظى بالدعم الحكومي دون غيرها؟

هل يشمل الوطن قاطني الصحراء والعشوائيات وأطراف المدينة وعمال المناجم؟ هل يشمل المعزولين في القطاع سبعة؟

عن أي وطن يتحدثون؟!

لم يتبقَّ من الرقعة الزراعية إلا الثلث.. الفقراء يزدادون فقرا ومرضا، والأغنياء يزدادون ثراء وصحة، خاصة مع تطور برامج تجديد الخلايا واستبدال الأعضاء ومراكز إعادة التأهيل الضخمة.

كل الشباب الآن يعملون في المناجم، أو في مراكز البيع الضخمة، لقد ماتت الأحلام بداخلهم، لكن الإعلام الممنهج يصر على وجودها، الإعلام هو مخدر الشعوب الجديد.

كل شيء له وجهان، حتى هي.

أصدقاؤها في العمل يرونها قاسية لا قلب لها، وهي تجتر الأحزان وحيدة بقلب مفتت.. لقد حأولت من قبلُ الانتحارَ بزيادة جرعة المخدر، ولم يفلح

الأمر معها؛ فقد اعتاد جسدها المخدر وبدأ يطلب المزيد، وعندما منحته ما يطلب منحها سلسلة من الأحلام الأسطورية ولم يمنحها الموت.

لقد عاشت مع «آدم» أكثر من حياة وأنجبت منه أكثر من طفل، وسافرت معه حول العالم، وقضيا إجازة رائعة فوق مستعمرات القمر.. تسلقا الجبال، وتزلجا فوق كثبان الجليد الصناعية، ومارسا الألعاب التفاعلية، وقضيا ليالي حميمية كثيرة فوق المروج الصناعية في جزيرة الأحلام.

المخدر منحها ألف حياة جديدة مع «آدم»، لكنه لم يُعِد «آدم» الحقيقي إليها، فذهب أثر المخدر وظل ألم البعد.

توقفت السيارة الصاروخية أمام ناطحة السحاب التي تعمل بداخلها.

«بيراميدز جروب».. ناطحة سحاب هائلة الحجم شديدة الارتفاع، تحتوي على آلاف الغرف وعشرات من قاعات المؤتمرات والكثير من الملاهي الليلية والنهارية وعدة مقرات كبيرة لشركات برمجيات وشركات اتصالات عملاقة، وفي إحداها كانت تعمل «ليلى».

هبطت من السيارة، ثم وضعت هاتفها المحمول على شاشة رقمية بجوار المرآة الجانبية للسيارة، فسحب من رصيدها الهزيل أجرة التوصيل، ثم قامت بمراجعة هندامها، وتقدمت بخطوات سريعة نحو البوابة الإلكترونية، فحصها شعاع وردي وقارن ما حصل عليه مع المعلومات المخزنة لديه وسمح لها بالدخول وسجَّل لحظة حضورها إلى المكان.

* * *

عبرت «ليلى» البهو الرخامي شديد الأناقة ثم دارت حول منطقة الاستقبال إلى أن وصلت إلى منطقة المصاعد، استقلت المصعد الأزرق المخصص للعاملين بشركتها، الذي صعد بها بسرعة كبيرة غير محسوسة إلى الطابق الثامن والتسعين، ثم توقف بنعومة لتغادره على الفور إلى حيث تعمل.

شعرت بهزة غريبة في جسدها وهي تقطع الممر الفاصل عن مدخل شركتها،

إنها تحتاج لجرعة جديدة من «أبوللو»، لكنها لن تجرؤ على تناوله الآن، قد تفقد روحها ذاتها، لكنها لن تجازف بأن تفقد عملها، كما أنها لا تجرؤ على إحضاره لمقر عملها.. فبفقدانه ستفقد حياتها بالكامل، السكن الذي يؤويها، والمال الذي تشتري به الطعام والمخدر، ستصير مشردة أخرى مثل مئات الآلاف المتناثرين كعشب الأرض في كل مكان.

تنفست بعمق لتطرد هذه الأفكار الجامحة كلها، وتئد حاجة جسدها للمخدر، لتجلس على مكتبها، الذي ما إن تعرف عليها حتى بدأ على الفور بعرض شاشة مجسمة تراصت فوقها الأعمال المطلوب إنجازها لهذا اليوم.

ساخطة تشرع في أداء عملها المحاسبي وتحليل البيانات؛ فقد لاحظت زيادة الأعباء وكمية العمل المنوط بها إنهاؤه لهذا اليوم.

لا بد أنها تلك اللعينة «ميادة» - رئيستها المباشرة - هي من أضافت على كاهلها هذه الأعباء الجديدة.

لماذا يكرهك شخص ما هذا الكره كله دون أن يكون هناك سبب واضح؟

لغز جديد من ألغاز حياتنا المعقدة!!

أنهت كل ما لديها من معاملات في وقت قياسي، كانت تحتاج لأن تدفن آلامها وأحزانها في مقبرة العمل، ونجحت إلى حد ما، وعندما وصلت إلى الملف الأخير، انتفضت وكأنما أصاب جسدها تيار كهربي عنيف.

إنها تعرف هذه النوعية جيدا من الملفات.. لقد أخبرتهم من قبلُ ألا يرسلوها.. إنها لن تعود إلى العمل السري مرة أخرى.. لن تستطيع أن تدافع عمَّن تركوا قلبها خلف الأسوار وهللوا للديكتاتور الجديد، لن تستطيع تحمل خيانة جديدة.. لن تستطيع تحمل ذنب قطاع سبعة آخر.. كفاها ما فقدته وما تفقده طوال الوقت.. لقد تبخرت حماستها لأي شيء إلا الموت.

كادت تحذف الملف مع تهدج مشاعرها، لولا أن الفضول اكتسحها في اللحظة الأخيرة، ففتحت الملف الرقمي المجهول، وهي تتلفت حولها في حذر، وهي تلعن «ميادة» في سرها.

وعندما طالعتها صورة «آدم» خفق قلبها في عنف، ملامحه الوسيمة ثلاثية الأبعاد تخترق كيانها، وتبث فيها سلسلة لا نهائية من المشاعر المضطربة، إن قلبها يحن إليه، يشتاق لقربه، قلبها الذي طُعن بخنجر الفراق، قلبها الذي أحال حياتها إلى جحيم مستمر، يكاد يتوقف وهو يقرأ العبارة المختصرة التي صحبت صورة «آدم» القديمة.

- معلومات جديدة.. المكان نفسه.. الموعد نفسه.

لم تعرف ماذا تفعل.. إن ما يموج بداخل جسدها من مشاعر يجعلها متوترة، حتى بعد تلاشي الملف تلقائيا، ظل جسدها يرتجف، وكادت تُصاب بأزمة قلبية عندما أحست بأصابع رئيستها في العمل تقبض على كتفيها قبل أن يصل صوتها الجاف إلى أذنيها:

- هل تواجهين أي مشكلة؟!

وارتجف جسدها أكثر وأكثر وهي تهز رأسها نافية، وصورة «آدم» تجتاح كيانها وتسيطر عليه بالكامل.

* * *

ظل جسد «ليلى» يرتجف طوال طريق عودتها، ما جعلها لا تستمتع بالعروض التي تروِّج لحفلات رأس السنة المقبلة، التي أغرقت طريق عودتها كإعصار عاتٍ.. وخلال الطريق بدَّلت عدة وسائل مواصلات مختلفة، فركبت حوَّامة النقل الطائر وسيارات الأجرة الصاروخية ثم المترو.. وأخيرا قطعت كيلومترا كاملا على قدميها حتى وصلت إلى المول التجاري الكبير الموجود على أطراف المدينة، وهي تتطلع إلى واجهات المباني العاكسة التي تعبر بجوارها لتطمئن من عدم وجود مَن يراقبها أو يتبعها، وكان من الواضح أنه لا يوجد مخلوق واحد في الكون يأبه بها.

وفي أثناء رحلتها المرهقة، هاجمتها الذكريات، فتذكرت لقاءها الأول بـ«آدم»، وبصعوبة منعت دمعة مارقة من تلويث خدها وإفساد زينتها المتقَنة، كما

أنها لم تُرِد لفت الأنظار.
هل هناك أي شيء أكثر لفتا للأنظار من أنثى جميلة تمشي وحيدة وتبكي؟ حصى الأرض نفسه لا بد أن يتفاعل مع حزنها وحسنها.
عندما تخرجت «ليلى» في كلية التجارة لم تكن في تلك الأيام تشبه «ليلى» الحالية؛ كانت فتاة أخرى لا تشبه ذلك الشبح الحزين الذي يطالعها كل يوم في المرآة، ولم تكن بعدُ قد أدمنت المخدر الجديد «أبوللو»، الذي يدل توافره بهذه الطريقة المريبة وسهولة الحصول عليه على أن يد الحزب ليست بعيدة عن ترويجه في أوساط الشباب.
كانت مفعمة بالأمل وتحمل هموم الوطن على كتفيها بحماسة لا تنقطع.. كما كانت عضوا فاعلا في كل الأنشطة الطلابية، وكل فعاليات الطلاب السياسية، فكانت عضوا رئيسيا في كل الوقفات الطلابية المطالِبة بالإفراج عن المعتقلين ومؤازرة المساجين السياسيين، وتعرضت مرتين للاعتقال بسبب موهبتها الشعرية وقصائدها المناهضة للنظام.
كان البلد وقتها قد تخلص من حكم ديني مستبد، لم يختلف لحظة واحدة عن الحكم الأمني الفاشي، وعلى الرغم من الدماء التي سالت عبر السنوات لتأكيد المطالب الثورية التي لم تتبدل ولم تتحقق عبر ثورات لم تنقطع وقمع لم يرحم..
وما بين العيش والحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية، مضت تلك السنوات العصيبة بعد تخرجها، حتى عندما طالبت بإسقاط النظام الأخير، كان يحدوها كل الأمل.
وفي إحدى التظاهرات التي نظمتها بعض القوى السياسية كانت هناك، تهتف بكل ما في حنجرتها من قوة، تصرخ بكل ما في روحها من غضب.. تمارس حريتها في الاعتراض.. تبحث عن الأمل في حياة تشبه الحياة.. عندما سقطت قنبلة الغاز الأولى بالقرب منها، ثم بدأت طلقات الخرطوش المطاطية تنهال عليها وعلى رفاقها من كل صوب، مع هجوم قوات الأمن الملثمة، ليتحول

المكان إلى فوضى شديدة.
حأولت الهرب بعيدا وهي تفعِّل منقِّي الهواء الموجود بداخل أنفها، وهو وسيلة حديثة قامت الصين بتطويرها من أجل ترويجها في البلدان الشهيرة بالاضطرابات مع ذلك الغزو العالمي لمنتجاتها لدول العالم المختلفة، وإن كان يختلف عن قناع التنفس في قدرته على تنقية الأجواء من الغازات لفترة محدودة لا تتجأوز الست ساعات، و قدرته على الفلترة أكبر، عندما شعرت بالضربة الهائلة ترج عقلها رجًّا قبل أن تغمرها الدماء.
مادت بها الأرض وهي تقبض على تلك اللوحة الإلكترونية الرقيقة التي تهشَّمت بين يديها، قبل أن تشعر بطرف ذلك الحذاء القاسي يصطدم بمعدتها لينتفض جسدها بالألم، وطعم الدم الصدئ يغمر شفتيها.
مرت عليها لحظات قاتلة صُمت فيها أذناها، ورأت كل شيء يتحرك ببطء شديد، وكأنها بداخل أحد أفلام الحركة التي يُعاد تصويرها ببطء.
كانت على مشارف فقدان الوعي عندما رأت ذلك الشاب النحيل يشتبك مع رجل الأمن الملثم في عنف قبل أن يجهز عليه - الشاب هو من أجهز على رجل الأمن بالطبع - قبل أن يجذبها من يديها ليحملها على كتفه ويعدو نحو المجهول.
مرت ساعة كاملة لم تشعر خلالها إلا باهتزاز جسدها، وبالأيدي التي تتناقلها طوال طريق الهروب.. وبداخل أحد أنفاق المترو فتحت عينيها لتراه للمرة الأولى وهو يضمِّد جراحها ويطمئنها على كونها بخير.
الرؤية كانت غائمة ومشوَّشة لأقصى درجة، لكنها رأت ابتسامته المشجعة فهبَّت جالسة لتشعر بالألم يجتاح جسدها، وبعد دقائق كانت تجلس بصحبة «آدم» وقلبها يخفق بمشاعر جديدة لم تختبرها من قبلُ.
لم تكن تعرف شخصيته أو ما سيكون عليه في المستقبل القريب، لكنها شعرت معه باطمئنان غير مسبوق.
ثم توالت اللقاءات.

و...
قطع تدفق ذكرياتها وصولها لأحد المحال الخاصة ببيع الملابس الحديثة، وعلى الفور دخلت إلى المحل ومنه إلى غرفة تبديل الثياب، ثم وقفت للحظات لتستجمع نفسها، وجسدها ينتفض طلبا للمخدر.
تحاملت على نفسها ووضعت كفها اليسرى على جزء لا يختلف عن غيره من جهاز القياس، ليتموج هذا الجزء في نعومة باعثا في جسدها أحاسيس متدفقة لم تختبرها منذ سنوات، قبل أن ينزاح الجدار العاكس كاشفا عن غرفة خلفية عبرت لداخلها وهي ترتجف.
وبداخل الغرفة كان ينتظرها رفاق الكفاح القديم، وصورة «آدم» المؤطرة في احتفاء وتقديس كبيرين تزين المكان.
طالعت الوجوه التي طالما رافقتها عبر رحلة العمل المشترك، وكادت دمعة شاردة تفر من عينها وهي تشاهد تلك الصور الأخرى التي ظللها شريط أسود دالة على مصير رفاق كان كل حلمهم وطنا لا يقسو عليهم ويمنحهم مستقبلا جيدا..
وعندما جلست على الطأولة المستديرة وسط الأعين التي كانت تتفحصها في فضول لم تستطِع أن تتوقف عن البكاء..
احترم الجميع فوران مشاعرها.. حتى جفت دموعها تماما، وبدأ اللقاء المصيري.. الذي سيغيِّر الكثير في الأيام المقبلة..
الكثير جدا.

لقاء غير متوقَّع

دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ليتثاءب خالد صبري في إرهاق، بعد أن طالع العشرات من الفواتير والعروض الحديثة على جهاز الحاسوب التفاعلي الخاص به.

كان يشعر بحاجة ماسة لجرعة جديدة من «أبوللو»، لكنه آثر السلامة واستبدل به أحد مشروبات الطاقة التي يغص بها المبرد.

ولأن النوم كان يجافيه؛ قرر أن يُخرج كل توتره في الكتابة.

فالكتابة هي الشيء الوحيد الذي يمنحه القدرة على ضبط إيقاع روحه واستعادة هدوئها.

الكتابة هي عصا موسى التي هزمت السحَرة في كل مكان وزمان.

كان قد قام بجمع الكثير من الأفكار المسبقة ليبني عليها مقالاته الساذجة التي لا قيمة لها، تصفَّح القائمة بعينين زائغتين ثم اختار الموضوع الجديد: عبادة جوجل.. الموقع الإله.. كما يدعي أصحاب الدين الجديد.

www.google.com

نعم، لا تتعجبوا، فهناك هذه الأيام من يعبد موقعا على الشبكة العنكبوتية، وقد دشنوا له كنيسة في بداية القرن الحادي والعشرين، بل ووضعوا نقاطا متعددة تمثل أدلة صحة عقيدتهم الشاذة.

المخيف أن الأمر بدأ تهكميا، ومع مرور الوقت صار له كهنته ومريدوه، كما تنشأ جميع الأديان الزائفة.

والغريب أن الفكرة اجتذبت الآلاف من الشباب عبر الزمن، فأصبحت لهم

شعارات وملابس يظللها رمز «جوجل» الشهير.
كما أصبح كل منهم رسولا يشرح للراغبين بالانتساب لكنيستهم وصاياها العشر، وأهمها: عدم جواز استعمال أي محرك بحث آخر، وعدم التلاعب بالمعلومات التي هي من اختصاص شركة «مايكروسوفت».
إنه الاستحواذ العقلي والخواء الفكري، خاصة مع ترك رجال الدين لوظيفتهم الحقيقية وانغماسهم في السياسة، فلم تعد الأديان السمأوية الثلاثة هي التي يتقاتل أتباعها فقط، بل دخلت الأديان الجديدة في الصراع.
مع كم الخرافات وتلك النصوص المدسوسة في كل كتب الأديان التي لم تتم تنقيتها وفلترتها، والتلاعب بمعانيها ومدلولاتها من أجل المصالح، أصبح التشكيك في عقائد الآخرين دينا في حد ذاته.
فتأثير الكلام المنمق والمرتب وشبه المنطقي من الممكن صكه وقولبته في إطار الدين، فقط عليك أن تكون أكثر إقناعا، وهل هناك أكثر إقناعا من «جوجل»؟!
لم تكن الديانات الشاذة تقليعة غريبة؛ فهي متوافرة عبر العصور، لكن الآلهة هي التي تتغير مع القفزات الهائلة في التكنولوجيا..
فهناك من يعبد لقاح الإيدز الذي أنقذ الملايين فور اكتشافه، كما أن هناك من يعبدون الهواتف الرقمية، ومن يعبدون رسائل البث القادمة من الفضاء، وهناك من يعبدون الشيطان والملائكة وبعض أنواع الفاكهة والخضار.
و«خالد» لم يكن يعنيه كل هذا الخلط والجنون؛ فالقرن الثاني والعشرون هو قرن الانهيار الفكري والبشري والروحي.. إنه نهاية منحنى البشرية الحالي.. فقط ما يعنيه أنه ما زال مبهرا ويثير فضول القراء ويفتح الشهية لمعارك لا معنى لها تزيد من مشاهدات جريدته الرقمية.
اختار «خالد» عنوانا ساخرا للمقال، يعرف أنه سيسبب ضجة، مع قوانين حريات العقيدة والعبادة، لكن هذا هو المطلوب: الإلهاء واجتذاب عامة البسطاء لمواضيع فرعية ومعارك جانبية تستنفد ما لديهم من طاقة.

كتب العنوان المثير للجدل:
الإله الذي ينتظر من مريديه أن يصنعوه.. متى يرسل الإله «جوجل» أنبياءه؟
لا يعرف لماذا فاح المقال بالسخرية العميقة!
هل كان يحأول صنع شخصية بديلة لشخصيته، تصلح لمواجهة سخرية «آدم»، أم كان يحأول أن يبدل شيئا في تكوينه الداخلي؟ لقد سيطر «آدم» على تفكيره تماما وصار يضغط على أعصابه بطريقة قاتلة.
رشف رشفة مضاعفة من مشروب الطاقة ثم أشعل سيجارة جديدة، وبكل ما يعتمل في داخله من توتر بدأ يسوق كل الأدلة التي ساقها مجذوبو «جوجل» لتأكيد ألوهيته.. وكانت هذه الأدلة الهزيلة كالتالي:

الدليل الأول:
- إن «جوجل» أقرب ما يكون إلى كيان ذي علم كامل (عالم بكل شيء) في الوجود، ويمكن التحقق من ذلك علميا؛ إذ إنه يتضمن في فهرسه أكثر من ١٩,٥ مليار صفحة ويب، ويعتبر ذلك العدد أكثر مما يوجد في أي محرك بحث آخر على شبكة الإنترنت اليوم. بل ويعتمد على تكنولوجيا حاصلة على براءة الاختراع في تنظيم هذا الكم الهائل من المعلومات وتسهيل عملية وصولها للبشر.

الدليل الثاني:
- بما أن «جوجل» يعلم كل شيء فهو يوجد في كل مكان في الوقت نفسه. المليارات من صفحات الويب المفهرسة التي تمت استضافتها وإذاعتها من كل ركن من أركان الأرض. ومع انتشار شبكات الـ«واي فاي»، فسوف نكون قادرين في نهاية المطاف على الوصول إلى «جوجل» من أي مكان على الأرض، ما يجعله حقا صاحب حضور وكيان كلي.

الدليل الثالث:

- يستجيب «جوجل» للصلوات.. يمكن للمرء أن يصلي لـ«جوجل» عن طريق عمل بحث عن أي سؤال أو مشكلة يعانيها. وكمثال على ذلك، يمكنك العثور بسرعة على معلومات عن السرطان والعلاجات البديلة وسبل تحسين صحتك والاختراعات والاكتشافات الطبية، وعموما كل ما يمثل صلاة نموذجية. اطلب من «جوجل» ما تريد وسوف يبين وينير لك الطريق، لكن كل ما يستطيع القيام به هو توضيح الطريق لك ويجب أن تساعد نفسك بعد ذلك.

الدليل الرابع:

- يُحتمل أن يكون «جوجل خالد»، ولا يمكن اعتباره مخلوقا ماديا كالإنسان، تنتشر خوارزمياته في الكثير من الخطوط والخدمات، إذا تم تأخير أو تدمير أي من هذه الخطوط لأي سبب من الأسباب فسوف يحل خط أو خدمة أخرى مكانه بلا شك.. نظريا، يمكن أن يستمر «جوجل» إلى الأبد.

الدليل الخامس:

- يدوم «جوجل» إلى الأبد، نظريا، يمكن للإنترنت أن ينمو بلا نهاية وسوف يبقى «جوجل» مؤشرا لهذا النمو إلى الأبد.

الدليل السادس:

- يتذكر «جوجل» كل شيء.. ينظم «جوجل» صفحات الويب بشكل منتظم ويخزنها في خطوط وشبكات ضخمة. في الواقع، عن طريق تحميل أفكارك وآرائك على شبكة الإنترنت، فإنك سوف تعيش إلى الأبد في ذاكرة التخزين المؤقت لـ«جوجل»، حتى بعد أن تموت، فيما يسمى «جوجل الآخرة.. جوجل ما بعد الموت».

الدليل السابع:
- لا يمكن لـ«جوجل» أن يفعل أو يتسبب في أي عمل شرير.. إن جزءا من فلسفة شركة «جوجل» هو الإيمان بأن الشركة يمكن أن تجمّع الأموال من دون أن تكون شريرة.

الدليل الثامن:
- وفقا لاتجاهات وميول «جوجل»، فإنه يتم البحث عن مصطلح «جوجل» أكثر من المصطلحات التالية مجتمعة: «الإله، المسيح، الله، بوذا، المسيحية، الإسلام، البوذية، اليهودية». يُعتقد أن الله هو كيان يمكن للبشر اللجوء إليه في وقت الحاجة. من الواضح في تفكيرهم المريض أن «جوجل» يحقق ذلك الشرط على نطاق أوسع من «الآلهة» التقليديين.

الدليل التاسع:
- الأدلة المادية على وجود «جوجل» وفيرة. هنالك أدلة على وجود «جوجل» أكثر من الأدلة على وجود أي من الآلهة الذين تتم عبادتهم اليوم. الادعاءات غير العادية تحتاج إلى أدلة غير عادية أيضا. لو كانت الرؤية هي الإيمان إذًا اذهب إلى www.google.com واختبر بنفسك قوة «جوجل» العظمى.. الإيمان هنا غير ضروري.
انتهى من ترجمة المقال ونقاطه التسع، ثم تساءل في خبث: ماذا لو فقد العالم مصدر طاقته؟ هل سينتهي «جوجل» كإله؟ .
وهل سيجيب تضرعات مريديه، من خلف حجاب العدم ؟
الفكرة في حد ذاتها صادمة ،ومخيفة ، ولكنها تدل على مدى الإنحدار الأخلاقي والعقائدي لمن يعتنقها .
ولكنها ستظل حقيقة قائمة ، وبائسة .

كان مقالا سخيفا لا غرض منه إلا الإثارة؛ فالأخبار الأخرى التي يريد الحزب ورجالاته توصيلها للعامة توجد وسط هذه المقالات الخفيفة ويكتبها محترفون.

انتهى من إرسال المقال إلى بريد الصحيفة الإلكتروني، ثم شعر بذلك الخواء الذي يتبع الانتهاء من الكتابة قبل أن يعود لأفكاره مجددا.

الكتابة.. عصا موسى.. أثبتت هي الأخرى أنها مخدر قصير المفعول، تأثيره يستمر أقل من «أبوللو» نفسه.

وفي النهاية ذهب لخزانة ملابسه وأخرج منها بعض الملابس القديمة التي لم تفقد أناقتها بعد، وبدأ في التحضير للقاء التالي مع «آدم»، وفي رأسه عبر طيف «جهاد» كحلم مؤجل، فابتسم للحظة قبل أن يرتشف مشروب الطاقة في نهم.

* * *

في الثالثة صباحا تألق الهاتف المتطور وأصدر نبضاته المزعجة.

فتح خالد صبري عينيه بصعوبة وهو ينظر للشعاع المنبثق من الهاتف الذي يُظهر شكلا مجسما لمنزل.. كان هذا هو جرس الباب عبر تطبيق المراقبة المتصل بالهاتف.

فعلى كاميرا المراقبة المدمجة بباب شقته المصفح، يرى الوجه الجميل المجهول الذي يغطي قناع التنفس نصف مساحته، الذي يطالعه عبر الكاميرا وقد ظهر على ملامحه التوتر.

حأول أن يسترجع من ذاكرته أي معلومات عن ذلك الوجه غير المألوف، لكنه عجز تماما..

نظر لساعة الهاتف.. الثالثة صباحا.. اللعنة.. إنه لم ينَم أكثر من ساعة واحدة..

ضغط زر الاستجابة فتألق الباب بضوء أخضر ليشير إلى أن القاطن في المكان

قد استجاب للتنبيه وفي طريقه لفتح الباب..
كان بإمكانه أن يفتح قفل الباب الإلكتروني عبر الهاتف، لكن من يملك الجرأة في هذا الزمن لفتح بابه لشخص غريب، حتى لو كان امرأة رائعة الجمال كتلك المرأة النحيلة الواقفة بقلق على الباب، التي لم يستطع قناع التنفس أن يخفي جمالها، بل أضاف له غموضا محببا؟!
إن حوادث السطو المسلح تحتاج لمجلدات لحصرها.. والحمقى الذين استجابوا لأول من طرق بابهم تغص بهم المقابر.
وللعلم فهو من قام بتركيب هذا الباب الآمن على نفقته؛ فمالك العقار - كما عرفتم سلفا - بخيل كـ«شايلوك» اليهودي في قصص شكسبير.
نهض من فراشه في ضيق، غادر الغرفة وهو يمشط شعره الكثيف بيديه.. ثم توجه صوب الباب وهو يكاد يتعثر في قطع الأثاث المتناثرة قي عشوائية..
ما زالت غشأوة النوم تظلل عينيه..
ومن خلف السلسلة المعدنية أخذ يتفرس في ملامح المرأة الجميلة الواقفة على الباب، قبل أن يحدثها بغلظة قائلا:
- من أنتِ؟ وماذا تريدين؟!
نظرت الفتاة حولها بقلق وهي تنزع قناع التنفس، ليظهر وجهها الفاتن قبل أن تقول:
- اسمي «ليلى» وانت لا تعرفني.. افتح الباب.. لا يصلح الحديث الذي جئت من أجله على الأبواب.
تفحصها «خالد» في حذر وهو يفكر.. هل هي إحدى فتيات الليل اللاتي يجُبن الحي طوال الوقت؟ لم تكن ملابسها ولا طريقتها الجادة توحي بهذا الأمر الشاذ، وعندما لم يجد في هيئتها ما يقلق فتح الباب وسمح لها بالدخول.
دلفت المرأة إلى داخل الشقة وأغلقت الباب خلفها بطريقة منافية للذوق وهي تقول بصوت متوتر:
- سامحني سيد «خالد» على طريقتي الخالية من الذوق.. لكن الموضوع

مهم بالفعل.. ولن آخذ من وقتك إلا دقائق.
لم يكن ذهنه قد صفا بعدُ، لكن طريقتها المهذبة أجبرته على الإنصات.
كان النوم يزحف على عينيه كثعبان لزج، وكم مرة أراد أن يصفعها ويطردها خارج المنزل، خاصة أنها قد مرت دقائق ثمينة لم تتوقف لحظة فيها عن الحديث الذي لا طائل من ورائه، والذي لا يبرر قدومها في هذا الوقت المتأخر من الليل.
ما له ولهذا الحوار السخيف عن إعجابها بشخصه ومقالاته العبقرية.. هل يعقل أن هناك معجبة بالسخف الذي يكتبه؟
- هل تشربين قهوة؟!
قالها وهو يتفرس ملامحها الجميلة وأنوثتها المستنفرة، وقد بدأ يضع لها الكثير من الخطط الساخنة في رأسه.. الحقيقة أنها لا تبدو من هذا النوع من النساء الذي يتمنى أن تكونه، لكنه لن يمانع في أن يكون مرشدها.
هزت رأسها أن لا مانع، ثم أخذت تتفحص شقته بغير انبهار، لكنه لم يبالِ.. إنه يحتاج لصدمة القهوة..
يحتاج لأن يستفيق..
كانت الأفكار في رأسه تدور حول الجنس، والجنس فقط في هذه اللحظة، لقد صعدت تلك الفاتنة ستة أدوار دون أن يظهر على وجهها أي إرهاق.. كم يحب هذا النوع الرياضي من النساء.
نأولها قدح القهوة سريعة التحضير وهو يتفرس جسدها المشدود بعين ذئب، قبل أن ينساها للحظات ويندمج لأقصى مدى مع قدح القهوة..
مرت دقائق، وهي ما زالت تتحدث دون توقف، وعقله قد صفا لها أخيرا..
ثرثارة جدا، ومدعية لأقصى مدى.. ولا تفقه شيئا عمَّا تتحدث عنه..
إنها مخادعة دون شك وقد أتت بغرض آخر غير ما تدعي.. ذكره أسلوبها بأسلوب طليقته «ريناد» وجرأتها.. وهو شيء لم يشجعه كثيرا على المضي قدما في مهادنتها.

جلس على المقعد المقابل لها وهو يتفرسها من رأسها حتى أخمص قدميها، قبل أن يقول:

- هلا كففتِ عن حديثك السخيف هذا وأخبرتِني عن سبب قدومك الحقيقي في هذا الوقت المتأخر!

ظهرت على وجهها ملامح تفكير عميق، قبل أن تقول الاسم الذي أطار النوم من عينه، كألف قدح من القهوة المركزة:

- آدم المصري.

انتقض جسده في عنف وكأن هناك من يصعقه بصاعق أيوني، كان يتوقع أي إجابة في الدنيا إلا هذه الإجابة.

ابتلع الصدمة بقوة ثم قال بصوت مضطرب:

- ماذا؟ آدم المصري؟! وما صلتي به؟ إنه هناك في غياهب السجون.. يمكنك الذهاب إليه لو أردتِ.

لم يظهر على ملامحها أي مشاعر وكأنها قُدَّت من حجر، وهي تتجاهل رده الذي يثبت أكثر مما ينفي، وهي تقول في صرامة:

- نحن نعرف كل شيء.. حقيقة لقائك به واللقاءات المقبلة.. انت أملنا الوحيد في التواصل معه.. والإنكار لن يفيد؛ فانت تعرف أننا نعرف حقيقة الأمر جيدا.. لا شيء كهذا يمكن إخفاؤه.

لم يرغب «خالد» في أن يضيع المزيد من الوقت؛ لذا فإنه هبَّ من مكانه واقفا قبل أن يشير إلى الباب:

- آسف يا سيدتي، طلبك ليس عندي، وليس لديَّ ما أضيفه من أجلك.. انتهى اللقاء.

اعتدلت «ليلى» في مكانها دليلا على عدم نيتها في المغادرة قبل أن تقول:

- أانت حقا خرجت من صلبهما؟ إن «صبري» و«نهال» كانا من أيقونات ثورتنا المجيدة.. كيف تخون حلمهما بهذه الطريقة الفجة؟

شعر بغضب عاتٍ عندما جاءت على ذكر والديه الراحلين قبل أن يقول:

- عن أي خيانة تتحدثين؟ أنا صحفي وأجري تحقيقا صحفيا.. ووالداي ماتا مدافعين عن مبادئ هما فقط مؤمنان بها.

نظرت له في دهشة متسائلة:

- ألست مؤمنا بها انت أيضا؟!

أشاح بيديه، ثم انقلبت شفتاه وهو يجيبها بامتعاض:

- بماذا أومن، بالخراب والموت؟

نظرت نحوه نظرة مستنكرة قبل أن تستطرد:

- بل حقك وحق غيرك في الحرية، وفي وطن لا يمزقهم إربا عند مطالبتهم بالحد الأدنى من حقوقهم.

عاد ليجلس على مقعده وقد غلَّفت وجهه ملامح الاستياء قبل أن يقول:

- هذا الوطن الذي تتحدثين عنه لم يُسِئ لي قط، ربما أنا من أسأت إليه بمقابلتك.. هذا الوطن ظل طوال قرن كامل نهبا للاضطرابات التي يصنعها أمثالكم.. هذا الوطن مُزِّق على أيديكم.

صدمها حديثه جدا، لكنها لم تكن تنوي الاستسلام، الحقيقة أنها تعرف رأيه وموقفه من كتاباته السابقة المساندة للنظام، لكنها لم تفقد الأمل وقالت:

- إذًا انت لا ترى الوطن إلا في مصلحتك الشخصية فقط.. ماذا إذًا عن الآخرين؟

أطلق ضحكة ساخرة وهو يقول:

- أي آخرين؟! الكل يسعى لمصلحته تحت ألف اسم وشعار.. الكل بلا استثناء.. فقط الذكي من يحني رأسه للعاصفة عندما تشتد وتوشك أن تطيح بكل شيء.. وأنتم أغبياء جدا في هذه النقطة.. عنيدون على الرغم من خسائركم التي لا تتوقف.. أنتم من تمنحون المبرر للنظام ليقمع الجميع.

احمر وجهها من سخريته وقالت بصوتها الغاضب:

- هذا قول حق يُراد به باطل.

تابع بالصوت المتهكم نفسه متسائلا:

- وما الحق من وجهة نظرك: أن يموت المزيد من الشباب ليظل العجائز في مناصبهم.. أن نقوم بالثورة تلو الثورة لتُسرق؟ لقد تعلمت الدرس منذ زمن.. هناك مَن قدره أن يخطط لنا المستقبل ونحن علينا أن نعيش فقط.

أطرقت برأسها للحظات ثم قالت بصوت كسير:

- هل شاهدت أخبار الصباح؟ يقولون إن الوباء في القطاع السابع جعلهم يأكلون أجساد الموتى.. هل رأيت ذلك الشخص الذي كان يضاجع تلك الجثة ممزقة الأطراف؟ هل تصدق هذا الهراء؟ هل زرت القطاع السابع من قبل؟! هل تصدق أن كل المعزولين وحوش؟ إنك أحد تروس هذه الآلة الإعلامية الفاسدة الكاذبة.. فهل راجعت نفسك يوما؟

كان يعلم جيدا - بحكم مهنته - أن آلة النظام الإعلامية بدأت في شيطنة المتمردين والمعارضة، بل وبدأت في تحويلهم إلى وحوش حقيقية.. بل لقد بالغوا في موضوع مضاجعة الجثث هذه.. لكنها مادة مثيرة والبسطاء يتمتعون بها.. وبكونهم على صواب في تجاهلهم لكل شيء.

التقارير تشير إلى أن هناك من بدأوا في التهام الحيوانات الضالة بعد الحصار العنيف الذي تمارسه أجهزة النظام الأمنية.. لكن لم يصل بعد لـ«الكانيباليزم» والتهام أجساد الموتى.. لكنهم من حكموا على أنفسهم بذلك.. هم من خالفوا القانون.. والأمن العام لا يرحم.

دارت هذه الأمور في رأسه، لكنه عاد بعناد ليقول:

- لا أحتاج لمراجعة نفسي أو مشاهدة الأخبار لأعرف الفشل الصريح.. إن ما تقومون به هو الفشل الصريح.. الغبي فقط من يقوم بتكرار الفعل نفسه ثم يتوقع نتائج مختلفة..

وأعيدها عليك مجددا: لقائي آدم المصري مجرد عمل.. قصة مثيرة أخرى ستخلد تاريخ الفشل الصريح، وسأجني من ورائها الكثير.. وما يحدث في القطاع سبعة يحدث في قطاعات كثيرة، صحيحا كان أم خاطئا لا يعنيني.. أنا أريد فقط أن أعيش دون أي منغصات.. ودون أن يدس الأمن العام أنفه في

شئوني.. كفاني جحيم الفشل وخيبة الأمل.
صدمها حديثه؛ فهي لم تتوقع أن يكون بهذه اللامبالاة أو هذا الجحود.. إنه يعيش خارج دائرة الوطن تماما.. لقد نجح النظام وبمهارة في غسيل عقله.. أسقط في يدها.. لم تعد تعرف ماذا تفعل.. وفي هذه اللحظة استعادت حديثا قديما لها مع «آدم».
هي: «آدم»، إن الأمور خرجت عن السيطرة.. إن الجماهير نفسها في المدن الكبرى بدأت تتصدى لرجالنا وتفسد عملياتهم بعد أن ضيَّق النظام الخناق عليهم.. إنه يعاقبهم بأفعالنا، وهذا يفسد أمورا كثيرة.
«آدم»: ليست هذه الجماهير هي ما تهمنا.. إنهم رعايا النظام.. كل الفسدة والموالين الذين يغدق عليهم النظام من نعمه.. الجماهير الحقيقية التي يجب أن نخشاها هي التي تقع خارج أسوار المدن الكبيرة.. إنهم هم المضارون.. الحالمون بمستقبل أفضل.. برعاية صحية.. وماء غير ملوث.. ومدارس لأولادهم.. إنهم قاعدة الهرم التي يجب أن نبدأ منها.
هي: لكن كيف نجند المزيد من الموالين من داخل النظام والضرر لا يقع عليهم مباشرة؟
«آدم»: يجب أن نستخدم نفس أساليب النظام.. نريهم المصير الأسود الذي ينتظرهم مع صمتهم وسلبيتهم وقناعتهم بالفتات الذي يُلقى لهم عن طريق النظام.. يجب أن يروا أن هناك من يشاركهم الوطن اسما فقط.. وواجبهم أن يدعموه.. لا بد لنا من الوصول لعقر دارهم.. لا بد لنا من إعلام بديل.. لا بد من نشر الحقيقة.
وعند هذه النقطة قررت أن تخوض معركة حياتها مع «خالد»، فقالت مباشرة:
- لا أريد منك أن تؤمن أو لا تؤمن.. فقط أحتاج منك شيئا أخيرا.. مجرد رسالة شفهية توصلها لـ«آدم».. وسنختفي بعد أن تمنحنا الرد من حياتك لتنعم مع ابنتك بيوم رائع آخر.. إن الأطفال نعمة ولا يجب أن تزول بفضل

حماقتنا.
ظهر رد الفعل العنيف على وجهه، بعد التهديد الصريح في كلمتها، ولأنه كان يعرف أنهم لا يعبثون فقرر أن يجاريها ليرى نهاية عبثها هذا فقال:
- وما هذه الرسالة؟ وما جدواها؟
نظرت له بانكسار وقالت:
- لا جدوى لها.. لكنها ستمنحه بعض الأمل في سجنه المظلم.
ظل دقيقة كاملة يتفرس ملامحها قبل أن يقول ببرود:
- لن أعدك بشيء.
أشرق وجهها للحظات لانت فيها ملامحها قبل أن تقول:
- وأنا لا أريدك أن تعدني بما يفوق قدراتك.. ما أريده منك أن تحأول.
صمت للحظات أطول كادت فيها تصرخ في وجهه، وجسدها ينتفض طلبا للمخدر، قبل أن يسألها في بطء:
- وما هذه الرسالة؟!
ثبتت عينيها في عينيه قبل أن تقول:
- هي جملة واحدة لا أكثر:
هل آن للصقر الجريح أن يغادر القفص؟ .
هذه هي الرسالة.. ولا مزيد من الطلبات.. وإن كنت أنصحك أن تزور بنفسك القطاع سبعة.. فقط للعلم بالشيء.
أدار الرسالة في رأسه في قلق.. إن عبارتها تحمل ألف معنى، ولا يعرف لماذا صمت.. ولم يخرجه من عاصفة أفكاره إلا صوتها الرقيق الصارم وهي تعد نفسها للمغادرة:
- شيء أخير أود أن أخبرك به..
هز رأسه بمعنى أكملي، فاستطردت قائلة:
- هذا اللقاء لم يحدث.. أنا لم أقابلك وانت لم ترَني.
أشار لها نحو الباب وهو يقول بقلق:

- لقد اختصرتِ مسافات كثيرة بهذه الجملة يا سيدتي، يمكنك الآن الانصراف.
غادرت «ليلى» المكان لا يحدوها أمل كبير.. إن سياسة غسيل المخ التي تتبعها الدولة هي أقرب عائق أمام الثورة لتتجدد.. هي نفسها كانت قد فقدت كل أمل واندمجت في المجتمع الجديد.. تمارس عملها.. تتعاطى «أبوللو».. تعيش على الذكريات..
لا شيء لم يفعله «خالد» لم تقُم هي به، فقط لقاؤها أصدقائها القدامى، وصور الراحلين، ومعرفتها بحقيقة لقاء «خالد» بـ«آدم».. ذلك كله أحيا بداخلها أملا كبيرا، بل وجعلها تفكر في خطة «آدم» الاحتياطية، والرسالة التي تركها لها ولم تجرؤ يوما على الذهاب لانتشالها من موقعها الدفين واستكشاف محتوياتها.
الآن عليها أن تعود لنضالها القديم، وعليها هي أن تزور القطاع سبعة لترى كيف وصلت الأمور بعيدا عن الإعلام الزائف.. ولتُحضر الرسالة.
النصيحة كانت لها قبل أن تكون لـ«خالد».. لا بد أن ترى الظلم الواقع بعينيها.. خمس سنوات لا بد أنها غيرت الكثير بداخلها، وآن لها أن تستعيد «ليلى» القديمة.. ومن هذه اللحظة.. لا «أبوللو» ولا مزيد من الأحلام الزائفة..
وفي عقلها تجسدت صورة القطاع سبعة قبل سنوات، ثم تذكرت جزءا آخر من حوار سابق مع «آدم»..
هي: قضيتنا الآن هي القطاع سبعة.. إنهم لا يجدون الطعام ولا الماء غير الملوث.. إنهم يقتلونهم هناك.
«آدم»: بل قضيتنا أن نجعل كل القطاعات ترى مصيرها في القطاع سبعة.. لا تعتقدي أن أي مكان في هذا البلد يختلف عمَّا يحدث في القطاع سبعة.. من يسرق طعامك ليقتلك كمن يسرق حلمك ليقتل روحك.. في كلتا الحالتين انت تموت.. لكن موت الروح لعنة؛ لأنه بموتها لا ينتهي الأمر.
- قضيتنا وطن لا ينقسم لقطاعات أو فئات.. وطن لا يستخدم المخدر ليعبر لليوم التالي.. قضيتنا أن يعيش الجميع.. حياة تشبه الحياة..

هي: وماذا لو فشلنا؟
«آدم»: عندما ينتهي الأمل بكِ وبالمقأومة في حالة سقوطي أو اختفائي اذهبي لهذا المكان الموجود بالقطاع سبعة الذي توضحه تلك الخريطة الرقمية، وهناك ستجدين رسالتي وستجدين الحل الأخير.
وبعدها، لم يعد هناك كلام يُقال.

لقاء جديد

انتهى الملثم من حرق الجثتين في حأوية خاصة أعدها لمثل هذا الغرض بداخل القبو الفسيح الموجود أسفل فيلته، قبل أن يعمد إلى رمادهما ليضعه بداخل تابوت خاص في حأوية أصغر قامت بضغط الرماد وتكثيفه، ما سيجعل التخلص منها في وقت تالٍ مهمة أيسر.

إن اختفاء الأشخاص يثير عاصفة أقل ضرأوة من وجود جثث ممزقة عُذِّب أصحابها حتى الموت.

الجثث تستفز رجال الأمن وتجعلهم أكثر شراسة، خاصة لو كانت جثث زملائهم؛ فالسرعة التي يقبضون بها على قاتلي رجال الشرطة في هذا الزمن تجعلهم أساطير متحركة على الأرض وتجعلنا ندرك أن الانفلات الأمني القائم مجرد مخطط في خطة طويلة الأمد لتركيع الشعب الثائر.

غادر الملثم القبو بعد أن قام بتنظيفه بمطهرات قوية؛ ليعده لحفلة الليلة، كما يحب أن يطلق عليها.

كان يتنفس بطريقة مزعجة، ورأسه ملتهب من الأفكار.. لم يكن مرتاحا أبدا لما يقوم به.. ضميره يؤنبه طوال الوقت ويستثير بداخله قَسَمه القديم على حماية الوطن ومواطنيه وأرضه.. الحقيقة أن القتل لم يكن جديدا عليه، بل هو فعل معتاد، تدرَّب ليقوم به بدم بارد وباحترافية شديدة..

التعذيب هو الطارئ المخيف الذي يؤرقه.. إنه لم يعتَد على إهانة الروح البشرية بمثل هذه الطريقة العنيفة، والمفزع أنه مستمتع جدا بما يقوم به، وروحه منتشية برؤية الدماء المراقة وصرخات الألم.

بداخله كان موقنا من أن هذين الرجلين يستحقان مصيرهما الأسود الذي

أعده لهما.. فلو انعكست الأدوار لما كانا أقل قسوة.
رجال الأمن ليس من واجبهم الحكم على أحد أو تنفيذ القصاص بهذه الطريقة الباردة البشعة، التي لا تحترم الحقوق أو الإنسانية.. هناك رجال وهيئات ونظام قضائي كامل مختص بالأمر، بعد تحقيقات ومحاكمات ومدأولات.
وجود قانون استثنائي لا يمنحهم هذا الحق أبدا، خاصة أن ما يقومون به موجَّه تماما لصدور إخوانهم في الوطن.
لقد تحوَّلوا لوحوش حقيقية، وهو لن يسمح لهذه الوحوش بالتمادي أكثر.. والوحوش لا تستحق إلا شريعة الغاب.
هو يعلم جيدا أن انتقامه موجَّه كبطشهم، لكنه مضطر، وبعد الانتهاء من مهمته الثأرية سيكون لديه كل الوقت لجعل الأمر أوسع توجها.. ليحارب الظالمين في كل مكان.. صحيح أنها فكرة خيالية عبثية، لكنه يمتلك المهارة والوقت لجعلها في نطاق الواقع، هذا لو لم يسقط في أيديهم قبل انتهاء الأمر؛ فهو ليس بأحمق لينكر مهاراتهم وقدراتهم اللامحدودة التي تمنحها لهم التكنولوجيا والتمويل.
الآن عليه أن يراجع الخطوة الثانية من خطته قبل أن يسمح لجسده بالخلود إلى الراحة؛ فثلاثة أيام بلا نوم ضغط نفسي وعصبي كبير، ناهيك عن الإرهاق البدني.
قلة النوم عامل كبير يؤدي إلى العصبية وفقدان التركيز، حتى لو كان على ضابط سابق في القوات الخاصة تدرب على تحدي الصعاب؛ لذا فإنه عندما غادر القبو نزع ثيابه السوداء وقناعه الذي لم يتخلَّ عنه بعدُ لتظهر ملامحه الوسيمة وجسده القوي ووجهه الذي حمل حزن ألف كهل.
تنفس بعمق في محأولة لاستعادة هدوئه وقتل توتره، ثم جلس أمام حاسوبه التفاعلي بجذع عارٍ يبرز عضلات صدره القوية وجسده الرياضي، قبل أن يقول بصوت صارم:

- القائمة.

وعلى الفور تراصت في فراغ الغرفة أمامه قائمة تحتوي على اثني عشر اسما وبجوار كل منها صورته بالزي الرسمي، لتظهر أن هذه المعلومات تم انتزاعها انتزاعا من أعماق كمبيوتر الأمن ومن ملفاتهم الأمنية مباشرة.. لقد كلفه الأمر الكثير بالفعل، قبل أن يقوم بتجنيد ذلك المدني الذي يعمل في قسم المعلومات بداخل مركز المعلومات الرئيسي الخاص بإدارة الأمن العام نفسها. كانت مجازفة كبرى، لكنه قام بها على كل حال؛ فنزعة الانتقام كانت تسيطر على كيانه بالكامل وعلى جميع مشاعره.. وعلى الرغم من ذلك لم يفقده الغضب والرغبة حذره.

حذف اسمَي القتيلين من القائمة مع جميع المعلومات التي تخصهما، وكأنه يريد أن يحذفهما من سجل الوجود ذاته.. قبل أن يراجع مواعيد دوريات الأمن العام التي أرسلها له جاسوسه ليرى أن الحظ قد خدمه هذه الأيام كثيرا.

أربعة ممن تحتوي القائمة على أسمائهم سيشتركون اليوم في دورية أمنية واحدة، لقد كان يعد نفسه اليوم من أجل واحد أو اثنين منهم مع متابعة خطته الكبرى مع قائدهم.. تلك الخطة التي ستبدأ قريبا جدا.. لكنه فوجئ بأربعتهم في طريقهم.

إنه ليس الحظ إذًا، إنه القدر.. قدرهم الأسود.

لم يستطِع، بالطبع، أن يضع في عقله خطة محددة مع تلك الغشأوة التي أخذت تظلل عينيه فقرر تأجيل الأمر قليلا..

تحامل على نفسه حتى وصل لغرفة نومه، وهناك ألقى بجسده فوق الفراش في قوة قبل أن يغرق في نوم عميق، وبداخل عقله ظهرت صورة «شذى» الحزينة، لينام وعلى وجهه حزن الكون كله.

* * *

عندما تحمل بداخلك إثما أو خطيئة، ولم يمُت قلبك بعدُ، فانت فضيحة تمشي على قدمين؛ فكل خلجة من خلجات وجهك ستعلن الأمر.. وكل فعل من أفعالك سيؤكده.. وستطبق المثل الشعبي الشهير الذي يقول: «يكاد المريب أن يقول خذوني».

وهذه كانت حالة خالد صبري المترنحة طوال اليوم..

فعندما غادرت «ليلى» شقة «خالد» متسللة عبر البناية لتركب سيارة صاروخية كانت متأهبة في انتظارها.. أصاب «خالد» قلق عاصف وأصبح عقله نهبا للأفكار السوداء.. فلم يعُد الأمر مجرد فرصة أو سبق صحفي سيجني من ورائه كومة من الأموال ومجدا شخصيا سيبدل حياته لسنوات مقبلة.. الأمر الآن أصبح أخطر وأكثر مدعاة للقلق.

أصبحت الرسالة كالجبل يجثم على صدره، وأصبحت كل كلمة فيها تلتهمه وتمزقه نفسيا.

لقد وقع «خالد» بهذا اللقاء غير المرتب بين المطرقة والسندان، فإما أن يقوم بإبلاغ «آدم» برسالة «ليلى»، فيكون بذلك قد خان النظام، وبخيانته هذه ربما يشارك في عملية إرهابية قادمة من نوع ما يسقط على أثرها عشرات الضحايا، عملية سترتبط دون شك باسمه واسم «جهاد»..

وإما أن يمتنع وتهدد حياة ابنته، وكلا الخياران مُرٌّ.

الحقيقة أن خيانة النظام لا تعتبر بالنسبة له خيانة، هو لم يؤمن بالنظام كما لم يؤمن يوما بالثورة.. كلاهما مطاط وكلاهما يتبنى العنف كوسيلة لغاية معلنة تعتبر العنف إرهابا.

من واقع عمله كصحفي، فهو يرتاد الغرف السرية ويعرف كواليس الأخبار ويؤمن أن النظام ككل مجرد جزء من منظومة تجارة كبرى تعمل تحت مظلة المصالح.. والمصالح فقط..

إن الشركات العملاقة هي التي تتحكم في مصائر الشعوب عبر التاريخ، وقبلها كان لوبي رجال الأعمال، وقبلهما المنظمات السرية التي توارت معظمها

خلف ستار الدين، وكل شيء آخر مجرد ديكور فقط ليحافظ على شكل الدولة المعروف من أجل قيادة سهلة للعامة والدهماء.

فلو تراجعت يوما أرباح تجارة السلاح كان عليهم أن يبدأوا حربا جديدة في مكان ما من العالم، ولو نقص هامش الربح من دواء ما كان عليهم أن ينشروا وباء جديدا عبر القارات.

إن ملايين الأطنان من القمح التي تُلقى في المحيطات للمحافظة على سعره أحد مشاهد هذه التجارة الدموية، على الرغم من وجود دول يموت المئات من صغارها يوميا لسوء التغذية.

الشركات هي الدول والحكومات والمافيا العالمية..

والقرار دوما ظل لمجالس إدارة هذه الشركات؛ فهي من تقرر أن تشعل هذه الثورة أو تئد أخرى.. إن كل ما يحدث مرتَّب له ضمن خطة عالمية تمتد للقرن المقبل.. فقط كانت هناك بعض الطفرات.. كالثورة المصرية الأخيرة التي فاجأت الجميع، كما فاجأت الشعب نفسه الذي قام بها.

كانت الثورة المفاجئة جرس إنذار عالميا، جعل الشركات والدول الحليفة تعيد تقييم جميع الأوضاع لتخرج بالخطة «ب» لإعادة إحكام الأمور.

الثورة كانت من شعب جُبل على أن يفاجئ نفسه حتى بكونه على قيد الحياة، بل إن له حضارة تمتد لآلاف السنين.

شعب ملخص ما استفاده، من حضارته ودروس التاريخ، الفخر فقط بما مضى والرضوخ لموت الجينات والهمم في الحاضر دون نظرة أمل لغد مقبل..

فالشعوب التي يعتمد أفرادها على بعضهم في القيام بالفعل الصائب، دون حماس ودون إيمان حقيقي، تفقد الحاضر والمستقبل وتظل معلقة في أهداب الماضي الواهن وتموت ثوراتها.

الثورة يجب أن يسبقها نشر الوعي والثقافة.

يجب، قبل الإيمان بها، أن يؤمن الشخص بذاته؛ فإيمان الفرد بذاته هو الثورة الحقيقية، وما يتلوها هو مجرد تحصيل حاصل.

«خالد» لم يؤمن بالنظام ولم يؤمن بالثورة والتغيير، لكنه آمن بأن أمنه مهدد وأمن ابنته، وعلى الرغم من هذا لم يصل لقرار حقيقي.

الوقت يمر وهو مشتت وحائر.

وعندما ذهب «خالد» ليقابل آدم المصري لم يكن قد استقر على قرار بعدُ.. وخلال مراحل الفحص الأمني التي سبقت اللقاء كاد قلبه يتوقف من الخوف، بل كاد يعترف بما يجول بداخل صدره.. وهو يتابع تلك الأشعة المسئولة عن تفحص كامل جسده بحثا غن سلاح أو وسيلة اتصال مخبأة، خشية أن تكشف ذلك السر المخيف الذي يقبع بأعماقه.

قلقه هذا أجبر قائد الأمن على فحصه مرتين، وهو شيء لم يكن تأثيره جيدا على «خالد».

بداخل غرفة اللقاء المؤمَّنة، جلس «خالد» أمام «آدم» صامتا كقبر، مكفهرا وكأنه في جنازة.. وكأنه حضر اللقاء رغما عنه، أو أن هناك من أجبره على الحضور.

من يقارن حماسه في اللقاء الأول بجموده في اللقاء الثاني يؤمن أن شيئا ما بداخل «خالد» قد تغير.

تغير للأسوأ من دون شك.

قرأ «آدم» بعينيه الخبيرتين اللتين تشبهان عيني الصقر ما يعتمل بداخل نفس «خالد» من حيرة، وإن لم يستطع أن يحدد سببها الحقيقي، فهو لا يعرف عن «خالد» أكثر من اسمه ومهنته، وهما شيئان لا يمكن أن يبني عليهما أي وجهة نظر صائبة؛ لذا فإنه ترك المبادرة لـ«خالد» الذي لم ينتظر كثيرا قبل أن يتساءل في تصميم:

- سيد «آدم»، هل لديك تعريف محدد للإيمان؟

نظر «آدم» نحو «خالد» بنظرة متفحصة قبل أن يبتسم ويقول:

- الإيمان بماذا أيها الفتى؟ الإيمان بالخالق، الإيمان بالمبادئ، أم الإيمان بقدرتك على التغيير؟ الإيمان محيط لا قرار له، أي إيمان تقصد؟

ظهرت الحيرة على وجه «خالد»، ربما قد صاغ السؤال بطريقة خاطئة؛ لذا فإنه قرر أن يبدل صيغة السؤال:

- كيف تؤمن بقدرتك على التغيير في ظل معطيات لا توحي بأمل، بل في ظل عدم إيمانك بذاتك؟

تأكد «آدم» بداخله من أن «خالد» يمر بمحنة كبيرة، وهذه المحنة هي سبب سؤاله، وإن كانت قدرته على صياغة السؤال قاصرة؛ لأنه نفسه لا يعرف ماذا يريد؛ لذا فإنه قرر أن يتحدث معه في المطلق:

- الإيمان هو الفعل.. هو كسر حاجز الرتابة والخضوع، أن تتحرك في الاتجاه الذي تؤمن بكونه صادقا، على الرغم من أن نفسك تميل للخضوع أكثر.. الإيمان هو الثورة.

الإيمان هو كسر حاجز الخوف، أن تتقدم حين يحجم الآخرون.

الأديان ثورة، الأخلاق ثورة، الفعل ثورة، وما دونه موت.

ظهرت الحيرة أكثر على وجه «خالد»، لكنه قرر أن يستمع أكثر وأن يجنب مشاعره الذاتية ويركز على اللقاء؛ لذا قرر أن يبدل دفة الحوار:

- كيف جعلت الشباب يؤمنون بك يا سيد «آدم»؟ كيف تحولت من فرد ينتمي إليهم إلى رمز يقدسونه؟

أعاد سؤال «خالد» لـ«آدم» ذكريات كثيرة جعلت لون وجهه يتغير، قبل أن يقول:

- أن تتحول يا «خالد» إلى كل ما يخشونه، أن يخشوك أكثر من النظام ومن القيد ومن ذواتهم أنفسهم، لكن الأمر يحتاج للوقت ويحتاج لأن تستمع للقصة من البداية.

«خالد»:

- كلي آذن مصغية.

أغمض آدم المصري عينيه ثم قال:

- عندما أخبرتك في البداية أني أشبهك لم أكن في الواقع أخدعك أو أبالغ في

وصف الأمر؛ فالبشر الخاضعون في ظل النظم القمعية يتشابهون إلى حد كبير، بل هم نسخ مكررة من بعضهم البعض.. استنساخ غير طبي حدث للجموع، نتجت عنه مجموعة من القطعان المستأنسة، التي ترضى دائما بما يلقَى لها من فُتات طالما لم يهدد استقرارها أو حياتها الروتينية التي جُبلت عليها أنفسهم.

لم يكن آدم المصري مختلفا عنك وعن الجميع، مجرد شخص آخر يحيا كما يحيا الملايين في ظل نظام قمعي بغيض، شخص قد آثر السلامة وقرر أن يعيش في الظل.

أن يمارس مهنته كمدرس للتاريخ الزائف الذي يكتبه المنتصرون دائما، ليحشوا رؤوس الصغار بما أراده الطغاة وما سطروه في كتبهم الزائفة.

التاريخ كله عبارة عن سلسلة دموية من الحروب والفخر بها.. تتخللها بعض الأحداث التافهة الأخرى لحَبْكِ الأمر.

التاريخ لا يعرف بك.. ولا يعترف بوجودك كفرد.. التاريخ لا ينظر لك إلا عندما تتحرك في إطار الجموع.. ووجودك وسطهم هو ما يجعل لك قيمة في هذا التوقيت، وغير ذلك انت نكرة، ما لم تكن على رأس النظام، أو يتحرك النظام في ظل أفكارك كالماركسية أو الشوفونية أو العنصرية.

آدم المصري مجرد مدرس شاب، مواطن صالح كما صوَّر له خضوعه، يعمل في إطار المنظومة المرسومة، تجهده الأحلام والسعي نحو لقمة العيش، في زمن من يمرض فيه لا يجد غذاء اليوم التالي.

آدم المصري يحشو عقلك وعقول الصغار بالدماء في إطار أخلاقي زائف يسمى التاريخ، أن يهيئك ويهيئهم للرضوخ للأقوى والأعنف والأكثر سيطرة تحت قائمة هائلة من المسميات، ناسيا أو متناسيا القيم الحقيقية التي قام عليها العالم: الحب والخير والجمال والعدل.

انت نفسك تمارس الزيف دون هوادة؛ لأن المجتمع قد قرر لك أن هذا هو الصحيح، فتضع عقلك ومشاعرك في الثلاجة، انت تتحرك فقط عندما تفقد

بعض تلك المميزات والمقومات التي سمح لك المجتمع بالحصول عليها.
انت المواطن الصالح المبرمج الذي أرادوه أن تكونه فكُنْتَه.
فقط عندما تعارضت مصالحك مع النظام الذي لا يسمح بأي تجأوز، يبدأ عقلك المجمد في أداء وظيفته الحقيقية.. ويبدأ يفكر.
التفكير يا صديقي هو الإيمان الحقيقي.. هو منحة الخالق الحقيقية.. هو ما ميَّزك عن العالمين.
فمن دون التفكير انت مجرد حيوان آخر شهواني يتبع القوانين الوضعية والأعراف التي عفى عليها الزمن.
وكي تبدأ سلسلة التغيير عليك أن تبدأ بنفسك، ثم عليك أن تعيد كتابة التاريخ.. ولتعيدَ كتابة التاريخ عليك أن تصنع تاريخا جديدا، ولتصنع تاريخا جديدا عليك أن تؤمن بالقيم الحقيقية، ومن أجل القيم الحقيقية عليك أن تعيد هدم المجتمع بالكامل، والهدم يبدأ بالفوضى.
الفوضى هي التي تصنع الحراك وتمنح الطاقة للإعصار المقبل..
دار رأس «خالد» بعنف واحتدمت برأسه عشرات الأسئلة قبل أن يقول:
- وكيف تصنع الفوضى النظام؟ إن كلامك كله يناقض نفسه، الإيمان بالقيم الحقيقية يعني الخضوع للنظام وليس معاداته أو هدمه.
هزَّ «آدم» رأسه في عتاب، وكأنه لم يتوقع من «خالد» هذا القصور الفكري قبل أن يقول:
- هذه هي النظرة القاصرة للأمر، الإيمان بالقيم الحقيقية معناها أن تصنع انت النظام الحقيقي.. النظام الطبيعي الذي أرسى قواعده الخالق، لا أن تؤمن بنظام صُنع عبر التاريخ من أجل سيطرة البعض على البعض بما يدعم مصالحهم..
«اليوتوبيا» هي المجتمع الصالح الذي يسأوي بين الجميع، وتتوزع فيه الثروات والأحلام بالمقدار نفسه.. ولتصنع مجتمعا جديدا لا بد من هدم القديم.. لا يمكن أن تبني صرحا شامخا على أساس متهأوٍ ثم تنتظر نتيجة

مبهرة..
انت فقط في هذه اللحظة تصنع قنبلة موقوتة.
بدا على «خالد» الحيرة، وهو يقول:
- الحقيقة يا سيد «آدم»، أنا لا أستطيع استيعاب هذه الأمور المتشابكة كلها، لا أريد مواعظ أو حكما أو تلاعبا بالألفاظ.. أحتاج لأحداث.. أرني فقط كيف بدأ الأمر.
صمت «آدم» للحظات وظهر على وجهه ما يبدو صراعا داخليا وكأنه يعاني سيلا متدفقا من الذكريات قبل أن يقول:
- إذًا لتنصت يا «خالد».. ولتعلم شيئا واحدا فقط: أن القناعات المسبقة تجعل استيعاب الحقيقة شيئا صعبا.

القطاع سبعة

عندما ناقشت «ليلى» خيارها مع بعض أفراد التنظيم، لاقى قرارها استنكارا كبيرا من الجميع، إنهم على أعتاب مرحلة مهمة جدا من تاريخ تنظيمهم السري، لا يمكن السماح خلالها بأي تجأوز، إن لديهم فرصة هائلة للتواصل مع الرمز.. مع الأسطورة.. مع آدم المصري.

إن الوصول لآدم المصري يعني تفعيل الخطة الاحتياطية التي أدت سلسلة الاغتيالات - التي تمت للصف الأول من التنظيم عند فشل الثورة - إلى إجهاضها، والتي تشمل خطة تحريره مهما كان السجن الذي حُبس فيه، وذهاب «ليلى» للقطاع السابع قد يجهض تلك الفرصة، خاصة أن القطاع السابع قد تغير تماما ولم يعد كما كان.

لكن «ليلى» لم تكن لتحيد عن رأيها بأي حال من الأحوال، كانت تريد أن تنفذ نصيحة «آدم».. تريد أن تستعيد روحها القديمة.. لا تلك الروح التي هشَّمها المخدر.. الناس الحقيقيون هناك.. الأحلام الحقيقية هناك.. هناك سترى ما يعيد لها إيمانها.. لقد أخبرها أن الحل الحقيقي هناك ومنحها الخريطة.

وفي النهاية، ومع إصرارها ومكانتها التي يعرفها الجميع عند قائدهم، قرروا أنها لن تذهب دون حماية، وكان هذا هو القول الفصل، وما خجلت أن تطلبه منهم في البداية؛ لذا فهاهي تعبر أنفاق الصرف الصحي القديمة، التي يظهر من تراكم المخلفات البشرية والروائح القاتلة بداخلها أنها ما زالت مستعملة بطريقة أو أخرى.

الرائحة كانت شنيعة وتكاد تتغلب على منقي الهواء الموجود بداخل أنف «ليلى» وأنوف الرجال الثلاثة المدججين بالسلاح الذين يصحبونها في رحلتها

نحو المجهول.
الطريق طويل، لا بد من قطع عدة كيلومترات أسفل المدينة سيرا على الأقدام وسط مستنقعات القذارة قبل الدخول لمنطقة العزل، من أجل تجنب المرور بكمائن التفتيش المعتادة وتعنت رجال أمن النظام.
الأجهزة الحديثة التي يحملها الرجال في حقائبهم الضخمة تجعلهم يتغلبون على الألغام والفخاخ الإلكترونية القاتلة التي زرعها النظام في زمن سابق، بعد أن تحولت أنفاق الصرف في فترة الصراع السابقة إلى بؤر هجومية عنيفة.
لم يكن المكان بهيجا بأي حال من الأحوال.. ولولا نظارات الرؤية الليلية التي حرصوا على ارتدائها لتحول المكان لفخ قاتل.
وبعيدا عن فضلات البشر العضوية والجدران التي تكسوها الفطريات.. كانت هناك مجموعة متنوعة من الهياكل العظمية المهشمة والمسحوقة.. تدل على مصائر من حأولوا العبور من قبل.
فئران ضخمة مهاجمة تصعقها أسلحة الرجال الذين بدا من تحركاتهم كونهم جنودا سابقين أو أنهم يخضعون لنظام تدريب قاسٍ.
شعاع الليزر المنطلق من جهاز تحديد المواقع يقودهم على الطريق؛ فلا أمل في ضياعهم وسط هذه المتاهة من الأنفاق.
الوقت يمضي، ومعه يفترش الطريق نحو القطاع سبعة جثث الجرذان وكائنات أخرى متحورة، لا بد أنها تشعر بالجوع هي الأخرى.
الحدث الوحيد ذو القيمة، الذي يمكن ذكره، ذلك البشري العاري ذو الوجه المتآكل، الذي هاجم أحد الرجال والذي صرعه على الفور بسيفه الليزري ليشطره نصفين.
كان يبدو من هيئته وهجومه البائس أنه يتضور جوعا، وإن كانت طريقته لا تخلو من الجنون.
هذا الحدث أصاب «ليلى» بالكدر والحزن وجعلها تعنف الشخص الذي قام بالأمر في حدة، صارخة فيه ألا يعامل البشر كالفئران.

كانت لحظات عصيبة، لكنها مرت على كل حال.
بعد ساعة أخرى وصلوا إلى فتحه رأسية تقودهم إلى أعلى عن طريق سلم معدني اختبره أحد الرجال فوجده ما زال صالحا على الرغم من الصدأ الذي يغلفه.
وعن طريق أداة تجسس حديثة فحص المكان حول فتحة الصرف، وعندما تأكد من خلوه من البشر أو الخطر بدأ اثنان منهم في العمل على رفع غطائها الثقيل عن طريق رافعة هيدروليكية مخصصة لهذا الغرض.
كان من الواضح أنهم درسوا الأمر واستعدوا له جيدا، ولم يتركوا شيئا للظروف، وعندما خرجت «ليلى» من فتحة الصرف أصابتها صدمة عنيفة جدا.. لم تتوقع أن يكون الأمر قد وصل خلال خمس سنوات لهذا السوء.. لم تتوقع المشهد أبدا.
صحيح أن القطاع سبعة عُزل عن الدولة قبل سنوات من قيام الثورة، لكنه كان يموج بالحياة حينها.. كان يحتوي على بعض ملامح الحضارة..
المكان تحوَّل الآن لحفرة صرف عملاقة.. أكوام القمامة في كل مكان وعوادم الاحتراق تصنع سحبا ضبابية كثيفة، ولا أثر لأحياء في دائرة نصف قطرها مائة متر.
وقف شعر جسدها كله وهي تتطلع للأطلال في ذعر، وإلى بقايا القطاع السابع..
هل حقا كان هنا يسكن من بدأوا الثورة ذات يوم؟ هل هذا مصيرهم لأنهم آمنوا ذات يوم بفكرة الحرية؟
أي أمل جاءت تبحث عنه هنا؟
هناك موت لا يفوح منه عطن الجثث.. ولا يتبقى منه رفات.. إنه موت الروح.. وهذا الموت يسكن بداخل كل منا بدرجات مختلفة..
هنا تشم رائحة الموت المعتقة.. رائحة الحزن.. رائحة خيبة الأمل.
القطاع سبعة هو مقبرة الأرواح.

الظلام هو الشيء الرئيسي الملاحَظ في القطاع سبعة.. الكهرباء الآتية من محطة الكهرباء الهزيلة التي تعمل بالفحم والوقود العضوي مجرد ضيف خفيف كان قبل سنوات لا يجلس أكثر من ثلاث ساعات في اليوم الواحد.. الآن لم يعد له أثر.

لم يعد القطاع سبعة إلا حفرة مظلمة، لا يسكنها إلا الخوف.

توغلت «ليلى» بداخل شوارع القطاع المظلمة لعدة مئات من الأمتار، والرجال يصنعون من حولها دائرة أمنية متكاملة، إنهم يحرسون قلب الزعيم.. قلب آدم المصري.. وسيبيدون القطاع سبعة وقاطنيه لو تجرأوا على مجرد الإساءة لها.

الطريق موحل، والفئران تمرح في كل مكان بطريقة تفزعها.. ولولا خجلها من أن تظهر بمظهر غير لائق أمام الرجال المصاحبين لها، لصرخت عدة مرات عند مرور فأر بجوارها أو ملامسته لقدميها..

قطعت الطريق وقلبها يخفق في عنف، وعلى البعد بدأت تظهر دلائل وجود حياة بشرية على هذا الكوكب المهجور.

برد الليل هنا أسطوري يجمد الأنفاس نفسها؛ لذا تشاهد على البعد المئات من حلقات النيران المنتشرة في كل مكان، وحولها يلتف قاطنو القطاع سبعة في أسمالهم البالية.. كأشباح ليلية مخيفة.

في هذا المكان القفر.. لا ترى دوريات الأمن، ولا المولات الكبيرة، ولا أي شيء يوحي بملامح حضارة قائمة.

انت هنا في أرض اللاشيء.

لو اقتربت قليلا من المنازل المصنوعة من الحجر القديم، التي تتخللها أكواخ خشبية كثيرة لهالتك الرائحة، الرائحة التي تفوقت على رائحة أنفاق الصرف وهزمت منقي الهواء.

إنهم هنا لا يعرفون معنى كلمة نظافة.. الماء شحيح حقا، لكنه ليس كل أدوات النظافة.. إنها رائحة تعفن الجنس البشري نفسه.

كيف يمكن أن تفقد البشرية قرونا من الحضارة خلال سنوات محدودة؟!
رائحة الحشيش تفوح بشدة في الأجواء.. هناك تأوهات مختلطة توحي بحفلة للجنس الجماعي تقام في العلن.. لا يبدو أن الأخلاق والآداب العامة لها نصيب هنا في حياة هؤلاء المعزولين..
ومن مشاهدتها القليلة وجدت «ليلى» أن الحياة هنا تنقسم لعدة أقسام: الحصول على الطعام.. الحصول على المخدر العضوي.. ممارسة الجنس.. ولا شيء أكثر، وكأن قاطني القطاع سبعة يعيشون على هامش الحضارة..
من كان يعتقد أن هذه حالة القطاع قبل عدة سنوات؟
إن نظرية التكيف تثبت مكانتها هنا بقوة..
فلو ألقيت الكائن البشري في بالوعة صرف لعاش وتكاثر وأنشأ هناك مستعمرة جديدة..
فقط يحتاج الأمر لمزيد من الاعتياد.
في الحالات الطبيعية.. البشر يقومون بأفعال مخيفة عندما يكونون وحدهم ويتأكدون من أنه لا أحد هنا ليراقبهم.. ربما خوفا من آراء الآخرين أو حياءً أو خوفا من العقاب..
هنا في القطاع سبعة لا معنى للحياء أو رأي الآخرين.. انت هنا تفعل ما تشاء وقت ما تشاء.. لن تخشى أحدا أو تلتفت لأحد.
انت لا أحد، فلماذا يأبه بك أحد؟
فهنا يعيشون على هامش الإنسانية، وحين تنتفي إنسانيتك فكل شيء آخر لا يهم.
الغريب أن دُور العبادة هنا ما زالت موجودة، لكن لا يبدو أن أحدا يرتادها، لا بد أن الأشباح سكنتها منذ وقت طويل.
إن ممارسة الشعائر الدينية مؤشر مهم جدا على احتفاظ البشر بإنسانيتهم، وهجرهم لها يدل على فقدانهم لأرواحهم ذاتها، وكأن فقدان الهدف في الحياة قبل الموت جعلهم لا يتطلعون لمصير أفضل بعد الموت.. إنهم

ملعونون وكفى.
والعجيب أنه لم يتوارَ كل شيء..
ما زالت هناك بقايا من كل شيء، وكأن المكان متحف حفري قديم لبقايا حضارة بشرية موغلة في القدم..
ولكن متى كانت البقايا صالحة لصنع حياة حقيقية؟
الحقيقة أن القطاع سبعة بحالته المتدهورة قد دمرها نفسيا، لكنها لم تكن لتتراجع عن إتمام رحلتها، وقبل أن تتحرك مع الرجال شددت عليهم أن يكونوا أكثر مبالاة بالأرواح..
وكانت عبارتها الصارمة واضحة وغير قابلة للتأويل:
- الطلقات التحذيرية تكفي، وإن لم يكن هناك مفر، فليطلقوا النار على أماكن غير قاتلة.. لقد جاءوا لزيارة القطاع في مهمة محدودة، وليس لإشعار حرب جديدة.. يكفي القطاع ما به من مآسٍ.
لم يعجب الأمر الرجال بالطبع، لكنهم انصاعوا صاغرين له.
اخترقت «ليلى» والرجال أحد الشوارع الجانبية المظلمة، الأسلحة المشرعة جعلت كل من يمر به يلزم مكانه دون حركة، إلا أنها بدأت تشعر بالقلق عندما خرجت للميدان الفسيح الخالي، الذي يطل عليه مبنى حكومي قديم؛ يظهر من تلك الدشم المتناثرة حوله أنه مكان ذو أهمية، أو كان ذا أهمية في وقت ما..
تلك الثقوب الغائرة في جسد المبنى دلت على نشوب معركة قديمة في المكان، معركة كانت من القوة لتترك هذه التشوهات بقلب الجدران.
تقدموا أكثر ليعبروا صينية الميدان، عندما أحاط بهم الرجال المدججون بالأسلحة البدائية والمشاعل من كل جانب.
وعندما همَّ رجالها بردعهم أشارت لهم بعدم الاشتباك وظلت الأسلحة مشهورة وفوهاتها تنتظر ضغط الزناد ليظهر ملك الموت في المكان.

إعاقة

عندما نظر «خالد» لـ«آدم» وجد على وجهه ملامح تصميم عميق، وبدا كأن روحه قد تحررت وغاصت في أعماق الماضي، قبل أن يريح رأسه إلى حافة المقعد المجهز الذي يكبل حركته، ليتحدث بصوت يموج بالمرارة:

- ما لا يعرفه معظم الناس عني أنه كان لي شقيق أكبر قعيد كان مصابا بشلل نصفي أعجزه عن الحركة.. لكنه لم يعجزه عن التفكير وإدراك الأمور..

نعم يا «خالد» لا تنظر إليَّ بهذه النظرة المندهشة، فأنا في النهاية إنسان مثلك خُلقت من أبوين وكان لي شقيق.. إنني لم أُخلق من العدم.. الرموز لديهم حياتهم الخاصة وأحلامهم وإحباطاتهم.. لا تنظر إليَّ هكذا.. فالحياة نفسها مخلوقة بأمر الخالق القدير.

المهم يا «خالد» أن هذا الأخ العزيز قد مات منذ سنوات بسبب الإهمال الطبي في أحد المستشفيات الحكومية.. وكانت هذه مأساة عميقة لي، خاصة أنه قد سبقه موت الأبوين على فترات متقاربة.. وكان لهذا الأخ فضل كبير في ما وصلت إليه.. هو من فتح لي خزانة الحكمة وأطلق منها ما تشرَّبه عقلي وبدل كياني.. فلم يتوقف شقيقي القعيد يوما عن مدِّي بالأفكار بل خلاصتها، على الرغم من آلامه التي لم تنقطع نتيجة العلاج الخاطئ الذي كان يتنأوله عبر سنوات عمره.

كنت أشفق عليه، لدرجة أني تمنيت له الموت أكثر من مرة كي يستريح، لكن الأقدار كانت ترسم كل شيء، فهذه الثورة المباركة خرجت من بين شفتيه.

كان دائم الحديث عن الثورة وعن التغير، وكنت أعارضه وأذكر له مصير الثورات عبر التاريخ من واقع كوني أستاذا للتاريخ، ما بين فشلها وسرقتها

وتمييعها وعدم تحقيقها لأهدافها، لكنه آمن بأن الوقت الحالي كان وقت الثورة.. وكان يقول:

- الحياة دورة هائلة تبدأ بالبعث وتنتهي به.. والثورة كذلك شعلة لا تنطفئ، لكنها قد تخبو قليلا فيعتقد الطغاة أنهم هزموها.. ليحتفلوا طوال الوقت على رمادها المستعر.

صحيح أنه لم يلحق بها بسبب إهمال طبي عوقب عليه الطبيب بالنقل، لكنه هو من غيَّرني ومن منحني تلك الجذوة المشتعلة.

كان يقول:

- إن الثورة الماضية كانت شعلة ونحن نعيش في أيام الرماد التي تليها، الأيام التي تخفي بداخلها ألف شعلة من حرية وأمل وحلم.

كان يخبرني أن أثق في ذاتي.. عشرات الثورات عبر العالم بدأها شخص واحد آمن بحقه في عالم أفضل، وكانت كلمته الأثيرة:

- ثق بغريزتك، ولحظتها ستغير الكون بالكامل، وتصنع التاريخ الذي تستحقه والذي يستحقه وطنك المحتل من بعض أبنائه.

ووثقت في غريزتي.. ووثق بي الشباب.. وعندما كنت أخبره عن التضحيات المحتملة كان يمنحني حكمته المقطرة:

- لا شيء ستكتسبه دون تضحية.. التضحية هي أصل العطاء والإيمان.

كان «آدم» يتحدث بطريقة مؤثرة تفطر القلوب؛ فذكرى أخيه كانت تمزقه، وفشله في تحقيق أمنيات أخيه كان يقتله، بينما كان «خالد» يسبح في دوامة من الأفكار، يسترجع حديثا سابقا لوالديه يشبه حديث «آدم».. يسترجع لمحات من تاريخهما ونضالهما، كان يعصر عقله ليهضم هذه الأفكار.

كان يفكر في شقيق «آدم» المعاق الذي لم توقفه إعاقته عن الحلم وعن بث أحلامه بداخل أخيه وبداخل جيل كامل ظل ينتظر الشعلة، لتضرم ناره، جالبا تعريفا جديدا للإعاقة، هو الاستسلام.

وعلى الرغم من ذلك كان سؤال واحد يدور في عقله:

- كيف بدأ الأمر؟!

وعلى الفور ألقى السؤال على «آدم» الذي صمت لفترة طويلة، وكأن نفسه تنازعه، قبل أن يأتي رده الصادم لأذني «خالد»، وهو يضغط زر استدعاء الحراس الملحق بالمقعد المعدني:

- في اللقاء المقبل يا «خالد».. وتذكر أن تقلع عن التدخين.. لا تجعل عادة قميئة كهذه تسيطر عليك، إنها تفسد صحتك وأسنانك، وتجعلك تبدو أكبر سنا وأكثر بؤسا.

وفي هذه اللحظة لم يدرك «خالد» ما يقول، وخرجت منه الجملة عفوية:

- ألم يأنِ للصقر الجريح أن يغادر القفص؟

انتفض آدم المصري في مقعده المجهز الذي احتوى انتفاضته، وقبل أن يدخل الحراس لإعادته لزنزانته، أعاد جملته الأخيرة بالهدوء نفسه، وكأن المشاعر التي غشيت جسده منذ لحظات لم يكن لها أي تأثير عليه:

- في اللقاء المقبل يا «خالد».. ولا تنسَ نصيحتي.. الإقلاع عن التدخين قد يبدل في شخصيتك الكثير.

وعندما غادر «آدم» المكان ظل جسد «خالد» ينتفض، وكأنه قام لتوه بارتكاب جريمة بشعة، ولا يملك أمامها إلا ذهاب روحه.

الجزء الثالث
الرسالة

القنبلة

كانوا عشرة من الرجال والنساء، وجوه شاحبة.. أجساد ممصوصة.. وعيون غائرة.. يظهر على وجوههم البؤس أكثر من كونهم مجرد تهديد محتمل، كما تهتز في أيديهم تلك الأسلحة البدائية التي لا تتجأوز العصي والمُدَى وبعض فروع الشجر التي تم شحذ أطرافها لتظهر كالحراب.

أسلحة بائسة ومقاتلون أكثر بؤسا وكأننا عُدنا لعصور ما قبل الحضارة.

دقيقة كاملة مرت والتحفز يطل من العيون كلها..

رجال الحراسة الثلاثة متحفزون لأقصى مدى، ولو عطس أحد هؤلاء المتجمهرين لسحقته الأشعة، ولحوَّلته لجوال من الجلد البشري المتفحم بلا عظمة واحدة.

الغريب أن «ليلى» لم تشعر نحوهم بالخوف.. بل اغتالتها مشاعر الشفقة، وعلى الفور أمرت الرجال بخلع حقائبهم وإفراغ ما بداخلها من أطعمة محفوظة ليظهر التردد على بعض الوجوه المهاجمة قبل أن ينقضوا جميعا عليها في لهفة ويشتبكوا مع بعضهم للحصول على وليمة أكبر، لينسوا في لحظات وجود «ليلى» والمسلحين الثلاثة الذين انطلقوا ليغادروا المكان ليعبروا الشارع قبل أن يقطعوا شارعا جانبيا آخر أفضى بهم إلى مكتبة قديمة مهدمة الجوانب، وإن ظلت تحتفظ ببعض المجلدات والكتب العتيقة على سبيل الذكرى، بعد أن تحولت في فترة من الفترات إلى مكتبة رقمية كاملة، تعتمد على الأجهزة اللوحية والكتب الإلكترونية دون غيرها.

كانت المكتبة تعامَل كمبنى أثري، بالإضافة لكونها مكتبة؛ لذا فإن حجمها كان ضخما جدا، قبل أن تصير في فترة ما مأوى للمشردين وتفقد أي ميزة لها.

كان مشهد الكتب والمجلدات الأثرية المزقة والمتجعدة بفعل الرطوبة

والإهمال يثير بداخلها الوحشة والألم وسط هذا المكان المظلم.
تخطت «ليلى» عتبة الباب المهشم وقلبها المرهق يخفق في قوة.. لا يمكن أن تجد ما تبحث عنه في هذا المكان.. لا يمكن أن تظل رسالة حقيقية محفوظة عبر هذه الفوضى..
وكل ما لديها من معلومات هو اسم كتاب قديم.. «آلة الزمن» لـ«هربرت جورج ويلز».
لم تكن ممن يهوون الكتب أو القراءة بصفة عامة، إنها تهيم عشقا بالمواد المسموعة والمرئية.. لكنها مجبرة على القراءة الآن.
لقد أخبرها «آدم» أنه عندما يهن عزمها وعزم رجاله وتتعقد الأمور، عليها أن تزور هذا المكان، عليها أن تستعيد هذا الكتاب تحديدا، عليها أن ترى محتواه.
لماذا أخبرها أن ترى محتواه ولا تقرأه؟
لا بد أن الكتاب يحتوي بداخله على رسالة ما.. لقد رأت المئات من الأفلام القديمة التي كانوا يفرغون فيها قلب الكتاب الورقي من الداخل ليكون مقرا للمسدس أو الحلي المسروقة أو الرسالة التي تقود إلى الكنز.
تفرق الرجال للبحث عن غايتها، وقاموا بإطلاق بعض المصابيح المتوهجة المضادة للجاذبية لتنير المكان، وإن بقي أحدهم بالقرب منها يبحث عن الكتاب المنشود وعيناه كصقر لا تفارقانها ولا تتوقف عن مسح المكان.
عشر دقائق..
عشرون دقيقة..
ساعة..
ساعة ونصف الساعة..
وفي النهاية عثر أحد الرجال على الكتاب مدفونا في أحد الأركان القصية وقد غمره الركام والأتربة..
نفض عنه التراب ونأوله لـ«ليلى» التي انتفض جسدها عندما لامسته يدها..

فهذا الكتاب - على الرغم من حالته المزرية - يحمل عبق «آدم» ولمساته، وربما عرقه أيضا.. هذا الكتاب امتداد لوجود «آدم» في حياتها.

استخدمت «ليلى» فرشاة خاصة بطلاء وجهها، استخرجتها من حقيبتها، لتنظيفه بعناية قبل أن تفتح الكتاب، وبالفعل كان هناك ما أراد لها «آدم» أن تحصل عليه بعد رحلتها المجهدة، والذي كان ينتظرها عبر السنوات.. مفتاح إلكتروني يعمل عن بُعد.. يشبه إلى حد ما ريموت السيارة، وبداخله دائرة تعريفية ضوئية، تفاعلت مع لمستها على الرغم من مرور السنوات.

المفتاح كان في يدها لا يزن أكثر من عشرة جرامات، لكنه في هذه اللحظة كان يزن أكثر من كوكب ميت يجثم فوق صدر الكون.

لم تنتظر أكثر لتجتاحها الذكريات؛ فالمكان خطر بالفعل، وقد بدأ الضيق والتبرم يظهران على وجوه الرجال.. لقد تحملوا معها الكثير بالفعل.

ضغطت دائرة تشغيل المفتاح بقوة لتشعر بالوخزة، ويبدأ المفتاح في التعرف عليها من بصمتها الجينية.

وعندما تألق المفتاح الإلكتروني مستجيبا لما يوجد بداخل ذاكرته الإلكترونية، تصاعد من البعد جلبة، وكأن هناك من يحأول تشغيل رافعة هيدروليكية أصاب الصدأ تروسها منذ زمن، أو يحأول شق عمود خشبي بعتلة معدنية في عنف.

تحفز الجميع لما يحدث من تغيرات، قبل أن يهتز المكان لتتناثر الأتربة وبقايا الطلاء في كل مكان.

ومن قلب الأرض خرج ضياء باهر أضاء الظلام بشدة، ليتضاءل بجواره ضوء المصابيح المضادة للجاذبية، قبل أن يخرج من باطن الأرض صندوق معدني لامع لا يتعدى وزنه عشرة كيلوجرامات، وقد رُسمت على ظهره علامة مُشع الشهيرة..

قطعت «ليلى» المسافة الفاصلة عن الصندوق عدوا، عندما وصلت إليه مع الرجال وقفت تتطلع نحو الصندوق بقلب هلع، قبل أن تتراجع للخلف عدة

خطوات، وهي تردد في غير وعي:
- يا إلهي.. إن قصة القنبلة حقيقية إذًا.. ولم تكن خرافة نشرها «آدم» في إطار حربه النفسية مع النظام..
إن «آدم» يحوز الحل الحقيقي في النهاية..
لماذا إذًا لم يستخدمه عندما شعر بقرب الهزيمة؟
لماذا تراجع في اللحظة الأخيرة؟ لماذا؟!
لماذا تركهم يلقون القبض عليه ويجهضون عمل سنوات من الكفاح والصراع؟
تألقت عيون الرجال في قوة وهم يأكلون الصندوق بعيونهم المتحفزة، قبل أن يتلاشى الضياء المبهر ليبقى الظلام والخوف وضوء المصابيح المضادة للجاذبية الذي أخذ في الخفوت.

* * *

قبل سبع سنوات
الاجتماع السنوي لهيئة التدريس بجامعة القاهرة المركزية بأحد الفنادق الفاخرة المطلة على النيل، الذي يحرص الجميع على حضوره كتقليد سنوي مقدس، يتبادلون فيه التهاني بانتهاء عام دراسي آخر، وليتبادلوا أطروحاتهم العلمية وآخر أبحاثهم.
وبداخل شرفة هائلة الحجم تغص بنباتات متسلقة متنوعة ومقاعد مثبتة بالجدران قابلة للطي، تحيط بها قبة زجاجية شديدة النقاء لمنع الهواء الخارجي الملوث من الدخول ومضايقة الجالسين، جلس أستاذ التاريخ المقارن آدم المصري مع العالم محدود الشهرة سمير رضوان يتبادلان حوارا هامسا.
لم يكن آدم المصري من هيئة التدريس بالجامعة، لكنه كان الصديق المقرب من سمير رضوان.
وكانت البروتوكولات لا تمنع من اصطحاب بعض المرافقين على ألا يحضروا المراسم الرسمية لاختيار أستاذ العام.

وبعيدا عن هذا الجو المشحون بالمناقشات والقهقهات والملامح الرسمية الخالية من الدفء والود. جلس الاثنان يتنأولان بعض العصائر المنشطة، وعيونهما معلقة بصفحة النيل البهيجة..

الغريب أن الغضب كان ظاهرا على وجه سمير رضوان على الرغم من الجو الاحتفالي المحيط به، وبدا وكأن آدم المصري يحأول التخفيف عنه واحتواء غضبه، لكن يبدو أن «آدم» قد اختار العبارة الخاطئة ليتفاقم الأمر قبل أن يقول:

- صدقني يا «سمير».. لا يجب على أحد أن يصنع شيئا لا يمكن السيطرة عليه، وربما هذا ما دار في عقولهم عند دراسة أوراق المشروع.

تضاعف الغضب على ملامح وجه «سمير» قبل أن يقول:

- هل تصدق نفسك حقا يا «آدم»، أم تحأول التخفيف عني بطريقة سخيفة؟ كيف يكون من يقوم على تقييم الابتكارات العلمية مجرد موظف روتيني لم يخُض في يوم من الأيام تجربة علمية واحدة بطريقة عملية؟ إنهم بهذا يستخفون بنا.. إن رفض مركز براءات الاختراعات تلك التقنية الجديدة التي عكفت على تطويرها طوال السنوات الخمس الماضية دون إبداء أسباب حماقة كبيرة.

صمت للحظات تغيرت فيها ملامح وجهه عدة مرات، كان يشعر بغضب عارم أعجزه للحظة عن الحديث قبل أن يستطرد:

- أي غباء هذا الذي يدفعهم لرفض تقنية مماثلة العالم كله في أمس الحاجة إليها بعد تفاقم مشكلات الطاقة؟!

ضغط «آدم» على يديه مواسيا قبل أن يقول:

- إنها المشكلة الأساسية.. ميزانية البحث العلمي وتلك الأمور المالية المعقدة التي تبعث على الإحباط.

توترت أعصاب العالم سمير رضوان وهو يقبض بقوة على الكأس الكريستالية التي انتهى نصف محتواها، قبل أن يقول بغضب شديد:

- صدقني يا «آدم».. إن الرفض لا يعني النهاية؛ لأن سوق المعلومات السوداء مشرعة على دفتيها، فقط عليَّ أن أحسن اختياري لمن يقوم بتنفيذ المشروع، إن هذه التقنية ستتكلف في البداية مئات الملايين من الوحدات النقدية الجديدة، لكن العائد سيكون خرافيا.

مكثف الطاقة النظيفة، الذي لا يتجأوز حجمه حقيبة السفر، يعتمد على سحق المادة وتحرير الطاقة منها، طاقة هائلة تكفي لتشغيل مصنع حديد وصلب لخمسة أعوام كاملة، وللسيارة حتى ينتهي عمرها الافتراضي، سيمنح سفن الفضاء الوقود المناسب لاكتشاف الفضاء، وسيكون البديل الأمثل عن محطات توليد الكهرباء الحالية.. إن هذه التقنية تعني بداية عصر جديد من التطور، فكيف يرفضونها بهذه البساطة؟

غمغم «آدم» في ضيق، وهو يقول:

- ربما لأنها تقنية لا يمكن أن تتحول إلى سلاح.

وضع «سمير» الكأس الكريستالية فوق المنضدة الصغيرة بعدم حرص، قبل أن يقول بحذر وهو يمسح المكان ببصره:

- مَن الأحمق الذي أخبرك أنه لا يمكن تحويلها لسلاح؟ الكارثة الكبرى أنه يمكن تحويلها لسلاح شديد الخطورة بمجرد صنع زناد قادح من البلوتنيوم، سلاح قادر على تدمير كل ملامح الحضارة الحديثة، عن طريق تلك الموجات التي ستعمل على تدمير ذاكرة كل أجهزة الكمبيوتر الموجودة في نطاق تأثيرها بل وقد يمتد تأثيرها إلى الأقمار الصناعية، هذا غير إيقاف كل محطات الطاقة الكهربية والنووية والمصانع الحديثة، وستؤثر بعد ذلك على ذاكرة الأحياء، بل سيشبه تأثيرها تأثير موجات جاما الرهيبة، لقد درست الأمر جيدا؛ لذلك أصر على أن من يمتلك هذه الطاقة يكون أكثر حكمة وتعقلا.

شهق «آدم» في قوة، قبل أن يقول في دهشة:

- هل الأمر بهذه البساطة؟ إنك تمنح البشرية كارثة محققة، إن بعض الأسرار يجب أن تظل مستغلقة ولا يعرف بها العالم!

ظهر الأسى والضيق على وجه سمير رضوان قبل أن يقول:
- الأمر ليس بالبساطة التي تتوقعها، لكن مقارنته بتكاليف وتكنولوجيا صناعة الأسلحة المماثلة تجعله تكنولوجيا متاحة كصناعة المصابيح الموفرة.
قالها ثم تلفت حوله قبل أن يقول:
- هل تعلم أنه بإمكاناتي المعملية ومع تمويل محدود أستطيع صنع سلاح خارق نظيف قادر على محو مدن كاملة من فوق خارطة الحضارة في لحظات وتتلاشى آثاره خلال عدة أسابيع، لكني بالطبع لن أجرؤ على فعل هذا الأمر. وأسقط في يد «آدم»؛ فالعالم الآن يحتاج لمصدر طاقة جديدة بعد أن أشرف الوقود العضوي على النفاد.. لكنه ليس بحاجة إلى مأساة سلاح جديد.
لم يستطع «آدم» أن يخبر صديقه برأيه في حالته هذه؛ لأن التكنولوجيا بعد الإعلان عنها لن يستطيع أحد كبح جماحها.. لقد فسد لقاؤه بصديقه تماما. لكنه لم يكن اللقاء الأخير.

* * *

الزمان: الثانية صباحا.
المكان: الطريق الخامس، القطاع ثلاثة.
يعد القطاع ثلاثة من أهم قطاعات الدولة، وكان يحتل قديما تلك المساحة التي تحتلها مدينتا «الشروق» الحالية و«مدينتي».. ففيه تقطن فئة الأثرياء الجديدة التي نشأت بعد حربنا المحدودة مع إسرائيل في بدايات القرن الثاني والعشرين، التي عملت الجهود الدولية على إيقافها بعد أن كادت تطيح بالمنطقة بعد دعمها لإثيوبيا في حرب المياه الأخيرة.
لقد تبدلت المدينتان تماما، واصطبغتا بعد قرن من الزمان بصبغة حديثة جدا.
المباني أصبحت هائلة الحجم، شديدة الارتفاع، مغطاة بالألومنيوم وألياف الكربون شديدة القوة، في تطابق جعلها تفقد لمستها البشرية، وكأننا في

أحد تلك العوالم المستقبلية التي سيطرت فيها الآلات على مصائر البشر، والخارجة من كتابات أزيموف أو ريتشارد ماثيون الكلاسيكية؛ فالشوارع تمت إعادة تخطيطها لتكون أكثر انتظاما، مادة الرصف الجديدة جعلتها أكثر نعومة.. أعمدة الإنارة التي تعمل بخلايا الطاقة الشمسية المحسنة تنتظم على مساحات متسأوية، المتاجر الذاتية التي تعتمد على الذكاء الصناعي والروبوت دون البشر، كوكب الآلة كما يطلق عليه في الصحافة المرئية.

وفي الشارع التاسع عشر، انطلقت سيارة الدورية المدرعة تقطع الطريق بسرعة متوسطة، ورادارها المتطور لا يتوقف عن مسح المكان طوال الوقت، كعيني صقر باحثا عن مخالف للحظر، أو لص قاده حظه السيئ ليقع في أيديهم.

وبداخل الحديقة الكبيرة التي تحتل ناصية الشارع الغربية، كان الملثم يجثم هناك بملابسه السوداء شديدة المرونة، يتابع مسار سيارة الدورية باهتمام شديد، تخفيه عن العيون شجرة صنوبر عملاقة.

كان ينتظر تلك اللحظة التي سيملون فيها قطع الطريق قبل أن يتوقفوا لإحراق بعض لفافات التبغ.

الملل حياة كل من يعملون عملا روتينيا لا يتغير، وهذا ما يراهن عليه الملثم لإتمام مهمته شديدة الخطورة.. فاصطياد رجال الأمن خارج السيارة المجهزة شديدة التأمين أكثر سهولة من داخلها وسيقلل الخسائر من جهة الطرفين.

بإمكانه نسف السيارة عن بُعد في لحظات لينتهي الأمر بأقل الخسائر، لكن هذا ليس هدفه من كمونه في هذا المكان المظلم.. الانتقام هو ما يريده؛ لذا فإنه حريص على اقتناصهم أحياء.. لا يمكن أن يكون رحيما بهؤلاء الوحوش، فيمنحهم هدية الموت السهل، فحتى الموت لن ينالوه إلا بعد أن يدفعوا حسابهم كاملا.

أكملت سيارة الدورية دورة كاملة أخرى، قبل أن تتوقف تماما على جانب أحد الطرق الخالية تحت أحد أعمدة الإنارة المتوهجة في هدوء لينزاح باباها

الجانبيان إلى الأعلى في نعومة.. فيخرج منها ثلاثة من رجال الأمن المدججين بالسلاح، بأزيائهم الجديدة المزودة بدروع الكيفلار الحديثة، وقد أشعل كل منهم سيجارة متضخمة لا تبدو بريئة أبدا، وأخذوا في تبادل النكات والمزاح بطريقة مبتذلة.

أغلق قائد السيارة الأبواب ليعطيهم فسحة للاتكاء على جانبي السيارة، قبل أن يفتح الزجاج المضاد للرصاص والإشعاع الخاص بالنافذة المجأورة له، ليشاركهم المرح المفتعل.

لقد مرت عدة أشهر لم يقابلهم فيها حدث ذو قيمة يبدد ملل الليل السخيف، ناهيك عن فتاة الليل تلك التي خرجت إلى الشارع قبل عدة أسابيع منتشية، دون أن تدرك أن موعد حظر التجول قد بدأ بالفعل، لتسقط في أيديهم غنيمة سهلة، ليعتدوا عليها جنسيا جميعا دون رحمة، ودون أن تقوى على مقأومتهم بسبب تأثير المخدر، ليتركوها بعد أن حوَّلوها لنفاية بشرية عارية لا يسترها شيء في إحدى الحدائق العامة المعدلة وراثيا، والتي تعمل على تنقية الهواء، لتنهشها الفئران والحيوانات المتحورة.

المأساة أن الفتاة على الرغم من كل ما واجهته وحدث لها، وفقدانها لأطرافها الأربعة، ما زالت على قيد الحياة، تعيش كشبح تعيس لا تعرف مهاجميها ولا تقوى على البحث والانتقام..

والحقيقة أنهم لم ينسوها بعدُ، على الرغم من أن أحدهم لم يبالِ يوما بمعرفة مصيرها ولو على سبيل الفضول، وفي هذه الأمسية المملة كانت نكاتهم البذيئة تتمحور حولها.

لم يكن الملثم يستمع لحوارهم الصاخب أو ما يتبادلونه بينهم من نكات جنسية بذيئة، لكن مجرد مرحهم غير المبالي بشيء جعله يزداد غضبا، فقام على الفور بإخراج إحدى القاذفات الحديثة من حقيبته، قبل أن يختار من حزامه قذيفة ذات نهاية حمراء، ألقمها للقاذفة قبل أن يطلقها نحوهم في قوة.

انطلقت القذيفة نحو رجال الشرطة الغافلين دون صوت ليفاجئهم صرير ارتطامها بجدار العربة المصفحة، قبل أن تتدحرج في بطء لترصدها أعينهم الهلعة، ولتؤكد عقولهم المضطربة أنهم تحت الهجوم.

ثلاث ثوانٍ فقط مرت قبل أن يتصاعد من مقدمة القذيفة دخان كثيف أعمى العيون وعبَّق الصدور، متجأوزا منقيات الهواء التي تعمل كبديل عن الأقنعة الواقية من الغازات عن طريق ذراته شديدة الدقة المصممة لتجأوز هذه العقبات البدائية.. لقد أعد الملثم العدة لكل التوقعات.. حتى اختياره للقذيفة كان مدروسا ومخططا له بعناية.

وفي اللحظة التالية، بدأ الرجال الثلاثة الموجودون خارج السيارة المدرعة يتساقطون واحدا تلو الآخر فاقدين للوعي، في حين أغلق الرابع زجاج السيارة بسرعة ليحمي نفسه من تأثير الغاز المخدر.

كانت خطوة ذكية جدا من الرابع؛ فالعربة مجهزة بمنقيات هواء أكثر قوة لن يخترقها دخان القذيفة، ولأنه لا يمكن أن يشتبك مع السيارة دون قيامه بلفت الأنظار، ودون حرب حقيقية، خاصة بعد أن هبطت دروعها المزدوجة لتحولها لخزانة مغلقة.

لذا فإن الملثم لم يمنح قائد السيارة الفرصة ليفكر أو يبدأ هجوما مضادا.. ودون لحظة تأخير ألقم القاذف بقذيفة جديدة خارقة للدروع ذات نهاية مدببة هشَّمت الزجاج على الفور قبل أن تستقر في جانب رأسه الأيسر لتطيح بجزء من مخه وعظامه، ليسقط فاقد الحياة في مشهد بشع، دون أن يجد فرصة واحدة للصراخ أو الألم.

شعر الملثم بعدها بالغضب لأنه فقد أحد طرائده، لكن هذا لم يوقفه لحظة واحدة عن استكمال عمله، فتطلع حوله في سرعة ليمسح المكان ببصره قبل أن ينتزع من حزامه قنبلة موقوتة شديدة التدمير، ليلصقها بجانب المدرعة.

ليجر بعدها أجساد الرجال الثلاثة الثقيلة إلى سيارته القابعة في مكان قريب، لينطلق بهم وخلفه دوى الانفجار المروع ليهز أرجاء الشارع التاسع عشر

بالكامل.
ولينطلق هو نحو فيلته ليتم مرحلة جديدة في انتقامه.
وعلى البعد دوت سرينة سيارات الشرطة المدرعة التي جاءت لاستجلاء الأمر، لكن الوقت كان قد فات؛ فقد تلاشت سيارة الملثم وسط ظلام الليل.

الماضي

في الخامسة مساءً، انتهى «خالد» من مقاله الجديد عن سباقات الموت، قبل أن يرسله مع بعض مقاطع الفيديو الهولوجرامية وبعض الصور عالية الوضوح إلى بريد صحيفة الميثاق الإلكتروني بطريقة آلية، فذهنه المكدود كان مشغولا بالكثير من الأفكار المتضاربة.

وسباقات الموت هذه هي نوع من الرياضات العنيفة غير القانونية، التي انتشرت هذه الأيام كالنار في الهشيم؛ حيث يتقاتل عبرها الشباب بواسطة سيارات مجهزة بأسلحة محدودة وعن طريق شبكة رهانات خاصة يتم التصويت من خلالها للرابحين، ولأن الأمر غير قانوني فإن التجأوزات واردة وهذا يقابله المنظمون بحزم شديد ولديهم وسائلهم في العقاب.

يحأول المنظمون طوال الوقت ألا تتسلط الأضواء الرسمية والحكومية على عملهم غير الشرعي كي لا تتوقف نافورة الأموال التي لا ينقطع عطاؤها، لكن للأسف يبدو أن الأمور في السباق الأخير قد خرجت من بين أيديهم لسبب ما، ونتج عن آخرها حادث مروِّع هز الرأي العام، ونتج عنه عشرات الضحايا، فلم تتركه قناة مرئية أو مسموعة إلا وأدلت بدلوها فيه، ولم يترك «خالد» الفرصة تمر دون أن يستغلها.. وعلى الرغم من حالة «خالد» المتردية، فإن مقاله كان مثيرا وطرح الكثير من وجهات النظر المختلفة، على الرغم من أنه كتبه بنصف تركيز أو اهتمام، إنها الكتابة عندما تتحول إلى رد فعل لا إرادي.

كان «خالد» يشعر بتوتر شديد ومزدوج؛ فعليه أن يذهب بعد عدة ساعات للقاء جهاد رشيد في أحد الفنادق، وفي الوقت نفسه كان عليه أن يفكر في تأثير تلك الرسالة التي قام بحماقته بتوصيلها لـ«آدم» من دون أن يضع في حسبانه خطورة الأمر وأن اللقاء قد يكون خاضعا للمراقبة..

بل هو بالتأكيد خاضع لها..
كان متأثرا جدا بأفكار «آدم» إلى حد كبير، بل كانت تسيطر عليه تماما في هذه اللحظة، وتفتح له نافذة أخرى على عالم لم يجرؤ يوما على ولوجه.
إن الإقناع موهبة حقيقية يحوزها بعض الأفراد، لكن ما يملكه منها «آدم» شيء مختلف، وكأن حوله هالة تسيطر على مشاعر وأفكار من يحدثه وتعيد برمجتها.
إن لديه قدرة هائلة على السيطرة أكثر منها قدرة على الإقناع.
إنها موهبة من عند الخالق.. موهبة مخيفة.. وتأثير هذه الموهبة قد بدأ يظهر عليه.. إن بداخله أشياء كثيرة تتغير، ووجهات نظر تتبدل، وهذا التغير لا يبهجه على الإطلاق.
ما له وللثورة والثوار وتجأوزات الشرطة ورجال الأمن؟! لقد شاهد منذ ليلة أمس محتوى رقميا امتد لساعات طويلة جعله يشعر بأنه يعيش في كوكب آخر، وجعله ينظر لنفسه باحتقار شديد.
أي حياة هذه التي يعيشها؟ وأي عبث هذا الذي يقوم به؟
فعلى الرغم من كونه صحفيا فإنه يعيش بعيدا عن نطاق الوطن ومآسيه وما يعصف به من أحداث.
إنه لا يختلف كثيرا عن حزب الموتى، هؤلاء الخاملين الخاضعين الذين لا يرون أبعد مما يوجد تحت أقدامهم.. من لا يرون الوطن إلا في ذواتهم الخربة.
الخطر الداهم الذي طالما أفسد كل تحرك ثوري، القاعدة الشعبية التي لا تخرج إلا عندما تتهدد أرزاقهم واستقرارهم، التي تم استدعاؤها على مر التاريخ لإفساد الثورات..
لذا فالمقولة الشائعة: «يمكنك توظيف نصف الفقراء لقتل النصف الآخر» ما زالت صالحة لكل مكان وزمان.
ساعات أخرى قطعها «خالد» وجسده ينتفض من الانفعال، في مشاهدة تلك المحفوظات الرقمية السرية على موقع جريدته التي كان لديه تصريح أمني

خاص بالوصول إليها؛ فالأمور في جريدته ليست معقدة كما تعتقدون..
وهذا المحتوى الرقمي الذي يتم عزله طوال الوقت ولا يتم رفعه على موقع الجريدة، يتم الاحتفاظ به تحسبا لدورة الأيام وتبدل المواقف، وبالطبع لا تظهر أبدا هذه المحفوظات للعامة إلا بأمر مباشر من الأمن العام.
مستويات رهيبة من القمع عاصرها وتجاهلها تمت لشباب حالم كل همه الوطن ولا شيء غير الوطن، متبنيا وجهة نظر النظام.
أين كان وعيه وإدراكه؟ أين كان من نصائح والديه؟ أين موقفه الحقيقي من موتهما على أيدي رجال النظام؟
وفي النهاية شعر بأن عقله سينفجر، وجسده يطلب «أبوللو» في قوة.. كان يحأول الامتناع عن التدخين، وهذا كان يمزق وعيه تماما.
وفي النهاية استعان بأحد مشروبات الطاقة، لكنه لم يستطع منع نفسه من إشعال سيجارة تمنى بينه وبين نفسه أن تكون الأخيرة.
التغير فعل ثوري هائل يسحق الروح والنفس، وهو لا يمكن أن يتغير في ليلة وضحاها.. لا يمكن أن يترك هذه الأفكار لتسيطر عليه.. إن آدم المصري هذا شيطان زنيم.
نظر حوله فوجد أن الليل قد بدأ يرخي سدوله، وأنه لو تمادى أكثر فيما يشاهده أو يفكر فيه سيتأخر كثيرا عن موعده مع «جهاد».
وقبل أن يتحرك من مكانه دوت تلك النبضات التي تنبئه بقدوم بريد إلكتروني جديد.. لم يشعر بحاجة ليتطلع إلى محتواه، لكنه فتحه على أي حال ليصيبه انزعاج شديد.
لقد تسرب أمر «آدم»، ولم يعد طي الكتمان كما كان يرجو، وها هو عرض مالي من إحدى الصحف الإلكترونية واسعة الانتشار بمبلغ يحمل السبعة أصفار من أجل نشر مقالاته الصحفية عن آدم المصري.
لا يعرف لماذا لم يشعر بتلك السعادة المتوقعة وهو يعيد إغلاق البريد الإلكتروني!

إنه لم يحدد بعد تلك الصحيفة الإلكترونية التي سينشر معها مقالاته، ولن يُتعب رأسه بالتفكير الآن.

عليه أن يفكر في «جهاد» وأنوثتها ولقائها المرتقب.. كم أوحشته تلك العنيد.

نظر في المرآة ثم هز رأسه في قنوط.

إنه لم يتبدل كثيرا كما كان يعتقد.. إنها تلك الإرادة الواهنة التي تتحكم في كل تصرفاته.

أعد نفسه للقاء «جهاد» كعريس في ليلة عرسه، ولم ينسَ أن يتناول تلك الحبة التي تعمل عمل العوازل الطبية؛ لأنه لا يحب استخدام تلك العوازل المطاطة السخيفة، إنه يريد أن يكون على طبيعته تماما مع «جهاد»، تماما كالأيام الخوالي.

هو يعرف جيدا مزاج «جهاد»، ويعرف كيف يسيطر عليها ويمنحها تلك البهجة والنشوة اللتين تبحث عنهما وتفتقدهما في زواجها الخالي من المشاعر.

إنهما لن يلتقيا من أجل اجترار بعض الذكريات القديمة، إنهما يريدان استعادة إحساس معين، فقداه في دياجير الماضي وزحف الزمن الذي لا يتوقف.

إن «جهاد» نقطة ضعفه الحقيقية، وكي يتغير من ناحيتها، يحتاج أن يموت قبلها عدة مرات، ليهيئ نفسه على الفقد.

انتقى «خالد» بعض الملابس المريحة ليرتديها؛ فهو ذاهب لموعد غرامي وليس لقاءً رسميا، ثم حمل معه صندوقا مغلقا يحتوي بعض الأدوات التي يتطلبها الأمر، والتي وصلته أمس من أحد تلك المواقع المتخصصة في المتعة، وحمل معه زجاجة فودكا لم تُفتح بعدُ وبعض الزهور.

إنها امرأته، ويعرف جيدا ما تفضل.

استقل سيارته العتيقة ثم انطلق بها نحو الفندق المنشود.

ركن السيارة بداخل الجراج، قبل أن يستقل المصعد الداخلي للفندق الذي صعد به بسرعة مضاعفة نحو الطابق الثاني عشر، بعد أن أدخل شفرة الغرفة التي تقطنها «جهاد» عن طريق الهاتف.

لم يعد يتم استخدام البطاقات الممغنطة القديمة، كل شيء يعتمد الآن على الشفرات الرقمية، وفي حالة عدم وجودها معك لن تستطيع الوصول إلا لطابق الاستقبال، ولن تصعد للغرفة المطلوبة قبل أن يوافق قاطنها على صعودك، ليمنحك موظف الاستقبال شفرة مؤقتة للزيارة.

غادر المصعد الأنيق المغطى سطحه بمرايا فائقة الجودة، استخدمها في التأكد من هندامه، ثم توقف أمام باب الغرفة ليدخل الشفرة مجددا.

وعندما فتح الباب، كانت جهاد رشيد هناك ترتدي له زيا جلديا مثيرا يُظهر مفاتنها..

إن علاقتهما ورغباتهما لا تحتاج لتمهيد أو لتلك القواعد البروتوكولية العتيقة.. إنهما عاشقان متلهفان وكفى.

وبعد أن وضع ما يحمله في يده من أشياء، فاجأته «جهاد» بقبلة طويلة حملت معها كل مشاعرها وتوتراتها.

دامت القبلة لدقائق قبل أن يغلق باب الغرفة، ويمطرها بوابل من القبلات الحارة المتنوعة.

وبعد أن أفرغ كل منهما أشواقه على شفاه الآخر تنأولا كأسين من الفودكا من دون ثلج كما اعتادا، وكل منهما يتأمل الآخر في شبق ورغبة.

وبكل دلال تنشقت «جهاد» عبير الزهور الذي ضمَّخها «خالد» بعطره المفضل، قبل أن تفتح الصندوق الذي يحمله، لتخرج محتوياته، وعندما شاهدت ذلك السوط الجلدي الذي ينتهي بتلك القطع الجلدية القصيرة ارتجف جسدها في رغبة، قبل أن تنقض على «خالد» كنمرة متوحشة.

اختطاف

ذهبت «ليلى» إلى القطاع سبعة بحلم وعادت بمأساة.
هذا هو ما كان يدور في عقلها وهي في طريق عودتها لأحد المنازل الآمنة الموجودة بالقرب من أطلال القطاع سبعة..
لقد تأخرت كثيرا في طريق العودة، ولا مجال لكسر حظر التجول، خاصة مع تلك الكارثة المروِّعة الموجودة بحوزتها والرجال المدججين بالسلاح الذين يصحبونها والمستعدين لصنع مجزرة حقيقية لحمايتها من السقوط في أيدي رجال أمن النظام.
صحيح أنها لم تتجول في القطاع بما يكفي؛ لأن مهمتها كانت تنتهي عند أطراف حدوده الخارجية، لكن ما رأته كان كافيا لتدرك كيف هي حالة المناطق شديدة الازدحام.
لقد ماتت هناك ألف مرة، وتموت الآن آلافا.
صدمتُها كانت مزدوجة: حالة القطاع المتردية، وتلك الكارثة التي أطلق عليها «آدم» في أحد حواراتهما كلمة الحل الأخير.
أي حل أخير كان يقصده؟ إنها لم توافق يوما على سُنة العنف أو الاغتيالات التي انتهجها أحد أفرع المقاومة الميدانية المنفصلة عن هيكل التنظيم قبل السقوط الكبير، التي يدرك الجميع أنها هي من أضفت الدموية على تحركات المقاومة العامة، ومنحت النظام الفرصة لاستعمال البطش والقوة المفرطة مع الجميع.
فليست كل النوايا الحسنة ذات نتائج طيبة.. هذا لو اعتبرنا القتل سُنة حسنة.

إن ما تؤمن هي به أن الحرب والموت لا بد أن يكونا موجَّهين ضد عدو خارجي لا يعرف الرحمة، لا ضد أبناء الوطن مهما كان جورهم أو ظلمهم.
فالعدو لن يمنح لك فرصة لتعيد ترتيب أفكاره وتقنعه بمبادئك؛ لأنه لا يرغب بوجودك على قيد الحياة من الأساس، أما الفرصة مع أبناء وطنك وبني جلدتك فمتاحة دائما، مهما عكَّر صفوها تلك الأفكار المتطرفة المغرقة في الجهل والمرتدية زي الدين أو الوطنية عن بهتان.
الشيء الوحيد والمؤكد أن اختراق تنظيمهم تم قبل وقت طويل من سقوط الجميع؛ لذا فشلت ثورتهم.
والسؤال هنا: كيف استطاع «آدم» أن يجعل الموت أحد خياراته؟!
الموت مشيئة الخالق في الكون، لا مشيئة بشر..
مَن مِن حقه أن يمنح نفسه مشيئة الخالق، فيحدد من يموت ومن لا يموت؟
إن الأمر يزعزعها من الداخل.
هل كان «آدم» حقا بالقسوة والدموية اللتين يصفه بهما النظام؟
هل قام عشقها له بتحييدها فلم ترَ حقيقته؟
أين الحقيقة في الأمر إذًا؟
إن الغموض قاتل، والجهل قنبلة موقوتة.
وما يحرقها من الداخل أنها قد تتحمل أي شيء إلا أن تكون قد خُدعت في «آدم»، أو أن قلبها أعماها عن رؤية حقيقته.
فالمنطق يقول إنك لا تحوز سلاحا إلا بغرض استخدامه، فمتى كان ينوي «آدم» استخدام هذا السلاح ضد الجميع؟
نعم ضد الجميع!
فلن تختار هذه القنبلة الظالمين وتترك المظلومين.. الموت سيكون مصير الجميع.
نفضت الأفكار والذكريات غير البهيجة عن عقلها، وعادت لتفكر في معضلتها الجديدة وهي تمسح دمعة ساخنة فرت من عينها رغما عنها.

لقد اهتزت قناعاتها تماما برؤية القنبلة..
فأن تذهب لتستعيد روحها وذكريات جمعتها بـ«آدم» فتعود بقنبلة شديدة التدمير قادرة على إفناء دولة بكاملها، هذا شيء مخيف ومروِّع..
متى كان الدمار والموت هما طريق البحث عن الحرية؟
إنها كانت ذاهبة للقطاع سبعة لتحصل على رسالة خاصة.. رسالة حب.
رسالة يبثها فيها «آدم» أشواقه ويحثها فيها على المقاومة السلمية من أجله..
رسالة تأخرت في تسلمها لأنها كانت على أمل أن تسمعها من بين شفتيه، بعد تحرره.
لقد كانت تحلم بقصيدة شعر، بمقطوعة موسيقية عشقاها معًا.. بقنبلة من المشاعر لا قنبلة من المواد المنشطرة.
لو كان الأمر بيدها لدفنت القنبلة في مكانها ولنسيت أمرها إلى الأبد، لكن الخبر قد طار منذ اللحظات الأولى إلى القيادة الجديدة للتنظيم، لم يعد الأمر سرا.
المخيف أن وجود القنبلة قد يبدل أفكار واتجاهات التنظيم بالكامل، إن امتلاك القوة يجلب معه الكثير من الأفكار المتطرفة.. والتنظيم حاليا واقع تحت سيطرة قادة يتخذون العنف طريقا وخيارا..
الخطر كبير ورهيب، ووصول معلومة مماثلة للنظام سيجعله يعيد عصر محاكم التفتيش، إن الإعدام في الطرقات لم يعد شيئا غريبا بعد تشريع قانون الطوارئ الجديد.. وسيكون القتل العشوائي إحدى وسائل النظام لتعقب القنبلة.
لذا يعمل الجميع في حذر..
فماذا لو فقدوا حذرهم؟!
دهمتها آلاف الأفكار، ولم يقطعها مجددا إلا صوت الدراجات النارية التي تنطلق على وسائد هوائية، والتي تمر أسفل نافذتها، وتتسبب في اهتزاز زجاج النافذة، إن دوريات الأمن العام لا تتوقف لحظة عن مسح هذه المنطقة.

إن النظام نفسه يعتقد أن القطاع سبعة ما زال يحمل له الخطر، على الرغم من أن القطاع سبعة قد انتهى تماما أو هكذا تظن.
إن ما شاهدته اليوم من بؤس وفقر أثبت لها أن أي طريق غير السلمية لن يجلب معه إلا المزيد من الدمار والموت.
أخذت تتطلع إلى القنبلة الرابضة أمامها في صندوقها وهي تفكر..
عشرة كيلوجرامات من الموت الخام المركز، وليمة حقيقية لملك الموت.
لقد حضرت جنازات كثيرة ولا تريد أن تحظى بالمزيد، وبداخلها بدأت تتكون فكرة مخيفة..
فكرة ستقلب جميع الأمور رأسا على عقب..

* * *

بداخل المركز الترفيهي العالمي بقلب العاصمة، انطلقت ضحكات «فرح» - ابنة خالد صبري - تملأ المكان من حولها، وهي تقفز بداخل الغرفة المضادة للجاذبية مع بعض أقرانها في مرح وبهجة، كانت تفضل جدا هذه اللعبة التي تمنحها ذلك الإحساس الرائع بالحرية والانطلاق وهي تسبح بداخل الغرفة كملاك جميل لا تأبه ولا تتوقع أن هناك عيونا تترصدها غير عيني والدتها «ريناد».
لكن هذه العيون المخيفة كانت تترصدها وهي تتابعها عبر مسارات لا ترصدها كاميرات أمن المكان.
كانوا يتحينون الفرصة التي ستغيب فيها عن عيني والدتها التي تبدو كالصقر لإتمام مهمتهم الكريهة.
لقد كانت «فرح» قرة عين أمها؛ فبعيدا عن زواجها الفاشل من «خالد» إلا أنها تعتبر «فرح» هي الحسنة الوحيدة في هذا الزواج.. وعلى الرغم من أن عملها يلتهم جُل وقتها فإن يوم خروج «فرح» الأسبوعي مقدس.. إنها لا ترى السعادة إلا عندما ترتسم على وجه ابنتها.

انتهت «فرح» من الغرفة المضادة للجاذبية.. لقد لعبت هذه اللعبة ثلاث مرات متتالية قبل أن يقل حماسها تجاهها، وعلى الفور انطلقت لتعدو نحو اللعبة التالية، وكما توقعت أمها فإنها توجهت نحو لعبة القطار المائي، لعبتها المفضلة التالية بعد غرفة الجاذبية.

كانت «ريناد» تعرف أن مدة هذه اللعبة عشر دقائق، وقررت أن تستغلها في الحصول على مشروب منعش يعوِّضها افتقادها التدخين، الممنوع نهائيا داخل المكان.

أوصت العامل المختص باللعبة بالحرص على «فرح» لحين عودتها، فلم يعترض.

إنها ما زالت تشعر بالإرهاق.. ستذهب للمقهى الآلي للحصول على بعض الكافيين، قدح هائل من القهوة، وربما قطعة من الكيك من سينابون.

توجهت إلى المقهى دون أن تلاحظ أيا من هذه العيون المترصدة، التي ترصدها وترصد «فرح» في انتظار اللحظة المناسبة.

غابت في آخر الرواق، فبدأت تلك العيون تركز على «فرح» التي انطلق بها الطوف الذي يتحرك على وسادة هوائية، لتعبر عدة شلالات ومنزلقات مائية، وكم كانت سعادتها مضاعفة عندما ابتل وجهها وملابسها بالماء المتناثر حولها.

أخذت «فرح» تصفق وتصرخ تلك الصرخات المبهجة، حتى انتهت الدقائق العشر، وبدأ الطوف يقلل من سرعته مقتربا من المرسى الصغير الموجود بالقرب من باب الخروج.

وفور أن خرجت من المرسى احتجزها العامل بالقرب منه، وعيناه تمسحان المكان بحثا عن والدتها التي أخبرته أنها لن تتأخر.

وعندما اقترب منه ذلك الشخص الذي همس بأذنيه بأنه والد «فرح»، منحه الطفلة ليتخلص من عبئها الكبير، وتبعته «فرح» في براءة عندما أخبرها أنه سيأخذها لوالدتها، وعيناها معلقتان ببالون الهيليوم الذي يمسكه في يده،

والذي يمثل إحدى شخصياتها الكرتونية المفضلة لديها..
وفي أحد الجوانب القصية، كانت تنتظره سيدة أخرى بعربة أطفال حديثة، فقاما بتخدير «فرح» ووضعها في عربة الأطفال قبل أن تخفيها تحت بطانية قماشية داكنة.
وانطلقت السيدة من طريق وذهب الشخص الغامض من طريق آخر بعد أن أتم مهمته.
وبعد خمس دقائق عادت الأم، التي شق صراخها المكان بعد اختفاء طفلتها.

* * *

وبداخل أحد الأماكن السرية، استقبل أحد الأطباء جسد «فرح» في اهتمام كبير، قبل أن يقوم بحقنها بأحد السوائل الشفافة، التي أدخلتها في غيبوبة صناعية خاصة طويلة الأمد، وبعدها قام بإلباسها إحدى الخوذات المعدنية المتصلة بأحد الحواسيب الطبية التي تشبه خوذات الألعاب إلى حد كبير، قبل أن يُفعل برنامج وهم صناعي متطورا أُعد خصيصا من أجلها، ليغادر المكان بعدها، لتنطفئ خلفه الأضواء آليا.
ليتركها وحيدة في ظلام وصمت تامين لا يقطعهما إلا هسيس الأجهزة التي تملأ الغرفة.

السجن المركزي

بداخل السجن المركزي، وفي غرفة خاصة تغصُّ بأجهزة حديثة مختلفة، جلس الطبيب النفسي المقيم مع مدير السجن المركزي، ومعهما بعض المساعدين الذين يعملون على تفريغ جلسة اللقاء الأخيرة بين «خالد» وآدم المصري، وقد ظهر على وجوه الجميع الاهتمام وهم يتابعون ذلك العرض المجسم للمقابلة، وقد تركز العرض على تلك الجملة التي ألقاها «خالد» وكأنها جملة عفوية، ورد فعل «آدم» اللحظي العنيف عليها.

- هل آن للصقر الجريح أن يغادر القفص؟

رددها قائد السجن قبل أن يوجه حديثه للطبيب النفسي قائلا:

- ترى ماذا تعني هذه العبارة الخبيثة؟ هل يعدون خطة ما لإخراج ذلك المجرم الزنيم؟

تراجع الطبيب النفسي الأشيب في مكانه قبل أن يقول:

- لا أستبعد أن تكون هناك خطة ما يتم إعدادها لتحرير آدم المصري، لكني لا أميل للفرضية، خاصة مع قوة تحصينات السجن المركزي، أعتقد أنها مجرد جملة لبثِّ أمل زائف بداخل آدم المصري، نوع من العبارات المطاطة التي تخبر «آدم» أنهم هنا ولم ينسوه ويعملون على تحريره.

اجتاح قائد الأمن الغضب قبل أن يقول:

- يقتحمون سجني أنا؟ على جثتي لو تم الأمر.. أهون عليَّ أن أقوم بنسف السجن بمن فيه على أن يذكر التاريخ الأمني أن آدم المصري قد فرَّ من قبضتي.. هيهات أن يحدث الأمر، ليس في عهدي.. أبدا لن يتم الأمر.. إنني لم أرتَح لذلك الصحفي الحقير منذ أن رأيته أول مرة.

قالها وهو يضرب سطح المنضدة المعدنية التي يجلسون عليها بقبضته، ليبادره الطبيب النفسي قائلا:

- لا أعتقد أن الأمر قد يصل إلى هذه المرحلة، وإن كنت لا أقلل من خطورته، فمن مراجعتي للجلسات المسجلة السابقة، أستطيع أن أجزم أن هناك اتصالا ما تم مع ذلك الصحفي، قبل هذه الجلسة تحديدا، وهذا ما جعله متوترا غير مستريح، وأجبركم على فحصه مرتين.

اشتعلت عينا قائد السجن في غضب، قبل أن يقول بصرامة:

- إلى ماذا يقود حوارك هذا؟

صمت الطبيب النفسي للحظات شحنت جو الغرفة بالتوتر قبل أن يقول:

- لو تتبعت معي المسارات النفسية لـ«خالد» من أول جلسة للاحظت ما أخبرتك به.. في البدء كان مستريحا جدا ولا يبدو أن عليه أي ضغوط أكثر من تلك الرهبة التي تصنعها مثل هذه اللقاءات، خاصة عندما يكون اللقاء مع شخصية أسطورية كآدم المصري.

الجلسة الثانية توضح أنه كان واقعا تحت ضغوط نفسية خاصة، ربما ضغوط العمل أو شيء من هذا القبيل.

هذه الجلسة كان من الواضح أنه واقع تحت تأثير تهديد معين يفوق تحمله، هذا بالإضافة لتلك الضغوط التي يمارسها «آدم» عليه ليعيد تشكيل شخصيته من أجل هدف ما لا يعرفه إلا هو؛ مثل التحدث معه عن شخصيته الضعيفة وربطها بالواقع العام، وأيضا حثه على تبديل ثيابه والإقلاع عن التدخين.

الخلاصة أن «خالد» حينما قدم للمرة الأولى لم يكن يحمل بداخله إلا حرصه على إتمام اللقاء، والحصول على سبقه الصحفي، الآن هناك من يضغط عليه وربما يهدده، وهذا تقرير رسمي مني.

ظهر غضب مشتعل في عيني قائد السجن قبل أن يقول:

- هل انت على استعداد لمنحي هذا التقرير الآن؟

هز الطبيب النفسي رأسه في لا مبالاة قبل أن يقول:

- اعتبر التقرير قد أُعدَّ بالفعل، بضع دقائق وتحصل عليه.
ساد الصمت المتوتر بينهما للحظات قبل أن يقول قائد السجن:
- إذًا هل نلغي ذلك التصريح لذلك الصحفي الحقير أم...
قاطعه الطبيب النفسي قبل أن يقول:
- عذرا يا سيدي، ستكون خطوة بالغة الحماقة من ناحيتين، الأولى: أنها فرصة جيدة لدراسة كيف تحول آدم المصري لرمز ودراسة أساليبه في السيطرة على الشباب، والثانية: أن الأمر قد يقودنا إلى الإيقاع بأحد أفرع التنظيم المعارض، ما يمهد لحصولك على الترقية التالية.
دارت الأفكار في عقل قائد السجن قبل أن يقول:
- وجهة نظر تستحق الدراسة أيها الطبيب، لكن هذا لن يمنعني من استخدام الإجراءات الاستثنائية لحماية سجني.
هز الطبيب رأسه بكونه لا يمانع، وأخذت الدائرة تضيق.

* * *

غادر «خالد» الفندق في اليوم التالي ظهرا، في حين غادرته «جهاد» فور انتهاء حظر التجول على الرغم من وجود ذلك التصريح الأمني معها، الذي يمنحها كل الحق في التجول في أثناء الحظر؛ نظرا لحساسية موقعها وطبيعة عملها، وذلك كي لا يتم تسجيل موقعها فيتم كشف الأمر لزوجها ولو بالصدفة، بعد ليلة حافلة قضياها في الفراش معا حتى الصباح.
ليلة أعادت المياه لمجاريها القديمة وعززت جسور التواصل بينهما من جديد، وجعلت «خالد» للمرة الأولى يفكر في الاعتذار عن لقاء آدم المصري؛ فهو لم يعد بحاجة لهذا السبق الصحفي، بعد أن حاز السبق لدى «جهاد»، وبعد أن فاجأته بهديتها له عبر ذلك الحساب المتخم بالأوراق المالية الذي دُشن باسمه هذا الصباح.. إنها تعيد شراءه، لكن هذه المرة بثمن باهظ، هو لا يمانع بالطبع؛ لأن هذا هو أصل خطته من البداية، وإن كان لا ينكر أنه ما

زال يعشقها بكل جوارحه.
جلس أمام التلفاز يطالعه بعينين لا تريان، وهو يتقلب على الفراش كالمحموم، مستعيدا كل لحظة مرت عليه في الليلة الماضية مع «جهاد» ليعيد الانتشاء بها.. صحيح أن أظافرها الحادة مزقت بشرة صدره الناعمة باعثة بعض الألم في مكان الإصابة، لكنه ألم لذيذ يتمنى لو يستمر إلى الأبد.
غرق في نوم عميق أمام الشاشة الهولوجرامية التي تبث مشاهد مثيرة من اقتحام الأمن العام لإحدى البؤر الإرهابية، وطريقتهم المتحضرة والمحترفة في التعامل مع المسلحين.
الأساليب الأمنية العتيقة نفسها التي تُستخدم في اقتحام تجمعات الاعتصامات وبؤر التوتر، والتي لم تتغير أو تتبدل على الرغم من مرور السنوات وتطور الفكر الأمني نظرا لنجاحها الدائم؛ فالوسائل القديمة ما زالت تبهر العامة، وترسخ في وجدانهم ما يريده النظام من أفكار.
إنهم مهددون.. مخترقون.. لا تثقوا في أحد إلا من يحميكم.. والجماهير تهلل وتتجادل، وتنسى المعاناة في إطار النصر الزائف.
ليست آفة حارتنا النسيان كما قال كاتب قديم.. بل آفة حارتنا الخضوع.
الأمر يشبه بالضبط مشاهدة فيلم إثارة مليء بالعنف، انت تعرف أن كل شيء غير حقيقي.. هذه الدماء غير حقيقية.. هذا الموت غير حقيقي..
الأمر بالفعل غير حقيقي، لكنه بطريقة ما حقيقي.
هذا لأنك تتفاعل مع غير الحقيقي بمشاعر حقيقية، بل وتطلق العنان لانفعالاتك، فتنتقل إليك كل المشاعر التي يحملها البطل..
الآن الواقع والخيال ممتزجان..
لقد ذابت تلك الشعرة الدقيقة التي تفصل بينهما.. انت الآن تكره كل أعداء البطل.. وتختلق أنواعا من الأعذار لبطلك القاتل.
إنه قاتل لكنك لا تبالي، فقد أقنعك أخيرا بوجهة نظره.. انت الآن واقع ضحية لأحدث أنواع البرمجة العقلية.

انت نسخة من الكربون للبطل تحمل مشاعر وقتية تتعارض كليا مع بعض مبادئك..

انت في النهاية قنبلة موقوتة معدة للانفجار في الوقت المحدد..

الوقت الذي يحدده النظام.

استسلم «خالد» للنوم وعلى شفتيه شبح ابتسامة وعلى وجهه ملامح راحة مضاعفة.. وعلى الشاشة الهولوجرامية القابعة بالقرب من فراشه، تظهر قوات أمن متحفزة تركز عليها الكاميرات لإبراز كونها قوة الاقتحام الرئيسية.. تتراص المدرعات والمجنزرات بالقرب من البؤرة التي سيتم اقتحامها، مشاهد تمثيلية لبدء عملية الاقتحام، في حين أن القوات الأساسية قد سبقت الجميع وتعاملت مع الإرهابيين بالعنف الكافي.

فقط المشاهد الأخيرة هي ما يتم بثها على الهواء مباشرة مع فارق توقيت مدروس بدقة.. تبرز مشاهد مختلفة لتعامل الأمن المتحضر مع الإرهابيين الغلاظ، وكيف أنهم يراعون معهم كبرى حالات ضبط النفس، قبل أن يتم شحنهم عن طريق السيارات المدرعة معصوبي الأعين لأماكن احتجاز مجهولة، ما يثير الغضب في القلوب.

الجماهير في الشوارع والحانات غاضبة تطالب بسحقهم.. إن طريقتكم الرخوة هذه هي ما تشجع القتلة على التمادي.

موسيقى حماسية.. لقطات متتابعة تبرز قوة رجال الأمن وتجعلك تتجأوز عن الابتسامات الساخرة التي تعتلي الوجوه والتي تشعر بكونها تسخر منك أنت.

لقد سقط الإرهابيون.. وهذا فقط ما كان العرض القائم يريد إبرازه.. نصر صغير يلوكه العامة في جلساتهم: سقط الإرهابيون وكفى.. ومن يسقط ينتهِ، فلن يبالِيَ أحد بمصيره.

ارتفع صوت غطيط «خالد» ليغطي على صوت التلفاز المنخفض، وبداخل حلته المعلقة في الدولاب أخذ الهاتف يرن من دون انقطاع، ولأنه جعله على

خاصية الصمت منذ بدأ لقاءه مع «جهاد» فلم يتلقَّ اتصالات زوجته التي لم تنقطع، ولم يعرف باختطاف ابنته.

وعندما غربت الشمس استيقظ «خالد» وبداخله مشاعر هادرة كان يتوق لـ«أبوللو» إلى أقصى مدى، جسده يحتاج لتلك النشوة الصناعية بشدة، صحيح أن «جهاد» قد أرضت رغباته وشبقه إليها، لكن «أبوللو» يمنحه نوعا آخر من المتعة، فهو يثير العقل لا الجسد.

كانت الرغبة ملحة جدا؛ فلم يقأومها وهو يتوجه صوب الخزانة ليُخرج بعض المخزون منها، وعندما قبض بيده على مسدس الحقن، تصلبت يداه وتوتر جسده، وبداخل عقله ظهرت صورة لوجه «آدم» الغاضب ودار بينهما حوار تخيلي:

- أيها الفتى العنيد.. ألا تتعلم أبدا؟

- إنها جرعة بسيطة فقط.. أحتاج لأن...

- تحتاج لأن تكون رجلا.. لأن تُفعل إرادتك.

- لكن جسدي...

- اللعنة على جسدك.. الإنسان كتلة من الإرادة.. وانت رخو.. رخو.. رخو تماما..

ظلت الكلمة الأخيرة تتردد بداخل عقله كدويّ جرس كنيسة عثر عليه مجنون وظن العبث به شيئا مبهجا.

ولأول مرة منذ بدأ في تعاطي «أبوللو» يستطيع «خالد» التحكم في نفسه، وبكل هدوء أعاد مسدس الحقن إلى الخزانة، ثم حصل على دُش منعش بكمية ماء إضافية، ستضاف تكلفتها إلى فواتيره.. قبل أن يرتدي ملابسه ليلحق بموعد «آدم».

تطلع لهاتفه من دون تركيز وهو يقلب الأمر بداخل عقله..

ما الضير في أن يحظى بـ«جهاد» و«آدم» معا؟

شاهد عشرات الإشعارات القادمة من رقم زوجته السابقة.

تجاهل الأمر كالمعتاد.. لا بد أنها تريد المزيد من الأموال بحجة أن صغيرته قد زادت متطلباتها.
التجاهل هو ما تستحقه هذه الحقيرة.

* * *

عندما اقترب «خالد» من السجن المركزي لاحظ بعين صحفي خبير تضاعف عدد قوات الحراسة وتحفزها، وتلك الإجراءات الاستثنائية التي صحبها تمركز الكثير من الأكمنة الأمنية الثابتة والمتحركة حول أسوار السجن، مع انتشار مكثف لقوات الأمن عبر الطرق الموصلة للسجن المركزي.
ولم يُثِر الأمر بداخله أي شكوك أو قلق، إن الانفجارات لم تتوقف طوال العام، واستهداف المبنى التشريعي في بداية الثورة الفاشلة بدأت ذكراه تتجدد مع فشل المحأولة نفسها في الأيام الماضية، وزيادة الإجراءات الأمنية شيء طبيعي وسط هذه التوترات التي لا تنقطع.
إن المقأومة بدأت تتحول بصورة أو بأخرى إلى نهج النظام، وبدأت تتبنى العنف، لتنال جزءا من سخط وكراهية الشعب، هذا غير ما يكنه لها النظام من كراهية وغضب.
وهذا قد عزز بداخل «خالد» نظرية الفشل الصريح، فلا يمكن بحال من الأحوال أن تعامل النظام مهما كان فاشلا أو استبداديا أو فاسدا بمبدأ العدو وتحمل السلاح لتعبر عن رأي ساخط أو مضاد؛ لأنك في هذه اللحظة لن تختلف عنه في شيء وستفقد أي تأييد شعبي.
المقأومة السلمية المنظمة هي السبيل للخلاص، على الرغم من الوقت الهائل الذي تحتاجه لتحقق أهدافها.
عبر «خالد» فحصا أمنيا عاديا بداخل أروقة السجن المركزي بكل ما فيه من صلف وعنجهية، فلم يهتم بحقيقة ما يحدث بالخارج ولا بتشديد الإجراءات الأمنية عبر الطريق إلى السجن؛ فالأمور كلها تبدو عادية، ومن داخله بدأت

تتلاشى كل الشكوك فشعر باطمئنان لحظي، لا بد أنهم اعتادوا وجوده أو اقتنعوا أنه لا يمثل خطرا كبيرا، وهذا هدأ من أعصابه الثائرة إلى درجة كبيرة. طريقتهم في التعامل معه بداخل السجن المركزي لم تعد عدوانية، كما أنه لا يوجد رد فعل واضح على رسالته التي أوصلها لـ«آدم».. كل شيء يسير جيدا، وإن لم يصل الأمر لمرحلة التودد.

غدا يعرف هؤلاء المتسلطون أنهم كانوا مع أحد العظماء، ولم يقدروه حق قدره.. عندها سيتمنى كل منهم لو حظي بتوقيعه الرقمي.. الذي سيمنحه لهم بكل قرف وتكبر.

وعندما جلس بحضرة «آدم»، وبعد الاستقبال المعتاد بادر «خالد» «آدم» قائلا:

- حدثني عن الخوف يا سيد «آدم».. كيف تقهر خوفك؟

منحه «آدم» نظرة متفحصة قبل أن يقول:

- الخوف يا فتى هو أعلى مراتب الحب.. هو المحفز.. هو خلاصة كل مشاعرك.. لا تحتاج لقهره بقدر حاجتك للتعايش معه وتطويعه.

نظر نحوه «خالد» بعدم فهم، فاستطرد قائلا:

- الخوف هو الوجه الآخر من الحب، فلن تخاف على شيء ولن تضحي من أجله إلا لو امتلك مشاعرك.. الخوف هو ما يجعلك تبدل من نفسك وتسعى لتبدل كل ما حولك.. حتى يصل لتلك المرحلة التي تطمئن عليه فيها، فتمنحه كل كيانك.

نظر نحوه «خالد» بغموض، قبل أن يتساءل:

- وهل ينطبق ذلك على حب الوطن؟

أغمض «آدم» عينيه في إرهاق، متسائلا:

- ماذا تعتقد انت يا «خالد»؟

أشاح «خالد» بيده وهو يقول:

- دعك مما أعتقده أنا.. المهم ما تعتقده أنت.

حرك «آدم» عينيه في عصبية قبل أن يُخرج صوته معبقا بالمرارة:
- ألا ترى يا «خالد» حقيقة وضعي؟ هل تعتقد أن خوفي على الوطن لم ينبع من حب جارف؟ أنا أدفع الآن فاتورة خوفي على الوطن وبكل حب.
رمقه «خالد» بنظرة لا معنى لها قبل أن يقول:
- لكنك لم تدفعها وحدك يا سيد «آدم».
ظهر الغضب على وجه «آدم»، وكأن حديث «خالد» أعاد له ذكريات سيئة:
- هل تعتقد يا «خالد» أن حب الوطن يكفيه مشاعري فقط.. حب الوطن سلسلة طويلة تمتد من قبل الميلاد وحتى الأبد مرورا بكل أبنائه.
استمر «خالد» في طريقته المستفزة:
- هل تعتقد أن الجميع يحب وطنه يا سيد «آدم»؟
- المهم يا «خالد» ليس في الحب.. بل في مقدار ما تريد أن تمنحه للوطن من هذا الحب.. ومدى استعدادك للتضحية من أجله.
صمت «خالد» للحظات قبل أن يراجع تلك القائمة من الأسئلة التي أعدها مسبقا، لينتقي منها أحد الأسئلة:
- كيف جعلت أتباعك يحبون الوطن يا سيد «آدم»؟
- من تبعني كان غارقا في حب الوطن، فقط كل منهم كان يحتاج لمعرفة الطريق، وأنا دللتهم فقط على الطريق.
- لكن الشواهد كلها كانت تدل على كونهم كانوا يحبونك أكثر من أي شيء في الوجود، ولن أبالغ لو قلت إنهم أحبوا الوطن فيك أنت.. كيف استطعت أن تسيطر عليهم يا سيد «آدم»؟
صمت «آدم» للحظات وهو يمسح وجه «خالد» بنظرة فاحصة:
- السيطرة على الشباب الصغير لا تحتاج لمجهود فائق يا فتى؛ لأن مشاعرهم متطرفة من الأساس، هم يخرجون من مرحلة المراهقة، كأرض جيدة الحرث، ما ستزرعه بداخلها سينمو، وما ستمنحه لها سيضعفها أو يقويها، فقط الوقت المناسب هو ما تحتاج إليه، ثم إن الإيمان الصادق لا يوجد إلا في هذه

القلوب الخضراء.
نظر نحوه «خالد» بتمعن قبل أن يقول بخبث:
- لكنني قرأت أنهم كانوا يخشونك، كيف زرعت بداخلهم هذه المشاعر المتضادة؟
- أخبرتك من قبل يا «خالد» أن الخوف والحب وجهان لعملة واحدة، والسيطرة كانت من أجل إحكام الأمور، يجب أن تكون بالنسبة لهم جيفارا، وتجعل كلا منهم جيفارا، هكذا فقط تبدأ الثورة.. التضحية تصنع الإلهام، بل هي ركيزة الأمر كله. أن يكون الموت مطلبك، هذا سيجعلك لا تخشى أي شيء.
صمت قليلا ثم استطرد:
- لتسيطر على العقول يجب أن تغزو القلوب أولا، إن البناء يحتاج لمجهود عنيف، لكن إعادة البرمجة تحتاج لمنطق ساحق، كي تقنع الأفراد بالانخراط في مجموعة يترتب عليها المزيد من المسئوليات، يجب أن تمنحهم بديلا أكثر تأثيرا وأكثر انفتاحا، امنحهم القوة المطلقة وسيمنحونك مقاليد عقولهم.
حأول «خالد» أن يستوعب منطقه قبل أن يقول:
- لقد كانوا يخشونك يا سيد «آدم» أكثر من الموت.. ما الشيء الأكثر رهبة من الموت في وجهة نظرك يا سيد «آدم»؟
مط آدم المصري شفتيه قبل أن يقول:
- ما زلت ساذجا أيها الصحفي، فالأكثر رهبة من الموت هو طريقة الموت، لا بد أن يقدسوك وأن يخشوك أكثر من الموت ذاته.
- هل تتحدث هنا عن بشاعة الموت؟
- لا أيها الفتى، أنا أتحدث هنا عن الهدف من موتك.. أن تموت دون أن تحقق هدفك.. أن تفنى بكيانك دون أن تترك خلفك ما سعيت إليه طوال عمرك، البشاعة هنا هي الفشل.
- لكن ثورتك فشلت سيد «آدم».

- ومن قال إن الثورات تفشل؟ الثورات تنتهي فقط عندما تحقق أهدافها.. ولا تموت؛ لأنها شجرة مثمرة لها ألف فرع، وأنا لم أكن إلا فرعا ناضجا قبل الأوان.

ساد الصمت للحظات قبل أن يتساءل «خالد»:

- هل تتوقع قيام ثورة جديدة؟

- بل ثورات يا فتى.. الثورة ليست حراكا شعبيا ينتهي بقمعه.. الثورة هي الحلم نحو غد أفضل، والإنسان لن يتوقف يوما عن الحلم بذلك الغد.

انتقى «خالد» سؤالا جديدا وقال:

- هل تعتقد أننا مسيَّرون في حياتنا يا سيد «آدم»؟

- لا تنظر للحياة من هذا المنظور الضيق؛ فلم يكن الإنسان منا مسيَّرا في يوم من الأيام، وإلا لما رأينا هذه الشرور المتفاقمة، الإنسان ينتقي خياراته، لكن قلبه يميل طوال الوقت نحو الخيارات السيئة.

بدا وكأن «خالد» لم يقتنع بالحديث؛ لذا فإنه قرر أن ينتحي بالحديث منحى آخر، فقال:

- إذًا لنترك الحديث العام ولتُجِب عن السؤال الذي انتهى به لقاؤنا السابق: كيف بدأ كل شيء؟

حرك «آدم» أصابعه الحرة في حدة قبل أن يقول:

- الثورة تبدأ في العقول، قبل أن تنتقل للمسرح الكبير المسمى الواقع.. اختر الوقت المناسب لكل خطوة، فهكذا يصير كل شيء تحت سيطرتك، الوقت المناسب هو مفتاح النجاح.

- اجعلهم يفقدوا ارتباطهم بكل شيء إلا عقيدتك الجديدة، ليصبح كل شيء وكل شخص هدفا محتملا، لا بد من تحقيقه مهما كان الثمن.. يجب أن يتخلى الفرد منهم عن كل شيء إلا هدفا واحدا.. هو تحقيق حلمه.. يجب أن توحد رغباتك وأحلامك واختياراتك.

ألقى «خالد» السؤال التالي بطريقة جعلت «آدم» يتحفز:

- هل تعتقد أن شابا مثلي لم يؤمن بك في يوم من الأيام من الممكن أن يتبدل؟ هل يمكن أن أتخطى هذا العالم لأعبر لعالم مختلف؟

قال «آدم»:

- لا يمكن أن تتخطى ما انت جزء منه، انت عالق معهم في هذا العالم الفاسد، الأمر فقط يحتاج لإرادة من حديد.. تلك النظرة الشغوفة في عينيك تؤهلك لأن تكون أحد المختارين، إن لديك عقلا مرنا سيستوعب ما أريد أن أخبرك به.. لكن قلبك لم يصل للإيمان بعدُ.. لا بد أن تؤمن بنفسك أولا.

كان «خالد» ما زال يمارس دور الصحفي المحترف فلم يلجأ للجدال وهو يتساءل:

- كيف جعلت الإيمان بك وبقضيتك يتسرب إلى القلوب الغافلة؟ كيف أصبحت رمزا حقيقيا للشباب؟

قال «آدم»:

- ما زلت تلف وتدور حول هذه النقطة، وأنا لن أتجأوزها قبل أن تدرك المعنى الحقيقي للسيطرة.. في البداية لا بد أن تدرك أنك في حرب لا قواعد لها، وأن منافسيك - ولن أقول أعداءك لأنه لا يوجد في الوطن أعداء - سيحأولون هزيمتك بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة.. ويجب أن تضع في حسبانك أن التداعيات دائما ما تكون أكبر حجما من مفجِّرها، مثلها مثل القنبلة اليدوية، لا تتعدى قبضة اليد وتسبب دمارا هائلا؛ لذا يجب أن يكون لديك الكثير من الخطط الاحتياطية، والخيارات البديلة، ويجب أن تكون توقعاتك رحبة، وتحيط بكل الأمور.

- إن منافسيك يسيطرون على وسائل الإعلام، ومن يسيطر على الإعلام يسيطر بكل بساطة على أذهان الناس وتوجهاتهم؛ لأن أفكاره وحدها هي التي ستصل إليهم.. ومن يريد كبح هذه السيطرة عليه أن يسيطر على الإعلام، وإن لم يستطِع عليه أن يخلق إعلاما بديلا.

- وهذا ما صنعته ومن بدأ معي الأمر بتكثيف وجودنا على الشبكة

العنكبوتية، كان يجب أن يكون الأمر أكثر إثارة لجذب الشباب؛ فالشباب هم وقود الثورات ومفجرها الأساسي؛ لذا أعلنَّا في البداية - كما تذكر - عن أولى عمليات المقاومة وحددنا توقيتها كتحدٍّ إضافي، ولأنها كانت تمثل تحديا للنظام فقد جذبت شريحة هائلة من الشباب.. ولإعلان الوجود كان لا بد من بداية صاخبة؛ لذلك فجرت المركز التشريعي.

تساءل «خالد»:

- ولماذا حرصت على أن يكون هذا هدفك الأول، تفجير المركز التشريعي؟

أجاب «آدم»:

- لأن هناك تُصنع القوانين، وهناك تنتهي؟

- ألم يكن هناك بديل عن العنف والفوضى لتثبت وجهة نظرك؟ ماذا عن العدل وحقوق الإنسان؟

- هناك بعض اللحظات المظلمة في تاريخ الأمم، تحتاج فيها إلى مُخلص، رجل لا يلتفت في تلك اللحظات المشئومة إلى أي قيم إنسانية أو حقوقية، فقط ينظر لمصلحة الوطن، هذا الشخص سيطلق عليه معاصروه لقب «السفاح»، أما الأجيال التالية فستنعته بـ«البطل».

غمرت الدهشة وجه «خالد» قبل أن يقول:

- كلمات عجيبة كونها تصدر منك، ومنك انت بالذات يا سيد «آدم». لقد استمعت لتسجيل محاكمتك، وكنت تصر على أن ثورتك سلمية، هل معنى السلمية أنه لم يسقط في تفجيرك الأول أي ضحايا؟

ارتسم الغضب على وجه «آدم» قبل أن يقول:

- لا بد من بعض التجأوزات يا فتى.. الوطن يحتاج لبعض التجأوزات؛ فالواقع الذي نحياه يحتاج منك لتطور أفكارك طوال الوقت.. لا يمكن إصلاح تلك المجتمعات التي نقعت عقولها وقلوبها في أوحال القضايا الموجهة بسهولة.. لا بد من نشر الفوضى كي تستطيع صنع نظام جديد.

تساءل «خالد» والحيرة تكتنف وجهه:

- السؤال الذي يلهب خلايا مخي الآن: كيف استطعت إقناع الشباب بهذا الأمر الشاذ؟

قال «آدم» بصوته القوي متجاهلا لمحة الاستنكار في صوت «خالد»:

- الإعلام كان يحاربنا بضرأوة، بل بدأ تشويهنا قبل أن نبدأ في التحرك، إنها خبرة النظام الأمني عبر أكثر من قرن ونصف القرن من الثورات والاحتجاجات المستمرة.. كان علينا أن نبدل خطابنا الموجَّه إليهم، كان علينا أن نستثيرهم، أن نخرجهم من غرف الوهم الصناعية وأحلام المخدر إلى واقع يهربون منه، وهم كانوا مستعدين تماما؛ لأن الوضع الذي ارتضوه كان منافيا لفطرتهم.

- وهل للكلمات مثل هذه القوة يا سيد «آدم»؟

- الكلمات أكثر قوة وتأثيرا على العقول من جميع أنواع المخدرات يا فتى؛ لذلك ستجد أن القمع الفكري تتاح له ميزانيات هائلة، أكثر من كل أنواع القمع الأخرى في عصرنا هذا.

- إذًا كيف كنت تسيطر على أتباعك بهذه الكلمات؟ الأمر ليس بهذه البساطة التي تقصها عليَّ.

- بل الأمر بسيط جدا أيها الفتى.. لقد أبهرتهم في البداية بعمليتي المحدودة.. جذبت انتباههم لقوة جديدة وليدة.. كل شخص منهم لديه الفرصة ليكون جزءا منها.. لقد بدأوا بالإيمان بمبادئي.. والإيمان بك نصف الطريق ونصف النجاح..

- الآن عليك أن تستخدم إعلامك البديل لتسيطر عليهم، الآن تستطيع أن توجههم نحو ما تريد مهما كان خاطئا؛ لأن حدود الخطأ والصواب عندهم واهية.. المهم أن تضع ما تريد أن يؤمنوا به في الإطار الذي يرغبون في رؤيته، هذه كانت خطة النظام طويلة المدى التي استقينا منها خطتنا؛ فالنظام لو أراد أن يعدم معارضا كان عليه أن يضفي على الأمر الشرعية لتتقبله الجماهير المعترضة دائما.

تساءل «خالد»:

- وكيف ذلك يا سيد «آدم»؟
- استخدم المظاهر؛ فالمظاهر تسيطر على الضمائر، شكِّل محاكمة زائفة: قضاة يتبعونك، ممثلو دفاع، هيئات حقوقية تخضع لك، بث حي.. مثل هذه الأمور تصنع الجو النفسي الملائم الذي ستتقبله الجماهير، مهما كان الأساس فاسدا.

منحه «خالد» نظرة خبيثة قبل أن يقول:

- إذًا انت اعتمدت على الخداع يا سيد «آدم» لتوجيه الشباب!
- لم يكن خداعا بقدر ما كان استبدالا للأدوار، الوسيلة ليست مهمة يا فتى، المهم هو النتيجة.. النقطة الأولى أن تفرض سيطرتك دون أن تتمادى؛ فالتمادي في الأمور أحيانا قد يأتي بنتيجة جيدة، لكنه معظم الوقت يأتي بتأثير عكسي، الحرية إحساس مخدر طاغٍ، قد يكون هو أول خطوة نحو الجحيم؛ لذا فالسيطرة على الأتباع تحتاج لبذل مجهود إضافي، وتوجيه الجماهير يحتاج لقضية ضخمة يلتفون حولها.

تساءل «خالد» بعفوية:

- وما قضيتك يا سيد «آدم»؟
- ألم تستوعب حتى الآن يا فتى؟ قضيتي هي الوطن وحريته؟
- ما تعريفك للوطن يا سيد «آدم»؟
- الوطن هو أنا وانت والملايين غيرنا.. الوطن هو شعورك بالأمان والحرية.. شعورك بالطمأنينة نحو الغد.

تساءل «خالد»:

- والحرية، من وجهة نظرك، هل تختلف في تعريفها عن الحرية التي يتشدق بها النظام طوال الوقت؟

أطلق «آدم» زفيرا قويا قبل أن يقول:

- إنهم يطلقون على الحرية التي أبحث عنها كلمة التطرف، يقولون: إن الحرية بلا حدود هي الفوضى.. لا يا صديقي - هل تسمح بأن أدعوك

صديقي؟ - الحرية بلا حدود هي الحرية فقط.. والقانون هو قيد الحرية.. لا بد من مساحة هائلة من الوعي لتستوعب هذا المنطق، القوانين صناعة بشرية؛ لذا فهي قاصرة وربما فاسدة أيضا.. الوطن يا «خالد» هو وعي جمعي محرر بلا قيود تحت أي مسمى.

هز «خالد» رأسه في غير اقتناع قبل أن يقول:

- إنك تسعى إلى الفوضى من هذا المنطلق يا سيد «آدم»..

أجاب «آدم» في قوة:

- بل أسعى للثورة يا فتى.. للتحرر.. لإطلاق العقول.

تساءل «خالد»:

- وهل ترى أنك نجحت؟!

- هذا ما سأخبرك به في لقائي الأخير معك، وتذكر أن الصقر دائما حر في قلوب أتباعه حتى لو قيدوه بألف قيد.. طالما منحوا الوطن فرصة ولم يلجأوا للحل الأخير.

العودة

هناك بعض الأشياء السيئة تحدث مصادفة، وبعض الأشياء تحدث عن عمد، وفي المنتصف يقف الإنسان حائرا كضحية المزج بينهما.

وكانت الصدفة هي ما جعلت الملثم يعثر على ذلك البريد الإلكتروني الذي أرسله زوج شقيقته، «رمزي»، إلى بريد إلكتروني خاص ؛ كانت تحتفظ به شقيقته «شذى» في محفظة رقمية مؤمنة بداخل حاسوبها التفاعلي،والتي حصل عليها الملثم ضمن مقتنياتها التي لم تصادر بعد موتها المؤسف.

القصة واضحة تماما هنا؛ فلم يكن «رمزي» يتوقع أن تسقط زوجته «شذى» في أيدي زبانية النظام، لم يتوقع أن يصل الاختراق إلى هذه الدرجة الرهيبة؛ فهي لم تكن عضوا مميزا في التنظيم؛ لذا فإنه أرسل إلى بريدها السري كل خططه ومخططاته وبعض تصميماته لأسلحة حديثة استولى عليها من مواقع تخص وزارة الدفاع نفسها، مع مواقع بعض المنازل الآمنة والحسابات المالية التي لا يمكن تتبعها ورسالة أخيرة بأن تثأر له.

وتلقى هو الرسالة عوضا عن شقيقته.. تلقاها كطعنة غائرة في صدره.. تلقاها بكل غضب وثورة.. وبرغبة كاملة للثأر.. ودارت الدائرة معه.. وبدأ مشوار الدم.

لقد استغل كل المعلومات والأموال المتاحة لتنفيذ مخططه.

الانتقام - كما يقولون - طبق يفضَّل أن يقدَّم باردا، وكان لدى الملثم كل الوقت والإمكانات ليثأر لشقيقته وزوجها، في زمن تصنع فيه النقود المعجزات..

لقد أعد خطته بهدوء ورويَّة ونفذها بكل دقة وإحكام، وحتى هذه اللحظة المشئومة استطاع أن يحظى بثلاثة من أعدائه، صحيح أن أحدهم فر من بين يديه بموته السريع، لكن ما يشفع له أنه لن يستطيع أن يمارس شروره مجددا.

وبداخل القبو الفسيح انتهى الملثم من تقييد الرجال الثلاثة الذين قام بأسرهم، بعد أن نزع عنهم ملابسهم تماما، لم يكن في عجلة من أمره ليتعامل معهم في حينها.. فدورهم آتٍ لا محالة.

لذا فإنه تركهم في وضعهم المقلوب كخفافيش آدمية.. معلقين من أقدامهم في سقف القبو عن طريق رافعة هيدروليكية خاصة، حافظت على وضعهم شديد الصعوبة.

مصدومين.. خائفين.. لا يعرفون لماذا تم اختطافهم.. ولا لماذا هم معلقون بمثل هذه الطريقة الوحشية التي تجعل الدم يتجمع في رؤوسهم بطريقة مؤلمة، وذلك ليمارس جزءا جديدا من انتقامه، بل الجزء الرئيس في خطته كلها.

فما كان يسيطر على تفكيره في هذه اللحظات هو قائدهم، العقيد سميح رياض، أو السفاح، كما يطلق عليه الثوار.

كان قد أعد له خطة مختلفة ومصيرا أكثر بؤسا، عبر تلك القذيفة النانومترية التي تسبح جزيئاتها في دمائه الآن.. فالوصول إلى شخصية في مكانة سميح رياض بالطرق المعتادة أمر شبه مستحيل، بل هو المستحيل عينه.. فالنظام يعمل على حمايته طوال الوقت ودون لحظة تهأون.

دوريات الحراسة تتبدل كل ست ساعات، الحراسة حول منزله لا تختلف في شيء عن حراسته بداخل مبنى الجهاز، كل نصف ساعة يقوم الحراس بإرسال تقرير إلى غرفة المتابعة بالجهاز، جهاز التعقب الإلكتروني الذي يحمله يحدد موقعه على مدار الساعة؛ لذا فإنه كان يحتاج لطريقة مبتكرة ليُتم انتقامه، وكان الملثم يملكها، وقرر تفعيلها الآن.

جلس الملثم أمام حاسوب متطور متصل بجهاز بث قوي يعتمد على الترددات فائقة القصر ذات مجال بث واسع، وهو يداعب الخلايا الضوئية التي تمثل الحروف والأرقام.

لم يكن عليه أن يقوم بالكثير من العمل؛ فعبر برنامج القذيفة المتطور سيقوم

بالسيطرة على التدفق الكهربي لخلايا المخ، ورسم خرائط النشاط المغناطيسي لجسده بالكامل، ما سيمكِّنه من بث نبضات خاصة ستحفِّز قشرة المخ وتبدأ في بث الأفكار والأوهام والتخيلات التي يرغب في جعل «سميح» يشعر بها، ليدخل «سميح» إلى جحيمه الخاص.

وعن طريق إشارة بث لا يمكن تعقبها، قام بتحفيز تلك الجزيئات الدقيقة التي صنعت بينها شبكة خاصة من الترددات الفائقة، وعن طريق البرنامج اختار شعور الخوف لتبدأ الجزيئات الدقيقة عملها المخيف.

وفي هذه اللحظة كان سميح رياض ينعم بالنوم في هدوء لا يعرف ما يحاك له في الظلام.. كان قد تقلد مؤخرا ترقية استثنائية على مجهوداته في قمع المتطرفين، وكان هذا يبهجه بشدة، بل وجعله لا يتوقف عن الاحتفال طوال ثلاثة أيام كاملة، فلا أحد في مثل سنه قد وصل لمكانته هذه عبر تاريخ جهازه الأمني.

لذا فإنه كان يسبح في نوم بلا أحلام، وكان تنفسه منتظما إلى حد كبير، فلم يزعج المرأتين اللتين تتقاسمان معه الفراش بعد ليلة حمراء صاخبة، قضاها معهما «سميح» بعد أن تناولوا زجاجتين كاملتين من النبيذ المعتق.

كان سميح رياض في الخامسة والأربعين من عمره، لم يتزوج ولم يهتم بالأمر؛ فهو يحصل على كل المتع التي يريدها في الدنيا دون قيد المسئولية، ودون أن يترك خلفه نقطة ضعف قد يستغلها الأعداء.

يعتبر سميح رياض من أكثر رجال القطاع الخاص في الأمن العام مهارة، سجله الوظيفي لم يحتوِ على هزيمة أو فشل واحد، يمتاز بالقسوة الشديدة والذكاء البالغ، يتنبأ له رؤساؤه بمستقبل باهر، خاصة أن مجهوداته خلال السنوات الخمس الأخيرة قوَّضت شوكة المقاومة إلى حد كبير.

إنه على بُعد خطوات من تقلد قيادة الجهاز الأمني، وكان هذا وحده كافيا لقتل ضميره ولجعله يحظى بنوم هادئ، إنه الرجل الكبير الآن.

كان غارقا في النوم كضمير سفاح، عندما بدأت الرؤى والأحلام العنيفة تضرب

عقله وتحفز نشاطه العقلي.
ومع بداية البث تحفزت الجزيئات النانومترية وبدأت تعمل في تناغم كجهاز استقبال قوي، وعندما تلقت سلسلة الأوامر الرقمية التالية، انطلقت تعمل على بث نبضات كهربائية خاصة لجزء معين في عقل «سميح»، تحديدا الجسم الصنوبري الموجود في التجويف العظمي أسفل الغدة النخامية، وعندما قامت باستثارته استأنف عمله لصنع حالة عقلية خاصة تتمحور حول الشعور الذي اختاره الملثم ليسيطر على «سميح» في حالته الحالية: الخوف.
عند تفعيل عمل الجزيئات شعر «سميح» في البداية بصدمة عقلية كادت توقظه وتفسد الأمر، لكن عقله المنظم تجأوزها في سرعة، ثم بدأت تتشكل المرئيات بداخل عقله، وبدأ يحظى بوهم واضح كالبث الرقمي المكثف.
إنه في مكان هائل الحجم.. السواد هو المسيطر الأعظم.. لا يعرف كيف أتى إلى هذا المكان.. ولا يرى اتجاها معينا يقطع به الطريق.
أصوات متصاعدة تصدم أذنيه.. لا، إنها صرخات عنيفة.. صرخات سمع مثيلا لها في أقبية جهاز الأمن العام، عندما كان يشرف بنفسه مع المتخصصين على استجواب الفوضويين واستنطاقهم.
كانت صرخات بشرية رهيبة وكأن أصحابها يعذَّبون أو يمزَّقون أحياء.
جحيم كامل من الأصوات والصرخات، والمعاناة.
حأول أن يخفف من حدة الصوت بوضع كفيه حول أذنيه، لكنهما كانتا غارقتين في دماء لزجة، حأول مسح يديه في ثيابه، لكنه كان عاريا تماما.
اشتدت الصرخات فانطلق يعدو دون هدى بعيدا عن اتجاه الصرخات، عندما سمع الفحيح.
نيران عظيمة أخذت تشتعل في كل مكان من حوله، أطرافه متصلبة يجرها جرا بعيدا عن النيران، العرق يتفصد عن جبينه.. أنفاسه تتلاحق.. لفح النيران يضرب جسده في قوة ليُغرق جسده عرقٌ غزيرٌ، قبل أن تتحول النيران

العشوائية إلى وجوه يعرفها جيدا، وجوه كانت تخشاه كالموت وأصبح هو الآن من يخشاها.

إنه لم ينسَ وجها رآه في حياته؛ فما بالكم بوجوه ضحاياه؟ وجوه لم تعد في عالمنا هذا؛ لأنه أمر بقتلها بنفسه بموجب قانون الطوارئ الجديد.

أخذت الوجوه تذكر أسماءها تباعا، تتبعها صرخات رهيبة قادمة من أعماق الجحيم.

انتفض جسد «سميح» الممدد فوق الفراش في عنف.. إنه لا حول له ولا قوة، بعد أن استولت جزيئات النانو على وعيه، ولم يعد هناك مجال يفصل بين الواقع والخيال.

إنه الآن يعيش في واقع صناعي رهيب.

إنه يقف بقلب الجحيم، والنيران تتشكل على هيئة وجوه ضحاياه، قبل أن تندمج الوجوه بطريقة مدهشة وتتحول إلى ثعابين نارية مخيفة أخذت تطارده دون هوادة وسط ظلام دامس لا تضيئه إلا هذه النيران.

ولأنه لم يتعود على الاستسلام مهما كانت طبيعة الخطر الذي يواجهه، فإنه أخذ يعدو على الأرضية المفعمة بالأشواك، والتي أخذت تمزق لحم ساقيه في عنف بحثا عن وسيلة للنجاة.

المكان كله تحوَّل في لحظات إلى جحيم مخيف.

الدماء المتساقطة من جراحه تغرق الأرض من خلفه، والحرارة الخانقة تتصاعد بعنف لتلهب بشرته.. كائن مخيف يشبهه تماما يعترض طريقه وفي يده سوط.. ولا يتوقف لحظة عن جلده.. الألم يتصاعد إلى رأسه بكثافة، وعقله عاجز تماما عن تحديد حقيقة ما يحدث.

كان جسد «سميح» يرتجف في قوة أثناء نومه، حتى إنه أقلق المرأتين العاريتين الراقدتين بجواره مع حركته العنيفة، فتنأولت كل منهما ملابسها وخرجت إلى حيث جاءت بهدوء؛ فمهمتهما انتهت منذ زمن.

كان يبدو للعيان كأنه يمر بنوبة قلبية أو أنه تعرض لجرعة مخدر زائدة..

أما ما كان يواجهه «سميح» بداخل عقله فهو جانبه السيئ المظلم، وكانت خطاياه تطارده لتحرقه وقدماه تتمزقان بفعل تلك الكلابات الحادة التي تنبت من العدم لتنهش في ساقيه، قبل أن تختفي وفي كل مرة تصحب معها جزءا من لحمه..

إنه يحيا في الجحيم كما كان يتخيله في يقظته.. وكما رآه في الكثير من الأفلام السينمائية ذات الإنتاج الضخم.

كانت جزيئات النانو ترصد معاناة «سميح» وترسلها كبيانات رقمية إلى الملثم الذي كان جسده ينتفض في نشوة وهو يتابع تلك التغيرات الحيوية التي تمثل مقدار الألم الشنيع الذي يمر به سميح رياض.

لقد تبدل شيء ما بداخله، إنه يتحول لنسخة مشوهة من خصمه، لكنه هذه المرة يشعر بالرضا..

الرضا التام.

* * *

استيقظ «خالد» من نومه فزعا على صوت الطرقات العنيفة على باب منزله، مع صوت التنبيه المستمر القادم من هاتفه.

وعندما فعَّل الكاميرا الموجودة على الباب، راعه أن رأى «ريناد» هناك بحالتها المزرية تقف وكل فزع الدنيا على وجهها.. ضغط زر فتح الباب عن طريق التطبيق الخاص به في الهاتف، وفي لحظة واحدة وجد «ريناد» - زوجته السابقة - أمامه تنقض عليه كالمجنونة، وهي تتساءل في عنف وقسوة:

- أين ابنتي أيها الوغد؟ ماذا فعلت بها؟

لم يستوعب «خالد» لأول وهلة حديثها المضطرب؛ فغشأوة النوم لم تفارقه بعدُ، فلم يجد عقله غير كلمة واحدة ليرددها في ذهول، وخلفها ألف علامة استفهام:

- «فرح»؟!

دفعته «ريناد» في قوة وهي تقول:
- نعم أيها الوغد.. أين هي؟ أين؟
توتر «خالد» في شدة وبدأ وعيه يعود إليه بالطريق الصعب، قبل أن يقول:
- هل حدث مكروه لـ«فرح»؟ إنني لم أرَها منذ كنا في مركز الترفيه العام، أخبريني بسرعة ماذا حدث لها؟ هل أضعتِها بإهمالك؟ هل...
قاطعته «ريناد» في قسوة وهي تقول:
- بل انت من اختطفها أيها الحقير لتسأومني عليها، أقسم إني سأقتلك الآن إن لم تخبرني عن مكانها.
قبض «خالد» على كتفيها في قوة قبل أن يقول في غضب:
- اهدئي أيتها المجنونة وأخبريني، ماذا حدث لها؟
كان من الواضح أن صدمة فقدان «ريناد» لابنتها أفقدتها كل تعقل، ولم يجد أمامه بُدًّا من صفعها لإخراجها من حالتها المتردية.
هوت الصفعة على وجهها عنيفة وجعلتها تصمت للحظات قبل أن تدخل في نوبة بكاء حادة.. ولم يجد «خالد» بُدًّا من ضمها إلى صدره في قوة ليخفف عنها، وعندها بدأت تهدأ وأخذت تقص عليه ما حدث بصوت باكٍ وعينين تنزفان دموعهما في غزارة.
انتقل فزعها إليه، ودارت في رأسه آلاف الأفكار السيئة.
إن جرائم خطف الأطفال لا تتوقف، خاصة أن مراكز استبدال الأعضاء قد غزت كل مكان.
إنهم يستخدمون الأطفال الآن كقطع غيار بشرية، وهذا شيء مروِّع، تمنى بداخله لو أن من اختطفها إحدى تلك العصابات التي تطالب الأثرياء بالفدية، وهو يلعن كل العلوم التي جعلت مثل هذه الأشياء متاحة.
اشتعل الغضب بداخله قبل أن يسأل زوجته:
- هل أبلغتِ الشرطة؟
انهمرت دموعها في غزارة، قبل أن تقول:

- نعم أبلغتها.. إنها مختطفة منذ نصف يوم كامل.
شعر «خالد» بالذهول وهو يردد:
- نصف يوم.. وجئتِ لتخبريني الآن؟!
صرخت «ريناد» في غضب وقد استعادت ثورتها مرة أخرى قبل أن تقول:
- لقد هاتفتك مائة مرة وانت تجاهلتني أيها الحقير و...
قطع استرسالها صوت التنبيه الخاص بالبريد الإلكتروني الخاص بـ«خالد»، فتركها مع ثورتها وانقض عليه ليفتحه في لهفة، لتفاجئه صورة «فرح» الغارقة في غيبوبتها وتلك الخوذة التي تحيط برأسها.
كاد قلب «ريناد» يتوقف وهي تشاهد صغيرتها في هذه الحالة المزرية.
قرأ «خالد» الرسالة الملحقة بالصورة وقلبه يخفق في عنف..
كانت الرسالة تحدد موعد اللقاء وتحذر من التعامل مع الشرطة، وفي لحظة واحدة احتلت صورة «ليلى» كيانه بالكامل.

* * *

جلس الملثم يتابع تلك البيانات التي تتراص على شاشة حاسوبه التفاعلي، وعندما تألق الضوء الأحمر إيذانا بدخول «سميح» في منطقة الخطر، لامس دائرة ضوئية متألقة في شاشة الحاسوب الهولوجرامية، ليجهض العملية ويجبر جزيئات النانو على السكون..لم يكن يرغب في موته الآن وإن كان قادرا على فعلها.. إنه يعد له مصيرا آخر.. لن يهنأ بالموت قبل أن يحظى به. عليه الآن أن ينتهي من الأوغاد الثلاثة القابعين في القبو، لقد طال بقاؤهم في سجنهم البارد، وعليهم أن يذوقوا بعض الألم.
أغلق حاسوبه، ثم تناول بعضا من مشروب النشاط من قنينة بلاستيكية صديقة للبيئة تركها بجوار مقعده، قبل أن يدخل إلى غرفة ملحقة بالقبو ليستخرج منها صندوقا معدنيا صغيرا حمله بحذر، وهو يتوجه صوب القبو بخطوات رتيبة.

فتح باب القبو المصفح ثم دلف إلى الداخل لتصفع وجهه برودة المكيف التي حوَّلت المكان لثلاجة، وجعلت زرقة خفيفة تزور جلود الرجال الثلاثة المعلقين من أقدامهم، فلم تتوقف أجسادهم لحظة عن الارتجاف.

شعر بالسقم عندما نظر إليهم.. ثلاث كتل من اللحوم البشرية الباردة لا تملك من أمرها شيئا، فكيف لها أن تؤذي أو تعترض؟

ثلاث كتل من اللحم سحقوا شقيقته وزوجها حتى الموت، ومعهما العشرات من الأسر البريئة.

هؤلاء الثلاثة ورابعهم - الذي هشَّمت القذيفة جمجمته - كانوا فرقة الإعدام الرئيسية التي شطبت اسمَي أقرب الناس إليه من سجلات الأحياء، إنه يعلم هذا جيدا، لقد قرأ التقارير بنفسه، وحفظ أسماءهم وصورهم جيدا، وقرر أن يكون انتقامه منهم مروعا.

ولهذا أحضر ما في الصندوق.

وضع الملثم الصندوق فوق المنضدة المعدنية الشبيهة بتلك الموجودة في غرف العمليات، قبل أن يتناول مسدس الحقن ويحقنهم الثلاثة بمزيج عجيب أسود اللون، جعل أجسادهم تنتفض في عنف قبل أن تنطلق صرخاتهم العالية لتتردد في أرجاء القبو، التي حجبتها الجدران العازلة للصوت، فلم تغادر المكان.

نظر نحوهم الملثم بنظرات باردة قبل أن يقول:

- ما حقنتكم به الآن هو سم أعصاب من نوع خاص ربما بعضكم يعرفه وربما استخدمه من قبلُ على بعض المعتقلين في أقبيتكم المظلمة ليجبره على الاعتراف بما يجهل أو يخفي.

من يجهله منكم لم تضِع فرصته بعدُ، سأخبره بطبيعته واسمه.. إن «العقرب العجوز»، هذا السم العبقري، ليس سما بالمعنى الشائع، لكنه يقوم في النهاية بكل ما يقوم به السم القاتل.. إن له بعض الأعراض العنيفة التي لن تعجبكم أبدا، ويجب عليكم أن تصدقوني في هذه النقطة؛ فهو يسبب حالة مروعة

من التشنج تليها صعوبة في التنفس تصحبها حالة متقدمة من الهلأوس، مع آلام متصاعدة تؤدي في النهاية إلى توقف القلب، وهذا لا يحدث قبل ساعات لتكتمل متعتكم.

كان وقع الكلمات على آذان الرجال الثلاثة مخيفا، لكن الأكثر تأثيرا كان الألم الذي شعروا به في اللحظة التالية، عندما بدأ السم في السريان في دمائهم، وبدأت حرارتهم في الارتفاع متفوقة على تلك البرودة الشديدة التي غزت أجسادهم في الساعات الماضية، والتي انتزعت من حناجرهم صرخات مريعة، جعلت الملثم يقهقه في انتشاء، قبل أن يقول في برود:

- لماذا أنتم متعجلون؟ الحفل لم يبدأ بعدُ..

تمطى إلى الخلف وكأنه يشاهد عرضا مسرحيا حقيقيا قبل أن يتساءل بالبرود نفسه:

- هل تعرفون جريمتكم أم تفضلون الموت عن جهل؟

قالها ثم أخرج من جيب ردائه هاتفه الحديث ليضغط على زر فيه ليخرج منه شعاع خاص قام ببث صورتين لشابين في ليلة زفافهما على الحائط المقابل لهم، وعلى الرغم من هذا لم يعرف الرجال الثلاثة وسط صرخاتهم علاقتهم بصاحبي هذه الصورة.

أشار الملثم نحو الصورة قبل أن يقول:

- هذان الشخصان الجميلان المبتسمان كانا أقرب المخلوقات على سطح الكوكب إلى قلبي: شقيقتي وزوجها..

هل تعلمون أين هما الآن؟ بالطبع لا تعرفون، سأخبركم حتى لا أثير فضولكم أو أثير حيرتكم، على الرغم من كوني لا أعتقد أن أحدا منكم ينصت لي وسط هذا الصراخ المريع.

قالها ثم صمت قبل أن يستطرد:

- هما حيث ستذهبون جميعا حينما أنتهي منكم.. إنهما في القبر التهمت جسديهما الجميلين وأحلامهما الطفلة الديدان وربما تلاشيا الآن.

هل تعرفون لماذا يموت الشباب الجميل في ريعان شبابهم؟
لأن الحقراء أمثالكم قاموا بقتلهم.. هل تذكرونهما أيها الحقراء؟ لا يهم الآن فأنتم ستلحقون بهما بعد وقت قليل.
كان مفعول السم قد بدأ في العمل فأخذت أجسادهم في التشنج والارتجاف، وأخذت قيودهم تمزق لحم سيقانهم، في حين تدفقت الدماء عبر فتحات أجسادهم لتغرق الأرض في مشهد مروع لم يهتز له قلب الملثم.
كان الملثم يتابعهم بعيني صقر، وينتظر اللحظة التي ستبدأ فيها الهلأوس بالسيطرة عليهم، ليبدأ معهم الجزء الثاني من انتقامه.
وعندما تعالت صرخاتهم وشهقاتهم، أيقن أنها اللحظة المناسبة، فتحرك من مكانه، وتقدم ناحية الصندوق المعدني وقام بفتحه ثم أخرج منه مجموعة من الحشرات الآلية فضية اللون، وعن طريق جهاز خاص قام ببرمجتها بمهمتها، وعندما خرجت أجنحتها الصغيرة وحلقت في سماء القبو البارد، غادر الملثم القبو بعد أن فعَّل كاميرا التصوير الملحقة بالقبو.
وعندما غادر كانت إحدى هذه الحشرات الآلية تعبر إلى داخل حلق الرجل الأول عبر فمه، لتبدأ مهمتها الرهيبة.

أين ابنتي؟

شق ضوء الصباح سماء الليل ليزيح أستار الظلام، وليرسم بفرشاته المضيئة نهارا جديدا شديد الحرارة، ومع انتهاء حظر التجول بدأت الحركة تظهر في الشوارع والأسواق، وانسحبت الدوريات الأمنية الليلية، لتبدأ دوريات النهار في تسلم مهام عملها.

وبداخل المنزل الآمن القريب من أطلال القطاع سبعة، كانت «ليلى» قد حزمت أمرها تماما بعد ليلة مؤرقة لم ترَ فيها النوم إلا لدقائق معدودة، وعلى الرغم من أن ما هي مقبلة عليه يحتاج إلى ذهن صافٍ وجسد كامل الحيوية، فإن توترها جعل النوم حلما مستحيلا.

وفي الساعة المحددة، تسللت «ليلى» في بطء عبر صالة المنزل الضيقة، التي تراص بداخلها رجال الحراسة الثلاثة نائمين بعد أن قضوا ليلة مرهقه في القطاع، وأخرى أكثر سوءا في الحراسة.

ومن قلب إحدى الحقائب أخرجت قنبلة غاز مخدرة ومنقي غاز أكثر قوة، ثم حملت صندوق القنبلة الانشطارية في حقيبة ظهر عادية لا تلفت الانتباه، وعرق بارد يغمر وجهها، وتوتر شديد يغتال هدوءها.

بدا أنها قد توقفت لتعيد دراسة الأمر للمرة الأخيرة قبل أن تخطو خطوتها الأخيرة.

تسمرت بقلب صالة المنزل الآمن لدقيقة كاملة كالتمثال وجسدها يرتجف من التوتر.. طالعت وجوه الرجال القاسية المرهَقة، ثم قالت بصوت خافت وهي تنزع زناد القنبلة وتلقيها بالقرب من الرجال النائمين:

- آسفة جدا.. لكنني في حاجة إلى المزيد من الوقت لإخفاء القنبلة.

استيقظ أحد الرجال على صوت تدحرج القنبلة، لكنه لم يجد الوقت الكافي لينهض من مكانه أو يحذر زملاءه، مع غياب منقي الأنف وكثافة الغازات التي انطلقت من داخل القنبلة..وعلى الفور غادرت «ليلى» المكان، وعلى وجهها ارتسم تصميم عنيف.

وبالخارج أوقفت سيارة أجرة صاروخية وطلبت من قائدها الذهاب إلى قلب المدينة، ثم جلست في المقعد الخلفي للسيارة تحتضن القنبلة وجسدها يرتجف، وهي تحأول بكل السبل أن تتماسك كي لا تبكي من الخوف.

انطلقت السيارة تقطع الطرق التي أخذت في الازدحام مع خروج الطلبة إلى مدارسهم والعمال إلى أعمالهم.

كانت تتطلع إلى الوجوه الجامدة الباردة الخالية من كل ملامح الحياة وقلبها يرتجف.

الجميع يظهر على وجوههم آثار المعاناة والإرهاق، غضب مكبوت يموج تحت الرماد، ذلك المجتمع السعيد الذي لا يتوقف الإعلام عن وصفه يبعد بزيفه ملايين السنين الضوئية عن المجتمع الحقيقي الذي يواجهها الآن عبر نافذة سيارة الأجرة.

حزن شديد اكتنفها وهي تتابع شخصا عجوزا يتسول وقد كتب على اللوحة الرقمية أنه من مصابي ثورتهم الفاشلة، وأنه قد أخطأ وتلقى جزاءه كاملا، فقط ما يحتاجه هو بعض المال لاستكمال علاجه.

المخيف أن الجموع المنطلقة في الشوارع كانت تتجاهله وكأنهم لا يرونه أو كأنه خُلق من زجاج شفاف تتجأوزه العيون.

بنات الليل يقُمن بوردية عمل إضافية بالنهار في انتظار الشباب العائدين من عملهم بالمولات الكبيرة أو المناجم، وقد ظهرت على وجوههن مظاهر الإرهاق.

سيارات الأطعمة السريعة تتراص عبر الميادين لتبيع شطائر يبدو محتواها مريبا، لكنها تروق للجميع بسبب سعرها المنخفض، يكفي السعر كي لا تُثار

الكثير من الأسئلة عن المحتوى.
تعبت عيناها من ملاحقة المشاهد المحزنة التي تصنع لوحة شوارع القرن الثاني والعشرين، فعادت ببصرها إلى داخل السيارة، قبل أن تقفز في رأسها فكرة سريعة جعلتها موضع التنفيذ على الفور، فطلبت من قائد السيارة عزل المؤخرة، كي تقوم باتصال مهم.
ومن دون تأخير استجاب لها السائق، فهبط حاجز زجاجي عازل فصلها عن الكابينة الأمامية قبل أن تجري اتصالها برقم محدد، وعندما أجاب «خالد» على اتصالها سألته مباشرة:
- هل أوصلت الرسالة؟
جاءها صوت «خالد» المضطرب ليزيد من توترها:
- نعم أوصلتها.. وسأكون في المكان المحدد في الموعد.
لم تستوعب حديثه لأول وهلة، فقالت متسائلة:
- أي موعد تقصد يا سيد «خالد»؟
توتر صوت «خالد» بعنف وهو يقول:
- الموعد يا سيدتي.. الموعد.
لم ترغب في أن تجادل أكثر، فربما كان بجواره شخص ما، أو هو المزيد من الحذر، فتساءلت في حزم:
- هل حصلت على إجابة يا سيد «خالد»؟
توتر صوت «خالد» أكثر وهو يقول:
- نعم يا سيدتي.. السيد يطالبك بأن تمنحي الوطن فرصة ولا تلجئي للحل الأخير، ويخبرك أن الصقر حر لأنه يحيا بقلوب أتباعه.
ارتجف جسدها في قوة، عندما علمت أن «آدم» يشاطرها الأفكار نفسها، حأولت أن تستعيد هدوءها قبل أن تقول:
- شكرا يا سيد «خالد».. ووعدي لك أن يكون هذا هو اتصالنا الأخير.
صرخ «خالد» في قوة، ما جعلها تتوتر من جديد:

- وابنتي؟
ردت في عدم فهم:
- ماذا عنها يا سيد «خالد»؟
اكتسح الغضب «خالد» مع ردها المستفز قبل أن يقول:
- ابنتي التي اختطفتموها أيها الأوغاد.
اجتاح القلق صوت «ليلى» وهي تردد:
- لا أعرف عمَّا تتحدث يا سيد «خالد».
انطلق «خالد» كالمجنون يقص عليها القصة من أولها، وعندما استوعبت ما يدور حولها، قالت:
- صدقني يا سيد «خالد»، أنا أجهل تفاصيل ما تتحدث عنه؛ فأنا لم أكن في بؤرة الأحداث في الفترة الأخيرة، لكنني أعدك أن هذا الأمر الحقير لو تم عن طريق أحد رجالنا، كتصرف فردي متهور، فإنها ستعود إليك في أقرب وقت.
همهم «خالد» ببعض الكلمات غير المفهومة، لم تهتم لتعرف معناها وإن وصل إليها مغزاها كاملا.
إن «خالد» غاضب ومضطرب، وهي لم تعزز ثقته فيها بجهلها.
الأمور تنحو منحى سيئا، لا يبدو وكأن قادة التنظيم الجدد سيتركون شيئا للظروف، لكنها بينها وبين نفسها أقسمت أن تعيد له طفلته.
فما ذنب الأطفال في ذلك الجحيم المخيف الذي يصنعه الكبار؟
لم تعرف من أين أتت لها تلك الثقة، لكنها كانت تعلم بقدرتها على إعادتها، إن أسلوب الاختطاف ليس بغريب عن قادة المقاومة الحاليين، وهي تعرف - دون شك - أنها خطوة أولى لتحرير «آدم»، لكنها لا تدري تفاصيلها الكاملة.
أنهت «ليلى» الاتصال مع «خالد» الغاضب، بعد أن أوصته بالذهاب في الموعد المحدد ليكسب لها بعض الوقت كي تتصرف، وهي نفسها تجهل الطريقة التي ستساعده بها مع مأزقها العميق ووجود القنبلة معها، ثم أوقفت السيارة ونقدت السائق أجرته، قبل أن تستقبل ثلاث سيارات أجرة

مختلفة في محأولة لتضليل متتبع مجهول، لتتلاشى بعدها في قلب المدينة وبحوزتها القنبلة.

* * *

ترجَّل «خالد» من سيارته بعد أن ركنها في موقف إحدى الحانات القريبة من منزله، ثم أطلق زفرة حارة وهو يسحق عقب السيجارة التي انتهت منذ لحظات بطرف حذائه ليرتدي بعدها قناع التنفس السخيف، كانت حالته مزرية وثيابه غير مهندمة، وعلى وجهه ظهرت ملامح انزعاج واضحة، وصورة ابنته «فرح» لا تفارق خياله لحظة، والخوف يعتصر قلبه دون توقف.

ظل يمسح ببصره المكان دون وعي، وكأنه لا يعرف لماذا أتى إلى هنا، والفكرة التي تدور في رأسه هي: كيف يعامل هؤلاء الأوغاد طفلة في عمرها؟

إنها عنيد ولن تقبل بالأمر الواقع، وقد تجبرهم على عقابها.

هل ستخرج من هذه التجربة المخيفة طبيعية، أم ستتحول إلى شبح آخر قضت عليه تلك الثورة اللعينة؟

نظر دون وعي نحو لوحة الحانة الخارجية الهولوجرامية التي يتبدل ما تعرضه طوال الوقت، لتعلن عن فقرات فنية ومشروبات غريبة وفرص يجب اقتناصها في صالات القمار الخاصة بها.

شعر بألم في معدته، ثم تذكر أنه لم يتناول الطعام منذ فترة طويلة، كان عليه أن يُسكت نحيب معدته قبل أن يعود إلى الحانة.

مسح المكان كله مرة أخرى ببصره وعيناه تفرزان واجهات المحلات المتراصة بجوار الحانة في تحفز، وعندما وقع بصره على اللوحة الفسفورية المتألقة التي كُتب فوقها بأنابيب ضوئية متغيرة الألوان جملة «لحم حقيقي» قرر أن يدخل ذلك المطعم..

إن الطعام الجيد هو الشيء الوحيد القادر على إعادة هدوئه لروحه، كان عليه أن يتناول بعض اللحم الحقيقي، لا ذلك اللحم الصناعي سيئ

الطعم الذي تبيعه الحانة في مطعمها الصغير، والذي يطلقون عليه «لحوم فرنكشتاين»، التي بدأ إنتاجها عام ١٩٠٨ على يد العالم كارليل، الذي تُوفي في أربعينات القرن العشرين.

طلب «خالد» كمية مضاعَفة من اللحم الحقيقي المضاف إليه التوابل الحريفة، ثم جلس يتنأوله في صمت، وعقله لا يتوقف لحظة عن التفكير في مصير ابنته التي تسبب بحماقته في اختطافها.

لقد وضع يده في عش الدبابير عندما أطاع «ليلى» منذ البداية، وكان عليه أن يتوقع بعض لسعاتها، لكن الأمر لم يكن لسعة بقدر ما كان طعنة عميقة لقلبه، والمصيبة أن «ريناد» أصبحت معه في الدائرة نفسها.

لقد تخلص منها بصعوبة شديدة كي يستطيع المغادرة وحده، كان عليه أن يخلو لنفسه، يحتاج لجو صافٍ غير مشحون ليستطع أن يقرر خطوته المقبلة.

لقد وعدته «ليلى» أن تعيد إليه ابنته، لكن لا يبدو أنها تحمل في يدها الكثير من الخيوط.

سحق اللحم نصف النيء بأسنانه، وروحه ترتجف مع تلك النكهة الحريفة التي تغلف اللحم، وهو يفكر.

إن لديه خيارين، الأول: أن يبلِّغ الأمن العام بتفاصيل كل شيء، صحيح أنه بذلك يضع عنقه بين أيديهم، لكنه يستطيع أن يقسم لعام كامل إنهم أجبروه على المضي في الأمر، وإنه أطاعهم لأنهم هددوه بقتل ابنته، وإنه عندما عارضهم وقرر أن يكشف كل شيء اختطفوا ابنته.

الثاني: أن يذهب إلى اللقاء ويتلقى طلباتهم بكل خضوع وينفذها.

كان لديه حل ثالث مخيف، لكنه لم يصل بعدُ لمرحلة القيام به، وهو أن ينتحر تاركا خلفه هذا الجنون كله، لكنه لا يجرؤ على تنفيذه و«فرح» بين أيديهم.

انتهى «خالد» من طعامه فطلب أحد مشروبات النشاط، تنأولها على دفعة

واحدة، ليجتاح جسده شعور مريح جعل ذهنه يصفو أكثر.
فكر أن يستعين بجهاد رشيد، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة وقبل أن يرسل هاتفه نبضة الاتصال. لا يريد أن يقحمها الآن في مشاكله، إن مركزها يجعل جميع العيون مركَّزة عليها طوال الوقت، وهو شيء مزعج ومقلق، سيتركها لتكون حلا أخيرا قبل أن ينهار كل شيء.
نظر نحو الشاشة الهولوجرامية التي تبث الأخبار وانتفض جسده وهو يشاهد تلك المذبحة التي تتم على مرأى ومسمع من العالم، والتي جذبت انتباهه ووترت أعصابه أكثر، فأمامه كان عمال أحد مصانع الروبوتات الوطنية، قاموا ببرمجة بعض الروبوتات المنزلية لتدعمهم في ثورتهم ضد إدارة المصنع التي طلبت عون الأمن العام.
ثلاثة من الروبوتات تقف في الصف الأول في تحفز، وخلفها العمال وصوتها المعدني يطالب برفع الظلم ومنحهم مستحقاتهم المتأخرة.
مشهد عبثي تماما، والعبث لا يوجد على لائحة النظام، خاصة أن الأمور مشتعلة في كل مكان؛ لذا كانت كاميرات التليفزيون الوطني هناك.
النظام بالطبع لا يسمح بأي تجأوزات، خاصة في تلك المصانع الكبيرة، التي تعتبر محور الاستثمار في البلد الآن.
كان عليهم أن يصنعوا منهم عبرة كي لا يتكرر الأمر مجددا؛ لذا فإن هجوم قوات الأمن العام على المتجمهرين كان عنيفا وضاريا.
قذائفهم الكهرومغناطيسية عطَّلت عمل الروبوتات قبل أن ينقضوا على الجميع في وحشية وعنف في أزيائهم المدرعة، وكاميرات البث تلتقط المشهد من زوايا شديدة الوضوح.
العقيد سميح رياض كان يقف هناك بهيئته المخيفة في الصفوف الأولى ويطالب الجنود بإحكام السيطرة، وكأن ما مر به من هول في الليلة السابقة في أثناء نومه، لم تهتز له شعرة في كيانه، وعلى وجهه ارتسمت نظرة قاتلة.
وخلال دقائق معدودة كانت قوات الأمن العام قد سيطرت على الموقف

دون وقوع ضحايا، وإن كانت بعض الإصابات في صفوف العمال تبدو خطيرة.
الكاميرات تقوم بدورها في جعل المشهد بانوراميا ملحميا، كل من بالمطعم ومعهم «خالد» تركوا طعامهم وتعلقت عيونهم بالمسرحية القائمة..
لا أحد ينكر أن عيني سميح رياض كانتا أكثر تأثيرا على المشاهدين من فوهات البنادق الباردة التي تضج بالموت الإلكتروني.
الأنفاس انحبست في الصدور، والعيون تعلقت برجال الأمن وهم يسحبون أحد المصابين في قسوة، قبل أن يجبروه على الوقوف أمام «سميح» الذي أخذ يتأمله والكاميرات تنقل لقطات قريبة لوجه سميح رياض القاسي ووجه المصاب في لوحة دموية يمكن أن تُعنوَن بعنوان القهر.
دقيقة كاملة مرت والقلوب ترتفع دقاتها في هلع قبل أن يدوي صوت «سميح» الصارم قائلا:
- أيها المواطن، بموجب التعديل الثالث من قانون الطوارئ الجديد، أطالبك بأن ترشد قوات الأمن الوطنية عن قائدي هذه الفوضى، ولتتذكر أن الكذب خيانة والخيانة جزاؤها الموت، حسب البند السابع من التعديل الثالث لقانون الطوارئ.
ارتعدت فرائص المصاب في قوة، وكاد يبول على نفسه من الخوف، فمن في طول البلاد وعرضها لا يعرف سميح رياض؟
من خلال السنوات الخمس الماضية لم يرهبه ذلك الوجه البارد المخيف الذي أصبح واجهة للنظام ولجهاز الأمن العام.
إن سميح رياض رمز للظلم والقسوة والقهر، رمز صنعه النظام ليتذكره العامة وليرتجفوا عند مجرد ذكر اسمه، ليجهض أي فكرة قد تنبع بداخل أي شخص يحأول أن يتحول لرمز مضاد.
فمن يجرؤ على أن يواجه جبروت وقسوة سميح رياض؟
تطلع ذلك المصاب نحو وجه سميح رياض البارد وجسده يرتجف في قوة، قبل أن ينهار ويعترف بأسماء زملائه الخمسة الذين قادوا هذا الاضطراب

دون أي ضغوط خارجية.
أخرج جنود الأمن المدججون بالسلاح الرجال الخمسة الذين ذكر المصاب أسماءهم في سرعة رهيبة من بين المتجمهرين الخائفين، وكأنهم يعرفونهم منذ البداية، ليظهر للجميع أن استجواب المصاب كان مجرد استعراض لحبك المشهد المبهر.
أزاح الجنود المصاب بعيدا عن كاميرات التصوير قبل أن تتركز على وجوه العمال الخمسة التي تضج بالهلع.
وبكل قسوة أجبرهم الجنود على الركوع أمام قدمي سميح رياض، الذي أخذ يدور حولهم في بطء وهو يلقي خطبة عصماء عن الخونة الذين يقومون بتعطيل مصالح الشعب وإهدار موارده، وكيف أنهم يجب أن يقابَلوا بكل حزم وقسوة؛ لأن أخطاءهم لا تضرهم فقط بل تضر المجتمع ككل، وكيف أنه لن يسمح بهذا الأمر بعد أن ائتمنته الجماهير على أمنها وحمايتها.
أخذت الكاميرات تدور حول الرجال الذين يرتجفون في هلع، وعندما همَّ أحدهم بالرد على حديث سميح رياض هوى كعب البندقية على وجهه ليهشِّمه، قبل أن يستطرد «رياض» وهو يتابع وجوه العمال الآخرين المشعة بالخوف والفزع:
- نحن هنا لا نقوم بأي تجأوز.. نحن نشارك الشعب معنا في عملنا ليكون رقيبا علينا وعلى كفاءتنا، كما أننا حريصون على أمنه وسلامته، هذا الخائن مهشم الوجه يريد أن يتحدث.. وكأن من حق الخونة والمتمردين التحدث.. تذكروا جميعا.. خيانتك للشعب وللنظام تنزع عنك كل حقوقك، لكن ولأننا جميعا ملزمون بالمحافظة على القوانين، فلن أحرمهم من حقهم في قاضٍ، ولأنني لا أرى في الجوار أحدا آخر غيري منحه القانون هذه السلطة، فإنني أحكم بسلطتي التي منحها لي القانون والشعب بمصادرة جميع أموال وعقارات وأسهم هؤلاء المجرمين الخمسة هم وأسرهم حتى الدرجة الثالثة لسداد ثمن ممتلكات الشعب المهدرة، وأحكم عليهم حكما واجب النفاذ

كما ينص البند العاشر من القانون، أما عن باقي المشتركين في هذا العمل التخريبي والمغرر بهم، فسنمنحهم فرصة أخيرة للعمل أوقاتا إضافية لإنهاء العمل المعطل، وباقي الجزاءات سنتركها لإدارة المكان.

قالها قبل أن يستدير لمواجهة الكاميرات:

- نحن هنا من أجلكم، حريصون على ألا تخطئوا؛ لأنه لا أحد بعيد عن أيدينا.

ومن خلفه انطلقت البنادق الارتجاجية لتحصد أرواح العمال الخمسة دون شفقة أو رحمة.

ليدوي التصفيق عاليا داخل المطعم وقد ظهرت الإثارة على وجوه المتابعين ليطلق «خالد» سبة حرص على ألا يجهر بها قبل أن يغادر المطعم إلى الحانة، ليرتمي في أحضان الفودكا الدافئة ، وصورة «فرح» لا تغادر مخيلته.

* * *

لقد هربت «ليلى» بالقنبلة.

كانت هذه هي الفكرة الرئيسية التي دارت في عقول قادة المقاومة المجتمعين في أحد الأماكن السرية بقلب القاهرة، وقد جلسوا يناقشون هذه الحقيقة المفزعة، وعلى وجوههم علامات غضب عاتٍ، خاصة قائدهم المسن الذي اكتسى وجهه بسواد الغضب، وهو يواجه الرجال الثلاثة، الذين باغتتهم «ليلى» لتهرب منهم، والذين صمتوا كتماثيل حجرية وقد اشتعلت وجوههم بحمرة الغضب مع تقريعه المتواصل لهم، وعندما لم يجد عندهم المزيد من المعلومات صرفهم تصحبهم اللعنات، مع توعدهم بعقاب مزلزل.

كان خبر القنبلة قد وقع على رؤوس قادة التنظيم كالمعجزة، التي جاءت لتخرجهم من بحور الاضطراب إلى شواطئ الأمل والنصر، ثم جاءت «ليلى» بفعلتها الرعناء وحماقتها لتهشِّم كل ما بنوه من قصور وأحلام.

جلس قائد التنظيم بملامحه المتجهمة يفكر في استغراق، واحترم الرجال

صمته الذي طال، وبداخل عقله كانت تدور أفكار وذكريات متشابكة.
خمس سنوات مضت يحأولون فيها قهر النظام المستبد واستعادة تنظيمهم الذي كان قد أوشك على التفتت بعد القبض على زعيمهم واغتيال الصف الأول بالكامل، وذلك من أجل استعادة حريتهم وأملهم في مستقبل واعد واستعادة ثقة الشباب الذي وقف خلفهم وقدَّم من دمائه الكثير.
لكن الأمور لم تكن تسير على خير ما يرام، الوقت كان عاملا قاتلا وأثَّر على مخططاتهم بشكل كبير، خاصة مع السرية التامة التي فرضها «آدم» على التواصل بين فرق المقأومة وأذرعها الميدانية ومصادر التمويل.
لقد حاربوا بكل ما لديهم من قوة، نشطت لجانهم الإلكترونية على الشبكة العنكبوتية، هبطوا إلى الشوارع، امتزجوا بالجماهير، قاتلوا طوال الوقت، لكن طول فترة القتال، دون تحقق نصر حاسم، جعل الجماهير تنفض من حولهم؛ فالشعوب عامة، والشعب المصري خاصة، لا يفضِّل المعارك طويلة الأجل، إن نفَسَه قصير، ومعظم معاركه التي قد ربحها كانت قصيرة الأجل، منذ تصدى للتتار واكتسح الكيان الصهيوني وحروب الماء الأخيرة.
معارك النفَس الطويل تكسبها النظم دائما، بما تمتلكه من موارد وإعلام وقوانين فُصِّلت لتخدم مصالحهم.
القنبلة كانت ستحسم الأمر في النهاية، لقد حدَّثه «آدم» عنها مرارا وعن مخأوفه من اضطرارهم للجوء إليها.. إنه من القلائل الذين حظوا بثقة «آدم»، وإن كان لم يرَها بعينيه.
الحقيقة أنه لم يتخيل في يوم من الأيام أن يلجأوا إليها أو يكون قرار إطلاقها بيديه من عدمه، لكن الأمور بالفعل تسوء.. إن التنظيم على وشك الانهيار بالفعل؛ فالأمن العام يفتك بخلاياهم طوال الوقت، إنهم مخترقون إلى حد كبير، وكتلة الشباب الحرجة في الشارع لا يمكن تنظيمها أو حسها على التحرك إلا لو كان هناك رمز أو قضية استثنائية، القنبلة ستصنع التوازن المطلوب وستحيي الأمل في القلوب.

القنبلة ستعني الحسم وقرب النصر.
لقد قرأ كل بنود الخطة القديمة وتعليمات الإخلاء وخطوات ما بعد المحرقة، وكان الأمر مروعا لم يستوعبه عقله، وتمنى من داخله لو يتوقف هذا العنف كله وكل هذه الدعوات المشئومة لتبنيه خيارا إضافيا بعد اعتقال «آدم».
فعن طريق القنبلة سيتم محو العاصمة من الوجود ومعها كل رؤوس الفساد، الضحايا سيكونون بالآلاف، الموت سيحصد الطغاة وطغيانهم لتتم إعادة بناء البلد عن طريق الكوادر التي سيتم إعدادها لقيادة الجموع في المرحلة الثانية.
تسرُّب أمر القنبلة منذ سنوات جعل النظام يتحرك بعنف ويبدأ حملة اعتقالات واغتيالات ممنهجة وموسعة دون أن يتأكد من حقيقة الشائعة، ولأن من يعرفون عن القنبلة لم يسقطوا في يد النظام، ظلت القنبلة شبحا يخيف الجميع، حتى سقط «آدم»، ومع الوقت نسي الجميع وجودها واعتبروها إحدى الخدع النفسية كتلك الأسلحة المخيفة التي كان يعلن عنها هتلر في خطبه دون أن تظهر ودون أن تجلب له النصر، وبعد انقطاع التواصل مع «آدم» أصبح أمر القنبلة نسيا منسيا.
الحقيقة التي يدركها جيدا رئيس التنظيم أن البناء يحتاج لهدم، وفي حالة هذا النظام المستبد القوي، لا بد من تدمير كل شيء ليبدأوا من جديد.. صحيح أن الآراء لم تستقر بعدُ، هل سيتم استخدام القنبلة لردع النظام، أم لا.. فقط هم يريدونها الآن كي لا تسقط في الأيدي الخطأ، وإن كانت المؤشرات الأولى تمهد لاستخدامها.
في اجتماع قادة التنظيم الأول، قرروا - بالإجماع - البدء في خطة استعادة القائد والرمز، ليقود هو المرحلة الجديدة عن طريق تفعيل خطة الطوارئ الاحتياطية، فإن السماح لصحفي كـ«خالد» بلقائه لا يعني إلا أن أهميته قد قلَّت لدى النظام وبالتالي حذره، وهذه هي اللحظة المناسبة تماما لتفعيل الأمر.

بدأت خطتهم بالسيطرة على وسيلة الاتصال، بقيامهم باختطاف ابنة «خالد» لإجباره على إتمام مخططهم، الخطوة الثانية كانت التأكد من أن القنبلة حقيقية وليست خدعة أخرى أو لعبة محبوكة ضمن حرب «آدم» النفسية، فـ«آدم» كان مَلِك الحيل.

إن وجود القنبلة أمر محسوم، لكن هل ما عثرت عليه «ليلى» هو القنبلة الحقيقية أم شيء لا قيمة له؟

هروب «ليلى» المفاجئ أجهض خططهم كلها وأثار أعصابهم، حتى إن التنظيم قد رصد مكافأة ضخمة لمن يعثر عليها، لتصبح هدفا مباشرا للتنظيم ولصائدي الجوائز.

استمر الاجتماع الثاني إلى وقت متأخر من الليل، وفي النهاية قروا الاستعانة برفيق الجبالي، أحد أمهر الصائدين وأكثرهم قسوة وكفاءة للعثور على «ليلى».

وكان معنى هذا أن الصراع قد تطور وأصبح أكثر خطورة، وأن الزمن وحده من سيحسم الصراع.

* * *

انهمك آدم المصري في ممارسة بعض التمارين الرياضية بداخل زنزانته الباردة، فظهرت المعاناة على وجهه وهو يلهث من الجهد غير المعتاد الذي يبذله ليحفِّز عضلاته على العمل، وتفصد العرق عن وجهه مع أنين عضلاته التي كادت تتيبس من الإهمال، وأخذ صدره يعلو ويهبط بقوة، في محأولة منه لمواكبة هذا الجهد المبذول وحث القلب على ضخ الدماء والأكسجين للخلايا المنهكة.

كان الأمر مرهقا وشاقا، لكنه استمر في أداء هذه التمارين بعزيمة لا تلين.

لقد توقف منذ زمن بعيد عن ممارسة الرياضة أو أي نشاط إنساني آخر بداخل زنزانته مع عزلته الإجبارية بعد أن فقد الأمل في حصوله على حريته..

لقد ظن في لحظة من اللحظات أن هذا هو الموت، وأن كل نشاط يقوم به هو نشاط تخيلي في رحلته نحو الحياة الآخرة، فقط تأخر ظهور الضوء في نهاية النفق لسبب ما.

إنه يستعيد حياته الآن من بين براثن الموت الصناعي، سيخرج كفراشة من قلب الشرنقة المميتة التي سُجن بداخلها.

الموت هو العزلة الإجبارية.. أن تنظر حولك في لحظات الوجع فلا تجد من يهتم.. ولا تجد من يحنو.. ولا تجد إلا ذاتك الوحيدة تنهشها الأفكار وخيبات الأمل.

وأي عزلة أكبر مما كان يعانيه «آدم» في حبسه الانفرادي؟! لقد مات ألف مرة، حتى إن الموت قد ملَّ منه..

لقد شعر أن العمر كله لحظة ممتدة من الألم إلى الأبد.

في البداية، وبعد أن تجأوز صدمة سقوطه بين يدي النظام، كان يُعدُّ الخطط والترتيبات في عقله تمهيدا لثورة رجاله وإخراجه من محبسه، وبعد مرور السنوات تراجع الأمل وتهشمت روحه فاستسلم للأمر تماما، وإن لم يتقبل عقله هذا المصير الشنيع وظل يحلم بلحظة الخلاص.

والآن، هاهو الأمل يتجدد أمام عينيه، إن رجاله لم يتركوه على الرغم من كل شيء، وهو يعد نفسه الآن ليقودهم من جديد.

كان يشعر بحماس شديد، إنه يشم نسيم الحرية على الرغم من قيود السجن، وبداخله هاتف يخبره بأن معاناته ستنتهي قريبا؛ لذا فإنه كان يجهد جسده بالتمارين الرياضية التي عملت مع الوقت على تحسين مزاجه، بل ومنحته طاقة متجددة من الأمل.

ولأنه أصبح على يقين من أن رجاله يعملون على إطلاق سراحه الآن، فإن حماسه أصبح مضاعَفا، وبدأ عقله يرتب الأمور بطريقة مبهرة ويسترجع كل شيء كعقل إلكتروني منظم.

إن رجاله يسيطرون على «خالد» دون شك.. صحيح أنهم تأخروا كثيرا في بدء

خطتهم لإنقاذه، لكنه سيغفر للكون كله ما دام سيحظى مجددا بحريته وليحقق حلمه بوطن حر حقيقي.

الرسالة التي وصلته عن طريق «خالد»، والتبدل الذي حدث لشخصيته عبر اللقاءات، يدلان على أن رجاله يسيطرون على «خالد» وأنهم انتقلوا من مرحلة التهديد إلى مرحلة السيطرة على الهدف، المرحلة التالية هي مرحلة استخدام الهدف كرأس حربة لتنفيذ الخطوة الأخيرة.

على الرغم ممَّا يشعر به من بهجة، فإن عقله كان يسبح في عالم الماضي، كل الأخطاء التي ارتكبها ظلت ماثلة أمام عينيه، مسيرة النجاح والفشل تجسدت في خياله، ولكي يلم بكل الأمور اضطر لأن يعود بذاكرته سنوات إلى الخلف، سنوات تلت لقاءه بالعالم سمير رضوان، فهناك بدأت القصة الحقيقية..

كان لقاؤه سمير رضوان هذه المرة مختلفا، كان التوتر يظهر على وجهه بالكامل، والقلق يصب من نهره بداخل قلبه؛ فسمير رضوان كان من القلائل الذين يعرفون نشاط «آدم» الحقيقي بعيدا عن مهنته الأساسية كمدرس للتاريخ. بل كان يدعمه بالكثير من الآراء والأفكار، وخصص له جزءا من ثروته للإنفاق على تنظيمه الوليد، ما جعله يطور من أدائه ويضع لبنة التنظيم الأولى التي قامت بالثورة.

كان الأب الروحي الخفي للثورة، وعلى الرغم من كونه عالما ويمقت العنف فإنه من أصر على صناعة القنبلة في وقت لاحق؛ بعد أن رأى الموت يجتث حلمهم مع أرواح الشباب دون جدوى، فكما كان يقول دائما:

- الحق الذي لا يمتلك سلاحه هو حق أبتر لا ينتصر.

في البداية اعترض «آدم» على الفكرة، لكن حماس سمير رضوان جعله يوافق على مضض.. إن فكرة نسف المركز التشريعي كانت فكرة سمير رضوان، وهو من زوَّده بتلك التكنولوجيا التي ساعدتهم في تدمير المبنى وتقويضه في لحظات دون أن يقترب منه بشري واحد.

إن العلم في المستقبل مخيف جدا.

لم يستطِع «آدم» أن يفسر في حينها ذلك التبدل الرهيب في شخصية سمير رضوان، لم يستطع أن يستوعب كيف تتحول شخصية عالم متحضر من النقيض إلى النقيض ليخالف مبادئه، وليحول مجرى الثورة بالكامل إلى العنف، لكن الإحباط والقهر يولِّدان العنف في القلوب.

صحيح أن «آدم» كان ضد استعمال العنف؛ لأنه يجهض سلمية الثورة ويهشم كل مبادئها، لكن القهر هو ما جمعهم ووحَّدهم، كما وحَّدت الكراهية جموع الشعب ذات مرة ضد ديكتاتور فاشل كانت تقوده جماعته المختفية تحت ستار الدين، وكاد يذهب بالبلد إلى الهأوية.

الأمور الآن مختلفة، إنه يدرك أخطاءه جيدا، ويدرك أنه تأخر كثيرا في اتخاذ القرار الحاسم، إنه يملك الحل ويملك القدرة على عكس عمل عقارب الساعة، يستطيع أن يعود بالجميع إلى المربع صفر.

تذكر «آدم» حبيبته «ليلى» ووعده لها بالزواج بعد النصر الكبير، تذكر آلافا من اللحظات الرومانسية الجميلة التي جمعتهما معا، وكيف كان حبها ورقتها هما وقود نشاطه وحماسه ومثابرته.

شعر بحماسة تتمأوج بداخل خلايا جسده فانهمك أكثر في ممارسة تمارينه البدنية العنيفة، وتمنى بداخله أن يكون اللقاء قريبا.

الجزء الرابع
هجوم خاطف

ما بعد المجزرة

شاهد الملثم تلك المجزرة التي تمت على شاشة التلفاز الهولوجرامية والقهر يغتال روحه، وغضبه من سميح رياض ورجاله يتضاعف ويتعاظم، وبداخله قرر أن ينهي الأمر الليلة.

الليلة ستكون هي الليلة الحاسمة في مشوار ثأره، وسيكون الأمر مدويا.

صحيح أن ما سيقوم به في خطوته المقبلة لن يوقف الصراع الدائر بين المقاومة والنظام، لكنه سيصيب النظام في مقتل وسيجعله يعيد حساباته مرة أخرى، وسيكسب انتقامه صبغة ثورية، وهو شيء لم يضعه في حسبانه عندما بدأ رحلته الدموية، لكن «شذى» و«رمزي» يستحقان أن يُخلَّدا في تاريخ الثورة، إن ما سيقوم به من أجلهما سيجعل العالم كله يردد اسميهما، وربما يبدأ ثورة حقيقية تأتي بكل حقوق الشهداء.

نظر الملثم لشاشة حاسوبه الهولوجرامية وهو يتابع ذلك المشهد الرهيب الذي تدور أحداثه بداخل قبو فيلته بتوتر، كان الرجال الثلاثة بالداخل يعانون آلاما رهيبة مع ذلك السم العصبي الذي يسري في دمائهم ويصليهم من الآلام ما لا يتحمله بشر، وتلك الحشرات الآلية المبرمجة التي اخترقت أمعاءهم وأخذت تمزقها من الداخل في دقة ووحشية، تعمل بهمة ونشاط في الفتك بهم.

أخذ يشاهد المشهد لدقائق، وجسده يرتجف كريشة في مهب ريح قوية، وهو يتابع الآلام المرتسمة على وجوه رجال الشرطة الثلاثة الذين برزت أحشاؤهم إلى خارج أجسادهم وإن ظلوا على قيد الحياة، في مشهد بشع اختلط فيه أزير الحشرات الآلية مع صوت حشرجاتهم المتألمة التي تبرز قدرا

مخيفا من المعاناة، لم يكن لتتحملها أجسادهم لولا حقنهم بالسم العصبي القاتل.

إن القسوة رد فعل، وليست فطرة يُجبل عليها البشر.

كانت روحه مثقلة بما يحدث، إن العنف يغتال براءة كل شيء من حوله، القصاص لا يعني أن ينتهك آدمية أعدائه.

من قتل يُقتل.. هكذا تقول الأديان كلها.

أما التعذيب فهو فعل همجي مخيف، ينزع الإنسانية من قلب من يمارسه، ويجعله في منزلة أقل من الحيوانات، وهو حتى هذه اللحظة لم يستطِع تقمص تلك الشخصية الوحشية التي ارتدى وجهها.

انقبض قلبه واهتز جسده من بشاعة ما يظهر على الشاشة أمامه، إنه لن يتحول إلى كل ما يبغضه ليحقق انتقامه، كفاهم ما سلبوه منه، لن يتركهم ليسلبوه روحه وإيمانه.. وفي لحظة تأثر قرر أن ينهي الأمر، وعن طريق الحاسوب قام ببرمجة الحشرات الآلية على مهاجمة قلوب رجال الشرطة الثلاثة، فانطلقت تنهشها في قسوة، لتمنح للرجال مطلبهم البعيد الذي ظلوا يحلمون به طوال فترة عذابهم الطويلة: الموت.

قبل أن يتحرك الملثم لينفذ خطته الجديدة، التي ستشمل القصاص، والقصاص فقط.

لقد ضاقت روحه بما يمارسه من تعذيب ووحشية، صحيح أن رغبته في الثأر تضاعفت بعد أن شاهد مجزرة مصنع الروبوتات، لكن روحه ضجت بما ترتكبه يده من أعمال تنافي فطرته.

كان عميله بداخل مركز معلومات الأمن العام قد أرسل له جدول إجازات الجنود المحدثة بتاريخ اليوم، وبذلك ضمن وجود أهدافه المحتملة في مكان واحد وقريب، ولأنه قرر أن ينهي كل شيء، فقد حصل على عنأوين رجال الشرطة الستة المتبقين، وقرر ألا يأتي النهار التالي إلا وقد أنهى مهمته..

ومع غروب الشمس تحرك.

الليل مملكته؛ فهو يحتويه مع ردائه الداكن وأفكاره السوداء، ويمنحه الغطاء المناسب كي يمارس مهمته في أمان؛ لذا فها هو، بعد أن جن الليل، يتسلل بحذر إلى حي الضباط شديد الحراسة؛ حيث يقطن ضباط الشرطة الستة المعنيون والمتبقون من كتيبة الإعدام، التي أشرفت على قتل شقيقته وزوجها. كان عليه أن يخترق الأسوار المكهربة التي تحمي المكان، المزودة بكواشف للحركة والاختراق.

لم يكن الأمر يقلقه كثيرا.. إنه مدرب على اختراق عمق الأعداء في أجواء أكثر توترا؛ فالأمر بالنسبة له الآن نزهة، كما أن نسبة ذكائه فوق المتوسط بكثير، فلن يُعدَمَ وسيلة ليحقق بها غرضه.

ولأن البساطة تهزم التكنولوجيا المعقدة دائما؛ لذا فإنه - بعد أن شاهد الرسوم الهندسية للمبنى وتوزيع كاميرات المراقبة ونقاط الحراسة وفحص المكان بمنظاره المتطور وبمهارته في التخطيط - اختار نقطة محددة تغطيها الأشجار وترتفع بجوارها النباتات الأقل حجما ليبدأ منها اقتحامه.

النقطة التي اختارها كانت نقطة شديدة التطرف لا تغطيها كاميرات المراقبة، نقطة عمياء أغفلها من قام بتوزيع نقاط الحراسة، هذه النقطة تظل آمنة لدقيقتين قبل أن تمر بها الدورية الأمنية الدائمة، وإن كانت ما زالت تتمتع بالكثير من الأمن نظرا لكونها جزءا من السور المكهرب المزود بكواشف الحركة والاختراق.

لكنه كان مستعدا تماما؛ لذا فإنه أحضر معه ذلك القائم المعدني المتداخل والقادر على التمدد حتى يبلغ طوله ثلاثة أمتار، وما إن أخرجه من حقيبته حتى قام بضغط زر بارز بمقدمته ليتمدد بسهولة لأقصى حجم له، قبل أن يُفعِّل تلك النظارة الحديثة التي تلتهم نصف وجهه لتُظهر ما يوجد خلف الجدار.

إن التكنولوجيا تجعل مهمته أكثر يسرا وسهولة.

وعبر المنظار فحص ما خلف السور المؤمَّن في دقة.

المكان ساكن والصمت يغلِّف كل شيء، سيارة الدورية ستصل لمكانه خلال دقيقة ونصف الدقيقة، وهو وقت كافٍ جدا ليتمكن من عبور السور المرتفع.
تأكد الملثم من إحكام تثبيت الحقيبة التي أحضرها معه على ظهره، قبل أن يتراجع للخلف لمسافة عشرة أمتار، مسح بعدها المكان ببصره ليتأكد من خلوه من أي تهديد.
نظر في ساعته، ثم أخذ شهيقا عميقا قبل أن يقبض على القائم المعدني بقوة ويعدو نحو السور في سرعة وتصميم ليثبِّت القائم المعدني في الأرض كنقطة ارتكاز، ليسبح بعدها جسده في الهواء لعدة ثوانٍ، فيعبر جسده السور في مرونة، لتترك قبضتاه القائم المعدني، ليهبط على الأرض في خفة فيمتص حذاؤه المطاطي الصدمة وينفرد جسده واقفا قبل أن يندفع خلف مجموعة من الأشجار ليبدأ في استكشاف المكان من الداخل، في اللحظة نفسها التي استعاد فيها القائم المعدني حجمه الأصلي ليسقط متواريا بين الأشجار، ومع لونه الأسود اختفى تماما وسط الظلام، فلم ترصده أعين رجال الدورية التي مرت من المكان بعد ثوانٍ معدودة.
وبكل حذر، مسح الملثم المكان بمنظاره المتطور، كان من الواضح أن الحراسة بالداخل أقل بكثير منها بالخارج؛ فمن وضع نظام الحراسة كان حريصا على منع الدخول إليه واقتحامه أكثر من الخروج منه، الثغرة الأمنية المعتادة.
وحتى لا يضيع وقته فإنه انطلق يعدو بمهارة بين الممرات القصيرة التي تقطعها أحواض الزهور المعتنَى بها بشدة، محاذرا أن يتم رصده، وعندما وصل إلى المبنى الأول المنشود، بدأ يتسلق جدرانه الخارجية كعنكبوت بشري في مهارة تساعده عليها تلك الشفاطات القوية التي يستخدمها في بساطة لا تشي بالمجهود العنيف الذي يبذله للتسلق.
كان لا يريد أن يلفت الأنظار إليه قبل إتمام مهمته؛ لذا فإنه تسلل بحذر إلى السطح قبل أن يعالج بوابته، ليغادرها صوب السلم الداخلي، وعن طريق منظاره المتطور بدأ يفحص ما خلف جدران الشقة.

لا توجد حركة توحي بوجود مستيقظين، والقراءات الحرارية توضح وجود أربعة أجساد دافئة تنعم بالحياة بالداخل، وكان هذا يربك مخططه تماما؛ فذلك الشرطي الوغد لديه أطفال، وهو لن يستطيع أن يصل بانتقامه إلى مرحلة قتل أطفال أبرياء.

وقف للحظات كالتمثال، وعقلة يشتعل من كثرة ما يحترق بداخله من أفكار.

ثم قرر أن يخوض الأمر إلى النهاية.

* * *

وقبل عدة ساعات، وتحديدا قبل غروب شمس اليوم، تحرك رفيق الجبالي عبر الشوارع الخلفية للعاصمة وخلفه خمسة من الرجال الأقوياء المدججين بالسلاح، كان منظرهم يثير الرهبة في القلوب، خاصة أن دورية الأمن العام المتمركزة على المدخل الشمالي للمكان تجاهلتهم تماما، وكأنهم غير مرئيين أو خُلقوا من العدم، وهم يعبرون من خلالها وسط الزحام الشديد في المنطقة، الذي لا يسمح بمرور سيارتهم الضخمة.

إن الشوارع الخلفية هي مرآة الواقع الحقيقي؛ فهناك ترى كل ما تحأول النظم أن تخفيه من فساد وفقر ورجعية، وهناك كانت تتوارى «ليلى» ظنا منها أنها بعيدة وفي أمان في حماية أحد أصدقائها من رجال المقأومة المخلصين.

المكان مزدحم بشكل خانق، حتى إنه يعجز شخص واحد عن سلوك طريقه دون أن يصطدم بالمارة، أو المتاجر المتنقلة على شكل سيارات، التي تتناثر عبر المكان، وعلى الرغم من ذلك كان الطريق يخلو أمامهم من الباعة والمارة بتلقائية، وكأن حولهم مجال طرد مخيفا، جعل الجميع يخضع لهم دون أي اشتباك.

روائح متعددة تعبق الجو، وعيون حذرة تراقب الجميع، وبكل هدوء وغرور وثقة اخترق «رفيق» ورجاله منطقة التكدس والزحام، والجميع يفسح لهم

الطريق في توتر مع أقنعة التنفس الحديثة التي أضفت على ملامحهم رهبة إضافية.

بل وقد قام بعض الباعة بغلق متاجرهم، وغادر الكثير منهم الساحة الخلفية عابرين نحو الشوارع الرئيسية، ليتلافوا معركة محتملة قريبة جدا، تؤكدها تلك البنادق الإشعاعية التي يحملها رجال «رفيق» في تصميم.

كان وجه «رفيق» جامدا باردا كلوح ثلج، ملامحه الصلبة لا تدل على المجهود المضني الذي بذله طوال الليل لتتبع «ليلى» من أجل العثور على مكان اختفائها، عن طريق اقتفاء أثرها بتتبع سيارات الأجرة التي استقلتها ومراجعة ما سجلته كاميرات المرور بواسطة بعض برامج المطابقة، وتتبع إشارات هاتفها أيضا.

لم يكن الأمر سهلا، واحتاج لمجهود عنيف منه ومن رجاله وكومة ضخمة من الأموال حصل عليها الأوغاد في شركتي الهاتف وإدارة المرور، لكنه في النهاية كان قد أتمه، واستطاع تحديد عنوان واحد يقوده نحو هدفه.

انحرف «رفيق» مع رجاله نحو شارع جانبي أكثر هدوءا، يخلو من العابرين، ويطل على نافورة صدئة لم تعد تعمل منذ زمن بعيد، وكان دخولهم لهذه المنطقة هو الإذن ببدء المعركة.

إن حدود المناطق الشعبية شيء مقدس في هذا التوقيت من القرن الثاني والعشرين، ولا يمكن انتهاكها بهذه البساطة دون أن يتعرض المنتهك لجحيم العصابة التي تفرض قبضتها على المكان، و«رفيق» لم يكن يبالي بحثالة الشوارع الخلفية ولا بحدود نفوذهم؛ لذا فإنه عندما بدأت تظهر فوهات الأسلحة الإشعاعية من النوافذ اتخذ مع رجاله أوضاعا هجومية بعد أن فعَّل كل منهم درعا إشعاعية خاصة تعمل عند الهجوم على استقطاب الأشعة المنطلقة إلى مركزها وتعمل على معادلة طاقتها، إنها أحدث أنواع الدروع التي ظهرت في سوق السلاح السوداء، فـ«رفيق» يقوم بعمله ويؤمِّن رجاله بأحدث المعدات؛ لذلك نسبة فشل عملياته تتوقف دائما عند الصفر.

لم ينتظر رجاله أن يبدأ الطرف الآخر الهجوم، وعلى الفور قام أحدهم بإطلاق قذيفة رأسية من سلاحه متعدد الاستخدامات، انطلقت لمسافة ثلاثة أمتار قبل أن تنقسم لعدة قذائف أصغر انطلقت لتتعقب وتهاجم الرجال المختبئين لتفجرهم في عنف وقسوة متتبعة كبسولات الطاقة في أسلحتهم المتحفزة، دون أن تتوجه صوب رجال «رفيق» مع تلك الدروع التي تعزلهم عن تأثير القذائف القاتلة.

لحظات مخيفة تلت الدوي العنيف الذي اغتال هدوء المكان، بعدها تناثرت الأشلاء لتغرق أرضية الشارع في مشهد بشع، تلاه صوت عدة قذائف أطلقها رجال «رفيق» ليحصدوا عددا من الرجال الآخرين الذين نجوا من القذائف الموجهة، ليتحولوا بعدها لأكياس من لحم متفحم.

قناص حأول أن يدلي بدلوه من بعيد، لكن فاجأته قذيفة مشعة بخَّرت جمجمته وفجَّرت سلاحه في عنف جعل نارا عنيفة تشتعل في البناية التي يقطن بداخلها، والقناص الذي يتبع «رفيق» يعتلي البناية هو وثلاثة قناصين آخرين، قاموا بتأمين المكان عبر خطة «رفيق» المزدوجة.

لم يكن «رفيق» ليترك أي شيء للظروف أو للمصادفة، لقد درس الأمر تماما ووضع خطته بعد أن درس خرائط المكان ثلاثية الأبعاد، ونفذها رجاله، لقد حصل على ضعف المبلغ المعتاد لتنفيذ عمليته هذه، من أجل حرص عملائه على عامل الوقت، وهو حريص على سمعته بشدة.

وخلال المعركة القصيرة التي حسمها رجاله في دقيقة واحدة، ومع كل الدماء المراقة، لم يطرف لرفيق الجبالي جفن، بل إنه كان يتقدم في خطوات هادئة نحو هدفه، مدركا بخبرته أن المعركة محسومة من البداية لرجاله.

وفي الخلف، دقت أجراس الكنيسة التحذيرية القريبة، تطالب المواطنين البعيدين عن منازلهم باللجوء لأبوابها المحصنة.

وخلال لحظات كان «رفيق» ورجاله الخمسة قد وصلوا للعنوان المقصود وحاصروا المنزل، ومن شرفة المنزل برز وجه «ليلى» الممتقع، التي جذبها دوي

الانفجارات المتتالية، وهي تبحث عن مهرب غير موجود.

* * *

ساحة المسجد الكبير؛ حيث يتجمع الباعة الجائلون من كل أنحاء العاصمة يوم الإجازة الأسبوعية، فيتحول المكان لمهرجان عملاق، مع آلاف الزائرين والقادمين من كل أحياء المدينة للبيع والشراء، خاصة بعد أن يغلق المسجد الكبير أجهزة التشويش التي تعمل على قطع البث الرقمي عن منطقة المسجد أثناء ممارسة الشعائر الدينية، ما يتيح التواصل بين الباعة والمشترين من خلال برامج المتاجرة الرقمية.

وبداخل الساحة الواسعة، يتقدم خالد صبري عبر المكان سيرا على الأقدام متخطيا الممر الكبير المزدحم بالبضائع، متتبعا تلك الخريطة الرقمية التي وصلته عبر البريد الإلكتروني، والتي كانت تتبدل طوال الوقت منتقلة من إحداثيات مكان ما إلى إحداثيات أخرى بتناغم مدهش يدل على أن من يشرف على الأمر خبير في مجاله، ما جعل «خالد» يقطع نصف القاهرة ذهابا وإيابا منذ الصباح الباكر، وعشرات العيون الحذرة تتابعه في كل مكان يصل إليه دون أن يشعر بها مع إرهاقه وتوتره، قبل أن ترسل تقريرها لمركز العمليات عبر خطوط اتصال من المستحيل تعقبها.

اخترق «خالد» الزحام المحيط بمجموعة من الباعة الجائلين الذين يروِّجون لتلك المخدرات القانونية الجديدة، التي انتشرت عبر أوساط الشباب بطريقة مخيفة، مع أجهزة الوصول للنشوة، وكل منهم يعرض ثمنا مختلفا قابلا للتفأوض، ليمر بمجموعة أخرى من الباعة يعرضون أنواعا مختلفة من الأسلحة الدفاعية المصرح بحملها، كالصواعق الأيونية والرذاذ المسبب للعمى والشلل، بالإضافة إلى بعض الأسلحة المحظورة كفراشة التعقب ومسدسات الحقن متعددة الاستعمالات، وإن لم يكن يعلَن عنها صراحة، قبل أن يصطدم به أحد الرجال في عنف فيشعر بوخزة خفيفة لا يعرف سببا لها، ليعتذر له الرجل بطريقة سلسة، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ظافرة لا معنى لها.

تابع مسار الخريطة وجسده يتسرب بين الزحام في صعوبة، مجموعة من السحرة والحواة بأزيائهم الضيقة الملتصقة بأجسامهم يتجمع حولهم الجماهير المرهقة، يقومون بعرض أسطوري بواسطة الأحذية المضادة للجاذبية وأحزمة الطيران الدقيقة وغيرها من تلك التقنيات الحديثة التي تبهر العامة.

غادر المكان المزدحم إلى مكان أقل ازدحاما، وقد بدأ يشعر بتنميل في جسده، لم يربط عقله بين الوخزة التي شعر بها والرجل الغريب الذي اصطدم به، وتلك الحالة العنيفة من الوهن، التي أصابته بعدها.

إن جسده مرهق لأقصى مدى، وانهياره أصبح محتما.

تقدم بخطوات ثقيلة صوب بعض بائعي الملابس الذين تتكدس بضائعهم بشكل عشوائي في المكان بداخل صناديق عملاقة تتخللها بعض السياج الإلكترونية التي تمنع المتطفلين من سرقة بعض الملابس في غفلة من البائع.

نظر «خالد» نحو الخريطة الإلكترونية بعينين مشوشتين، ثم عبر السياج الإلكتروني ليختفي خلف أطنان من الملابس المتراصة في عشوائية، ولم يلحظ مجموعة الرجال الأقوياء الذين تبعوه في سرعة إلى داخل المكان، خاصة أن ذهنه قد أصابته حالة من التشوش العنيفة لم يشعر بها من قبلُ إلا مع الإصدارات الأولى من أجهزة النشوة، التي كانت تتسبب في أعراض مماثلة، وعندما سمع وقع الأقدام السريع على الأرض، استدار ليكتشف الأمر ليشعر بوخزة أخرى، أظلمت الدنيا بعدها، فلم يشعر بتلك الأيدي التي تلقفته، لتسحبه نحو حوَّامة أجرة قريبة حملته نحو المجهول.

وعندما فتح عينيه لم يعرف كم مر عليه من الزمن فاقدا للوعي، المكان من حوله بارد والرؤية مشوشة وآلام عنيفة تجتاح عظامه.. هناك عدد من الأشباح يدورون حول جسده في تناغم، وأصوات غير واضحة تداعب أذنيه، وهناك من ينتزع من جسده بعض الخراطيم والإبر الحادة.

أغمض عينيه ليتلاشى الضوء القوي، عقله لا يذكر أي أحداث قريبة قبل

فقدانه للوعي، وكأنه تم مسح ذاكرته عن طريق الماسح الإلكتروني النفسي، الذي يقوم بمحو الذكريات السيئة في العيادات النفسية، لمساعدة مرضى الحوادث العنيفة على التعافي دون أن يمروا بهذه الذكريات مجددا.

أغمض عينيه لدقيقة كاملة في محأولة منه لإزالة التشوش الذي يحيط بوعيه. شعر بوخزة خفيفة نبهته إلى كونه ليس وحيدا في هذا المكان، ثم شعر لوهلة بأن دماءه تغلي في عروقه، وبعدها بدأ ذهنه يصفو بطريقة سريعة، لا بد أن من يحتجزونه قد حقنوه بأحد العقارات المنشطة.

فتح عينيه بصعوبة، ثم أخذ يتطلع حوله في قلق، الكثير من الوجوه الملثمة تحيط به، مع صمت قاتل.

حرَّك أطرافه فوجدها حرة، فهبَّ جالسا فوق المنضدة المعدنية التي مددوه فوقها.

خمسة من الملثمين المدججين بالسلاح يحيطون به، وشخص سادس يقبع على مقعد في الظلام، فرك عينيه في قوة قبل أن يتساءل:

- أين أنا؟ ومن أنتم؟

أتى صوت ذلك الشخص القابع في الظلام، صارم حازما لا يحمل أي ود:

- انت هنا لتجيب لا لتسأل.

صفا ذهن «خالد» وبدأ يستوعب ما يحدث خلفه قبل أن يقول:

- أريد أن أرى ابنتي.

أتى الصوت هذه المرة صارما قاسيا:

- لديك مهمة ستقوم بها، وبعدها ستكون ابنتك في منزلها.. فقط لتنصت.

دارت الأفكار في رأس «خالد»، وعلى الرغم من صرامة الصوت فإنه قال بعناد:

- ابنتي أولا، وقبل أي شيء.

ساد الصمت للحظات قبل أن يقول الصارم:

- ليكن.

وعلى الفور ظهرت صورة ابنته «فرح»، الواقعة في غيبوبتها، أمام عينيه، لينتفض جسده في قوة، قبل أن يهب واقفا مهاجما أقرب الملثمين إليه، ليتلقَّى لكمة عنيفة في معدته أعادته لمكانه قبل أن يصرخ في هلع:

- ماذا فعلتم بها أيها الأوغاد؟

أتى الصوت هذه المرة غاضبا قبل أن يقول:

- لا داعي للتهور أيها الصحفي، إن ابنتك بخير.. لقد تم وضعها في غيبوبة وهمية صناعية، وهي الآن تمرح مع أصدقائها الكرتونيين، أنصت جيدا لتعود اليوم إلى والدتها التي شارفت على الجنون.

شعر «خالد» بالقهر، وهو عاجز عن حماية ابنته فقرر - بإرادته الأسطورية - أن يخضع للحديث، فقال بصوت مهتز:

- أخبروني عن المهمة لننهي هذا الأمر.

أتى الصوت الصارم من قلب الظلام ليقول:

- مهمتك ليست معقدة كما تظن، كل ما عليك أن تقوم به هو لقاء آخر مع آدم المصري، وبعدها تنتهي مهمتك.

ارتسمت الدهشة على وجه «خالد» قبل أن يقول:

- المهمة التي اختطفتم من أجلها ابنتي، ثم اختطفتموني أنا أيضا بمثل هذه الطريقة العنيفة، كلها من أجل لقاء عادي كان سيتم في مساء الغد دون أي مجهود أو إرهاب.

أتاه الصوت صارما دون أي مشاعر:

- عليك أن تنفذ مهمتك دون أسئلة أو استفسارات، وللعلم فقط نحن في ظهيرة الغد، انت فاقد للوعي هنا منذ مساء أمس، ولكي يطمئن قلبك، عندما يتأكد رجالنا من إتمام الأمر ستكون ابنتك في أحضان أمها.

أدار «خالد» الأمر في رأسه، كان كل ما يحيط به جنونيا، وقرر أن يقوم بالأمر، لكن كان لديه تساؤل أخير:

- ألا ترغبون مني في أن أنقل له رسالة ما؟ هل الأمر كله مجرد لقاء؟

أتاه الصوت الصارم من قلب الظلام:

- قُم بمهمتك ولا تفكر كثيرا، أمامك أربع ساعات قبل إتمام اللقاء، لا تحأول أن تُظهر ذكاءً أكثر أو تتواصل مع الأمن؛ لأن رجالنا لن يتركوك لتغيب لحظة واحدة عن عيونهم، أتم مهمتك ثم انسَ كل شيء بعدها وعُد لحياتك الطبيعية، مجرد لقاء صحفي آخر من دون أي إضافات أو إعمال لعقلك.

حأول «خالد» أن يستفسر أكثر، إلا أن الرجال اقتادوه للخارج بعد أن عصبوا عينيه، كإشارة واضحة إلى انتهاء اللقاء، قبل أن يظهر وجه قائد المقأومة المسن من قلب الظلام ليوجه حديثه لأحد الملثمين متسائلا:

- هل يمكن لرجال الأمن كشف الأمر؟

هز الملثم رأسه نافيا قبل أن يقول بصرامة:

- ولا بعد مائة عام، إنها تكنولوجيا جديدة لم تُستخدم من قبلُ.

هز قائد المقأومة رأسه في رضا، ثم انصرف إلى منزل آمن جديد.

وبعد نصف ساعة، وجد «خالد» نفسه ملقى في تلك الساحة الخلفية القريبة من منزله، فتحامل على نفسه وصعد إلى منزله عبر الدرج ستة طوابق، وهو يلعن كل شيء.

* * *

لقاء عادي

في مساء اليوم السابق، اقتحم الملثم تلك الشقة السكنية في البناية التالية، التي تحتوي على ثالث أهدافه لهذه الليلة، وذلك بعد أن قام بتحييد الرتاج الإلكتروني كما فعل منذ دقائق مع الشقتين السابقتين الموجودتين بداخل ذلك المجمع السكني شديد الحراسة، الذي يضم بداخله أهدافه الستة، ليصاب الرتاج الإلكتروني بالشلل دون أن تسجل ذاكرته الداخلية توقيت فتح الباب ليظل الأمر محاطا بالسرية كما يرجو، ولينفتح بعدها الباب دون صوت فيتسلل إلى الداخل كفهد حذر يستعد لاقتناص ضحيته، بعد أن مسح بمنظاره المتطور الشقة ليعرف، عن طريق الطيف الحراري، عدد الأحياء بداخلها وأماكن توزيعهم عبر المكان، كي يتلافى أي مفاجأة غير مخطط لها، لتقابله المعضلة نفسها التي قابلته في المرة الأولى: الأطفال.

هذه المرة كان الأطفال مستيقظين، وأحدهم قد تجأوز العاشرة، دون شك، إن القراءات الحرارية دقيقة جدا.. ثلاثة من الأطفال مستيقظون بعد ذهاب الأب والأم إلى غرفة نومهما الداخلية، ويظهر من حركتهم المحمومة بداخلها أنهم متيقظون أيضا، لكنهم يمارسون نشاطا اجتماعيا حارا.

تجأوز الباب الخارجي بهدوء وحذاؤه المطاطي لا يصدر عنه أدنى صوت، كان عليه أن يستخدم استراتيجية جديدة لاقتناص هدفه؛ لأن السرية هي أهم جزء من أجزاء الخطة في هذه المرحلة، إن انكشاف أمره في أي مرحلة من هذه المراحل سيعني، دون شك، هروب سميح رياض من قبضته، وهو شيء لن يسمح به أبدا..

إنه رأس الأفعى وأصل كل الشرور، وعليه أن يلقى عقابه الرادع؛ لذا فإنه تسلل إلى المطبخ الجانبي بهدوء شديد، وأذناه تتابعان ضجيج الأطفال الذي

لا ينقطع في أثناء قيامهم بممارسة إحدى تلك الألعاب القتالية التفاعلية عبر شبكة الألعاب الدولية، ثم قام بتوصيل أسطوانة صغيرة الحجم أخرجها من حقيبته بمصدر الهواء النقي الرئيسي الداخل إلى الشقة، وخلال لحظات كان النوم قد دهم الأطفال الثلاثة وذويهم، ليتسلل هو بهدوء صوب غرفة النوم الداخلية ليتم مهمته دون منغصات.

استاء جدا من منظر الزوجين العاريين، لكن خطته لم تكن لتسمح له بتلك الرفاهية من المشاعر المرهفة.

وعلى الفور، ألقى الغطاء فوق جسد الزوجة العاري ليواري ما ظهر مكشوفا منه، قبل أن يتوجه صوب الزوج ليخرج من حقيبته ذلك المحقن المعدني الذي يحمل شعارا عسكريا مميزا يشي بمصدره الحقيقي.

غرس المحقن في ذراع الشرطي الناعس وهو يتابع ذلك السائل الغليظ الذي أخذ يتدفق من خلال خزانة المسدس ليستقر أسفل جلده في تناغم غير ملحوظ.

استغرق الأمر منه دقيقة كاملة قبل أن ينهي الملثم مهمته، ليجمع أدواته بحرص في حقيبة ظهره، وليتجه بعدها صوب المطبخ فينتزع أسطوانة الغاز المخدر التي قامت بعملها على أكمل وجه، ويعيد إحكام مصدر الهواء النقي، ليعبر بعدها الصالة صوب الباب الخارجي، ليخرج من المنزل قبل أن يحكم إغلاق الباب خلفه بعد أن أعاد تشغيل مصفوفة الحماية.

وأمام الباب تأكد من محتويات حقيبته، قبل أن يتسلل إلى السطح فيتجأوز بابه المفتوح، ليبدأ في الهبوط كما صعد عن طريق تلك الشفاطات الماصة في سرعة ومهارة.

راجع خريطة المكان الرقمية عدة مرات قبل أن يحفظ المسار الجديد، ثم توجه بسرعة نحو المبنى الجديد الذي يوجد بداخله ضحيته الرابعة متسللا عبر الأشجار التي مثَّلت له حماية جيدة، ليفاجئه توهج أضواء بعيدة نبهته لظهور سيارة دورية قادمة عبر الممر الممهد البعيد، ليتوارى في سرعة خلف

إحدى الأشجار العملاقة، وهو يتابع رجال الشرطة الذين غادروا السيارة وعلى وجوههم ظهر القلق والترقب، قبل أن يتوقفوا ويتطلعوا نحو السماء في تحفز.

شعر بالقلق والخطر، فتسلق إحدى الأشجار في مهارة وكمن بين أغصانها الكثيفة، محاذرا أن يصدر عنه أدنى صوت قد يجذب الانتباه إليه، وهو يتطلع عبر منظاره المتطور نحو المبنى قبل الأخير الذي كان يحتوي اثنين من أهدافه المحتملة في قلق، وهو يراجع بداخل عقله كل تحركاته السابقة، محأولا أن يستجلي كيف كشفوا أمره.

لحظات وظهرت حوَّامة إسعاف طائرة تتهيأ للهبوط في مرونة في الساحة الفسيحة أمام البناية المنشودة، جعلته يتنفس الصعداء.

الأمر لم يكن كما اعتقد أو توهم في البداية.. إن الأمر حدث طارئ، هناك مريض يحتاج لإنقاذ عاجل؛ لذا فإن كل هذه التحركات المريبة من رجال الأمن لا تتم من أجله.

تابع هبوط حوَّامة الإسعاف وتلك الإجراءات الطبية السريعة التي قام بها طاقمها في سرعة واحتراف، وعندما رصد المنظار وجه الضحية الخالي من الحياة، الذي حمله المسعفون فوق المحفة المضادة للجاذبية، انقبض قلبه في قوة، وشعر بغضب شديد.. لقد اقتنص الموت مرة أخرى أحد أهدافه، إن ملك الموت يزاحمه في وليمته.

إنه يؤمن بالعلامات كثيرا، ويعرف أننا نعيش على هذا الكوكب في إطار نسيج واحد من خيوط القوى الخفية التي تصنع مزيج الحياة بين مخلوقاته المتناحرة.

هذا المزيج هو ما يجعل استمرار الحياة ممكنا، وهو ما يقوم به، يقطع هذه الخيوط بتمثيله دور القدر.

إنه يقف أمام قوى الطبيعة بوقاحة شديدة، وهروب الهدف من قبضته هذه المرة هو علامة أخرى، علامة قوية.

تضاربت الأفكار في عقله، وشعر بوهن لحظي فكاد يتراجع عن إتمام خطته، لكن صورة شقيقته وزوجها وجثتيهما المكومتين، اللتين تسلمهما من المشرحة واللتين تشوهت ملامحهما؛ جعلته يطرد كل الأفكار من رأسه إلا فكرة القصاص، وبعد ساعة كاملة كان يتسلل إلى البناية الجديدة فالشقة التالية، وخلف قناعه كان وجهه يموج بتصميم رهيب.

* * *

قطع «خالد» نصف الطريق نحو السجن المركزي بداخل سيارة أجرة حديثة؛ فهو لم يكن قادرا على القيادة أو رائقا لها.. كان يبدو عليه إرهاق عنيف، ومزاجه كان في أسوأ حالاته، خاصة أن زوجته السابقة «ريناد» لم ترحمه لحظة، ولم تهدأ إلا عندما أعلمها أن ابنتها ستكون معها خلال ساعات، وكي يتملص منها دون منحها التفاصيل كان أمرا شاقا، يشبه تماما إزاحة جبل من مكانه باستخدام يديه العاريتين.

لقد قضى الساعات التي تفصله عن موعد آدم المصري في معاناة جسدية رهيبة، كان يشعر بوهن غريب وتبدلات غير مفهومة بداخل جسده، إلا أنه عزا كل شيء للإرهاق ولليلته السيئة، فقط حأول أن يعد عقله لما هو مقبل عليه، باستخدام بعض مشروبات الطاقة التي كانت بلا جدوى.

كان عليه أن يجهز الكثير من الأسئلة والمحأورات، التي ستمهد له إنهاء ذلك اللقاء الذي يتطلع إليه التنظيم الذي ينتمي إليه «آدم».

كان الأمر محاطا بالغموض، لكنه لم يكن يأبه بشيء إلا بانتهائه.

شعر للحظة بالوهن وأنه بحاجة إلى الدعم النفسي فأجرى اتصالا قصيرا بجهاد رشيد، شعر بعدها بحماقته، عندما اعتذرت منه «جهاد» لأن لديها اجتماعًا مهمًّا، وإن حددت موعدا جديدا للقاء، شعر به هذه المرة كعبء جديد يضاف إلى كاهليه..

إن هذه اللعين لا تأبه إلا لرغباتها..

القلق كان يحرق أحشاءه من الداخل وذهنه مشتت بين اللقاء ومصير ابنته، وعندما هبط أمام بوابة السجن المركزي، انتفض جسده في عنف عندما تلقى الاتصال التالي من زوجته، الذي حمل له خبرا سارا ومبهجا، لقد عادت ابنته. كان يتمنى لو أنه في مكان آخر ليقفز راقصا من الفرحة.. لقد صدق المختطفون وعدهم وعليه أن يتم اللقاء على أكمل وجه، لينتهي هذا الأمر البغيض إلى نفسه، وليبدأ في الإعداد لسبقه الصحفي.. لقد بدلته تلك المكالمة الأخيرة، وكان مفعولها على روحه كالسحر.

شعر بحيوية كبيرة في جسده، فاندفع يخوض الإجراءات الأمنية السخيفة بروح عالية، وعندما وقع بصره هذه المرة على «آدم» تمنى لو يستطيع مصافحته، لكن الحاجز المزدوج كان يمنعه، كتم مشاعره بقوة قبل أن يبادر «آدم» قائلا:

- كيف حالك يا سيد «آدم»؟

تطلع نحوه «آدم» في غموض، لترتسم على وجهه ابتسامة غامضة وهو يجيب:

- في خير حال أيها الصحفي، في خير حال.

ساد الصمت بينهما للحظات وكل منهما يلتهم ملامح الآخر في تركيز، وكأنه يسعى إلى سبر أعماقه، قبل أن يقول «خالد»:

- لديَّ الكثير من الأسئلة المختلفة اليوم، أرجو أن تجيب عنها باستفاضة، لتسد ثغرات كبيرة في تحقيقي الصحفي، فهل انت مستعد؟

عادت الابتسامة الغامضة لتغزو وجه «آدم» قبل أن يقول:

- دوما يا فتى.. إنني مستعد دوما.

أغمض «خالد» عينيه للحظة وهو يسحب شهيقا قويا قبل أن يخرجه ليقول:

- ما رأيك سيد «آدم» في دور النخب والسياسيين في الثورات؟ هل تعتقد أن دورهم عبر قرن ونصف القرن من الزمن كان مجديا فعلا؟

صمت «آدم» للحظة وكأنه يهضم السؤال قبل أن يقول:

- السياسيون والنخب هم آفة كل ثورة، درجات سُلَّم تستخدمها الأنظمة لتحجيم الكتل الثورية المتفجرة، بمنحهم نوعا من الأمان الزائف، بأن الخيوط أصبحت بين أيدٍ أمينة أكثر قدرة على التفأوض منهم، ومن خلف الستار تتم الصفقات والتوازنات التي تجهض الفعل الثوري في إطار دقيق من الحماقة السياسية.

لو تابعت دور النخب لوجدت أنهم أساءوا للثورات أكثر مما أفادوها؛ فعن طريق غرورهم وضيق أفقهم استطاعوا، عبر التاريخ، فرملة أحلام الشباب في كل مرحلة من مراحل ثورتهم المستمرة، وحوَّلوها من حلم متكامل إلى استجداء بعض الحرية التي تجهض كل حلم خرج من أجله الشباب، ليغرقوا هم في الاستمتاع بملذات السلطة، ليؤججوا جحيم الانقسام المجتمعي.

أدار «خالد» الكلمات في رأسه قبل أن يقول:

- هل تعتقد أن هناك انقساما مجتمعيا حقيقيا موجودا، أم هي مؤامرة من أجل فصم عُرى الترابط في المجتمع؟

قال «آدم»:

- إن الانقسام المجتمعي حقيقة قائمة طوال الوقت، كحقيقة المؤامرة؛ فهناك انقسام مجتمعي بداخل المدن الكبرى الآن، وكأننا نعيش الدولة داخل الدولة، وكل دولة تعيش على حدود الدولة الأخرى، ولا تلتقيان إلا عندما تتعارض المصالح. ساعتها فقط تبرز أنياب الأولى لتلتهم جزءا من الثانية، محتمية بقوانين وضعية راعى معها المشرِّع ألا يعاقب إلا الضعيف، والضعيف فقط.. منظومة الأخلاق نفسها تتهأوى؛ فالفقر لا يحتمل معه أي شعارات زائفة أخرى.

تساءل «خالد» في اهتمام:

- ومتى تظن أن هذا الانقسام قد ظهر كعامل مؤثر في المجتمع؟

ظهر الضيق على وجه «آدم» وكأنه يستعيد ذكرى سيئة قبل أن يقول:

- لقد بدأ الانقسام عندما اختفت الطبقة الوسطى، ولم يعد هناك إلا

طبقتان: طبقة فقيرة تزداد فقرا وحقدا طوال الوقت، وطبقة غنية جشعة تزداد ثراءً وقسوة طوال الوقت، ثم بدأت لعبة الدين والسياسة، ليقوموا بتخدير أتباعهم بوهم المال وصكوك الجنة الزائفة.

لقد انهار المجتمع من الداخل بواسطة أبنائه، قبل أن يتكالب عليه العدو الخارجي ليبث سمومه بداخل شرايينه ليؤصل هذا الانقسام، نحن نعيش في زمن الخراب، نحن في توقيت سيئ من التاريخ، نعيش أحلك فترات البشرية، إنه ما زرعناه ونجني ثماره المشئومة الآن، نحن واقعون في شَرَك التوازنات السياسية، سواء الداخلية أو الخارجية، هذا العفن كله لا بد من تطهيره، وبقسوة.

تساءل «خالد» مجددا:

- وكيف يتم ذلك يا سيد «آدم»؟

أجاب «آدم»:

- إذا قررت أن تبدأ التطهير فلا تلتفت للمجتمع الخارجي، ركِّز على الجبهة الداخلية، اضرب بقوة، اسحق أعداءك.. ثم بعدها ابدأ في التفأوض مع الجبهة الخارجية والمجتمع الدولي، هذا بعد أن تصل للحكم وتتمكن الثورة، إن أشد أعداء الثورة هو ذلك الجزء من أبنائها الذين خاضوا غمارها من أجل مصالح شخصية أو حزبية.

ظهرت الدهشة على وجه «خالد» قبل أن يتساءل في استنكار:

- أين الإنسانية من هذا الفكر يا سيد «آدم»؟ إن مبادئك تهتز مع تبدل المواقف، أين حديثك عن السلمية وحقوق أبناء الوطن الواحد؟

توترت أصابع «آدم» الحرة للحظات قبل أن يقول بصوت صارم ضغط على كل حروفه، وكأنه يريد تأكيد فكرته:

- بناء الوطن يحتاج للتخلي عن الكثير من هذه المشاعر الزائفة، أي إنسانية في وطن على حافة الهأوية يكاد يفنى على يد فئة حمقاء من أبنائه لا يرون أسفل أقدامهم، يُقادون كالقطعان بحثا عن جنة مزعومة يصلون إليها

على أنقاض الوطن؟! إن الرومانسية والشعارات لا تصلح لحماية وطن أيها الأحمق، قيادة الأوطان تحتاج لقسوة وحكمة.

الديكتاتور العادل هو أعظم مراحل الطموح في أي ثورة، لكن نادرا ما تتحقق الأحلام الجيدة. انت الآن في زمن لا يؤمن إلا بالقوة.. والمثير للسخرية أن القوة وحدها هي الشعور الوحيد الذي لم يتلوث بعدُ؛ لأنها حينما تعلن عن أنيابها تسحق كل الثوابت والأحلام والطموحات.. انت قوي، إذًا ليركع لك الكون ويقبل يديك ولتُفرض أفكارك.

أثارت تلك التناقضات في حديث «آدم» الأفكار في رأس «خالد»، ما جعله يتساءل:

- هل كان الشباب يستوعبون تلك التغيرات كلها بسهولة يا سيد «آدم»؟

- التغيرات هي حياة الشباب يا فتى، ووجودها هو ما يمنحهم المتعة والإثارة في أيامهم المتشابهة المليئة بالمتناقضات، كما أخبرتك من قبلُ، انت تحتاج للقالب الصحيح فقط لتوصل أفكارك مهما كانت غرابتها، إن النظام يستخدم خوذة الأفكار بكفاءة ليسيطر على الجيل الحالي، إنها القنبلة الموقوتة التي ستحمل الفناء المقبل.

تساءل «خالد»:

- هل تعتقد أن النظام استطاع بالفعل السيطرة على الشباب في ذلك التوقيت الذي سبق الثورة؟

حرَّك «آدم» رأسه في قوة قبل أن يقول:

- الشريحة الكبرى من الشباب وقعت في فخ النظام، وأصبحت ما يريده لهم النظام الاستبدادي، كتلة من اللامبالاة والسطحية، ما يجعل فناءهم ذاته غير ذي أهمية لديهم، والمخيف أن هذه اللحظات في تاريخ الأمم هي لحظات سيطرة التيار المضاد على الشباب في رداء عباءة الرب.

هناك قوة جديدة تتشكل، وبحاجة لمن يأخذ يدها.. إنها دورة الأجيال.. ولكل جيل كارثة مروِّعة تعيد تشكيله.. وهذا الجيل الحالي في مهب الريح،

وهذه القوة الجبارة لو لم تتم السيطرة عليها ستسقط في براثن ذلك التيار الخاطئ لتتحول لإعصار جارف.

مط «خالد» شفتيه قبل أن يقول:

- هل تحمل التيارات الدينية المتصارعة ذنب بُعد الشباب عن الدين واختياره لتلك الحياة الوهمية التي يصنعها المخدر وأجهزة النشوة؟

أجاب «آدم»:

- هل شاهدت فيلم «التجربة» القديم أو النسخة المحدثة منه؟ هل رأيت كيف يتحول الضحية إلى جلاد؟! جميعنا ضحايا فقط لأننا لم نمتلك الفرصة بعدُ لنصبح جلادين.. ليس التيار الديني وحده المسئول عن الانهيار الأخلاقي، لكنه أقرب الأسباب لذلك.

فكَّر «خالد» للحظات قبل أن يوجِّه حديثه لـ«آدم» قائلا:

- لم يعد التيار الديني ذا خطورة؛ فالدولة توفر المحتوى الديني المتوازن الآن.

كست وجه «آدم» ابتسامة ساخرة قبل أن يقول:

- هذا ما تظنه انت بحماقتك، إنها دورة ملعونة بين الحكم الأمني والحكم الديني الفاشل؛ فالتيار الديني الفاشي ما زال موجودا وبقوة.. صحيح أن المظاهر الخارجية لم تعُد موجودة من لحى وثياب إلا في بعض المجتمعات المغلقة التي خلفها العزل الشعبي لهم، لكنها لم تختفِ أو تبدل القلوب، لقد تم تقنينها وأصبح العالم الافتراضي هو مكانها المفضل.

تلك التيارات خفافيش ليلية تعمل في الظلام بكفاءة، لتمتص دماء الوطن.. الأديان، بكل ما تحمله من قداسة، أصبحت مجرد مسكنات وقتية يقبلها من يقبلها ويرفضها من يرفضها.. الإلحاد نفسه أصبح شرعا ومنهاجا.

الحضارة بموت الأخلاق تعيش أكبر محنة لها منذ أن هبط «آدم» - عليه السلام - على الأرض.

فكر «خالد» للحظات قبل أن يطلق أحد أسئلته المستفزة والمتكررة:

- إذًا انت تتبنى منطق القوة لردع المعارضين، لماذا إذًا تستنكره على النظام؟

لو كانت يد «آدم» حرة وكان هناك مجال للاحتكاك بـ«خالد» مباشرة، لربما صفعه بقوة، لكنه لم يكن يملك إلا الكلمات؛ لذا فإنه أجاب:

- أخبرتك من قبلُ يا «خالد» أن هناك لحظات في تاريخ الأمم تحتاج لشخص ما قد حسم أمره وترك قلبه في مكان لا يعرفه، هذا الشخص عليه أن يبدل مسار التاريخ، عليه أن يصنع، ببعض الدماء، ذلك العالم السحري الذي يبحث عنه البسطاء والعشاق، عليه أن يصنع وطنا حقيقيا بلا زيف.

هذا الشخص سيضغط زر القنبلة النووية لو أتيح له الأمر، وسيظل يتابع نتائج فعله طوال الوقت دون أن يهتز له جفن، ودون أن يذرف دمعة واحدة على ضحايا أبرياء كانوا هم وقود التغيير ذات يوم.

هذا الشخص سيترك للزمن مهمة محو الآثار القديمة كلها، فقط سينظر لميلاد الإنسان الجديد بكل فخر، ذلك الإنسان الذي لم يتعلم الغرور بعدُ، والذي لديه القابلية لمشاركة العالم الجديد مع غيره دون صراع.

هذا الشخص هو الرسول الذي لم يحمل للعالم رسالة سمأوية، بل حمل بداخل قلبه القاسي هبة إلهية تعينه على تخليص العالم من ترددِه.

كل الأفكار القديمة يجب أن تعامَل كالمخلفات، تخلص من التي لا تتوجه مباشرة نحو صلب الموضوع، يجب أن يتحول الموت إلى مجرد رقم والقتلى إلى إحصاءات مملة، ولتنتصرَ يجب أن يكون لكل تحرك ضدك رد فعل عنيف، إنك تسعى لإشعال ثورة ولبناء وطن.

كل القادة عبر التاريخ صنعوا مجدهم عبر مزيج هائل من القسوة والدماء، فقط الغاية هي ما كانت تبرر الوسيلة.

لم يستوعب «خالد» هذا الكم الرهيب من التناقضات وليٍّ عنق الحقائق، فاختار سؤالا لا معنى له ليخفف وطأة الحوار قليلا:

- هل الثورة مستمرة؟

صمت «خالد» للحظات ليستعيد انتظام تنفسه قبل أن يقول:

- حياة البشر سلسلة لا تنتهي من الثورات.. إنها رحلة سيزيفية معقدة لإقرار

التغيير المنشود، الذي لا يجتمع عليه مجتمع واحد.. هل الثورة مستمرة يا «خالد»؟ نعم هي مستمرة ومن قبل هبوط الإنسان على الأرض، عندما رفض أن يأخذ بالمسلمات وأكل «آدم» - أبو البشر - التفاحة.

فقط تنجح الأنظمة في دفن أحلام الأجيال عن طريق عوامل إلهاء مختلفة، ككرة القدم وسباقات السيارات العنيفة، وعن طريق المخدرات، الإلهاء هو ما تبرع فيه الأنظمة الحاكمة على مرِّ التاريخ، ومن ينجح في كسر شوكة هذا السلاح يستطيع أن يجمع من الحشود ما يكفي لحراك ثوري عاصف.

الثورة مستمرة لأنها نار أبدية لا تنطفئ ولا تهدأ.

راجع «خالد» تلك الأسئلة التي قام بإعدادها في رأسه قبل أن يقول:

- ما رأيك في هذه المقولة يا سيد «آدم»، التي أتت في أحد الفيديوهات المصورة لأحد قادة المعارضة بعد تنفيذ عملية اغتيال «البرقوقي» - رئيس جهاز أمن المعلومات - قبل عدة أشهر، والتي تقول:

- القتل ليس غايتنا، لكن تصفية الخصوم سياسة صحية وتحصد النتائج المرجوة، نحن نقتل الجزء ليحيا الكل؛ فمن دون تضحيات لن يكون هناك مستقبل؟

ظهر الإرهاق على وجه «آدم»، لكنه أجاب:

- ألم تستوعب بعدُ معنى التضحية أيها الفتى؟ حرية الوطن شجرة لا ترويها إلا الدماء والحيوات المبذولة، هناك من يدفع الثمن في كل وقت، وإن كانت هذه الوسائل العنيفة يجب أن تظل آخر الوسائل التي يلجأ إليها أي مدافع عن حرية وطنه.. يجب أن نمنح العالم فرصة بعد أخرى ليعيد فيها إصلاح نفسه، قبل أن نمحوه من الوجود لنبني على أطلاله عالما جديدا.

ظهرت على وجه «خالد» علامات تفكير عميقة، إن «آدم» يبدو مختلفا جدا عن آدم المصري الذي رآه في المحاكمة التي بثتها جميع وسائل الإعلام في حينها.

وكأنه قرر أن يجيب عن الأسئلة كلها بما يخالف مبادئه السابقة، لا يعرف

حقيقة تفسيره للأمر، لكن كمَّ التناقضات في أحاديثه يكفي لتنهار كل صورة صنعها له في ذهنه.. إنه يبدو دمويا ووحشيا.. هل تم هذا نتيجة سجنه وعُزلته؟ لا يعرف حقا.

قرر أن يلقي على مسامعه آخر سؤال قبل أن تنتهي هذه المرحلة من حياته، ليعود لحياته الطبيعية، فقال موجها حديثه لـ«آدم»:

- سيد «آدم»، هل تؤمن بفشل ثورتك؟

صمت «آدم» ثم قال:

- هل تراني أتحدث إليك؟

- نعم يا سيد «آدم»، أراك وأسمعك، لكن ما علاقة هذا بسؤالي؟

- أي أن عقلي ما زال يعمل، وقلبي ما زال يمارس مهمته بضخ الدماء وعشق الوطن.

- نعم يا سيد «آدم»، لكني لا أفهم.

- هذا يعني بالنسبة لك أنني على قيد الحياة، وما زالت مبادئي ومعتقداتي لم تتبدل ولم تتغير.

- نعم يا سيد «آدم».

- الثورة تعني الحياة، والحياة تعني الثورة، لا فارق هناك.. هذه تستمر من أجل تلك، وتلك تستمر من أجل هذه.

- لماذا هذه الثقة كلها يا سيد «آدم»؟

- الطبيعي أنه طالما اخترت خيار الفعل والتغيير، يجب أن تكون أكثر حيلة من الجميع، ويكون لديك دائما الخطة ب، ج، د.. خطتك السرية للنجاة في الوقت المناسب، انت تتحرك فوق سطح مشتعل والاحتراق أمر وارد جدا، فلا تسمح لأي شيء أن يقودك، كل العوائق التي ستواجهك لو لم تفاجئك ستكون معبرا إضافيا نحو الهدف المنشود.. الحياة معقَّدة بما يكفي لنأتي لها بحلول شديدة التعقيد، البساطة هي عبقرية العالم الجديد.

صمت «خالد» قبل أن يلقي قنبلته:

- إنك واهم يا سيد «آدم»، كل أحلامك هذه أضغاث أحلام، و...

وقبل أن يكمل حديثه دوَّى الانفجار الهائل الذي صم أذنيه، وشعر بانفجار آخر عنيف يدوي بداخله ويمزق خلاياه إربا ويصليه من الألم العنيف ما يجعل بقاءه واعيا مستحيلا، قبل أن تنطفئ الأضواء، وتليها صرخة عنيفة جدا خرجت من بين شفتي آدم المصري.

ليكتسي كل شيء حوله بالظلام وليذهب «خالد» إلى عوالم الغيبوبة، فلم يستطِع أن يشاهد تألق جسد «آدم» اللحظي ولا تعابير وجهه المتألمة، بعد تهشم الحاجز الزجاجي وانهياره واختفاء الحاجز الإشعاعي، ليحتوي الظلام كل شيء.

اختفاء

اندفع قائد السجن المركزي مع رجاله وسط الظلام في سرعة، والقلق والتحفز يظهران جليين على وجوههم المنفعلة، وقد أضاءت أضواء الطوارئ المكان بطريقة جعلت الجميع يتحولون إلى أشباح متحفزة وهم يحيطون بالقطاع الموجود بداخله غرفة «آدم» المخصصة للقاء ذلك الصحفي إحاطة السوار بالمعصم، في حين انهمك أحد التقنيين في محاولة فتح الباب المصفح بمنحه مصدر طاقة بديلا.

كان الغضب يظهر جليا على وجه قائد السجن، لكن ما جعله يتحكم في أعصابه أنه توقع كل ما سيحدث واستعد له..

فعند حدوث الانفجار المضلِّل بالقرب من السجن المركزي، وفور وصول دويه إلى مسامعه أطلق صافرة الإنذار الكبرى، وتحول المكان من فوره لخلية نحل مدججة بالسلاح، وبمجرد انقطاع التيار الكهربي عن المكان عملت منظومة الطوارئ على الفور فانطلقت أضواؤها لتمحو ظلام المكان خلال ثوانٍ معدودة، وتم عزل السجن تماما وتفعيل منظومة الدفاع الجوي، وانطلقت الكلاب الآلية لتمشط محيط السجن، في حين انطلقت فرقة خاصة لمكان الانفجار، ليشير تقريرها الأولي إلى أن الانفجار تم عن بُعد دون أضرار ملموسة، وربما كان الغرض منه تشتيت الانتباه عن هدف آخر.

التقارير التي يتلقاها كلها عبر هاتفه تفيد بأنه لم يتم نسف خطوط الطاقة الرئيسية القادمة من محطة الكهرباء الرئيسية؛ فرجاله يحرسونها على مدار الوقت، ومحطة الكهرباء الرئيسية نفسها تتم حمايتها عن طريق قوات الحرس الجمهوري.

إن انقطاع التيار الكهربي لغز جديد، لكنه لن يعوقه أو رجاله عن حراسة السجن، لغز يبشر بوجود جاسوس أو عميل بداخل السجن يساعد الإرهابيين على تخطي برنامجه الأمني، وهذا ما سيوجه إليه كل مجهوده لكشفه بعد أن يتأكد من تأمين سجنه.

أصدر أوامره الجديدة، فانطلق سرب من الحوامات الهجومية، المزودة بوحدات الإضاءة الفائقة، ليحيل المكان حول السجن إلى نهار، وليتحول السجن إلى ثكنة عسكرية تحتاج لجيش حقيقي لاختراقها.

كان التوتر يغزو قلب قائد السجن مع مرور الوقت، والأفكار السيئة تواصل رجم عقله بتوقعات سوداء، خاصة أن التقني المسئول عن اختراق القفل الإلكتروني قد تأخر كثيرا في فتح الباب.

لا يعرف حقيقة لماذا يشعر بهذا التوتر كله!

لقد استعد لهذه للحظة جيدا منذ سأورته الشكوك تجاه ذلك الصحفي الحقير.. كما أنه لم يتحرك خطوة واحدة من دون علم رؤسائه.. لقد نسَّق مع إدارة الأمن العام من أجل متابعة لقاءات «خالد» والمزيد من الدعم لحماية سجنه.

وها هو يتلقى إشعارا أمنيا بأن فرقة كاملة من جنود الأمن العام في طريقها إليه لإجهاض أي محأولة لاقتحام السجن، كما أنه تم غلق جميع الطرق الرئيسية والفرعية المؤدية إلى المكان كإجراء احترازي.

إذًا لماذا يشعر بهذا التوتر كله؟

لقد احتاط لكل شيء، والمكان أصبح مؤمَّنا، ومن الصعب، بل من المستحيل، إخراج بعوضة منه من دون إرادته.

ربما هو ضوء الطوارئ الشاحب الذي يبعث على توتره.

تطلع حوله إلى الممر الذي يحتوي على الزنازين، وعيناه تلتهمان جميع الأبواب بدقة وصرامة.

جميع الزنازين مغلقة برتاج إضافي تم إعداده لحالات الطوارئ المماثلة..كل

شيء يسير كما خطط له، لماذا التوتر إذًا؟
قطع أفكاره صوت ارتداد اللسان المعدني الخاص بالرتاج الإلكتروني، وصوت الباب الثقيل وهو ينسحب إلى داخل فجوة في الحائط لينفتح في بطء.
وعلى الفور اقتحم قائد السجن وجنوده المكان لتصعقهم المفاجأة.
فـ«خالد» كان ممددا فوق الأرض والدماء تنزف من مئات الجروح الصغيرة في كل جزء من أنحاء جسده، في مشهد بشع لم يُظهره الظلام جيدا، وكأن عشرات القنابل الصغيرة تفجرت عبر جلده، في حين كان المقعد المقيد إليه «آدم» موجودا لم يمسسه أذى، والشيء الوحيد المثير للدهشة أنه لم يكن هناك أثر لآدم المصري بداخل الغرفة...أي أثر.

* * *

انقض رجال «رفيق» على البناية التي تختبئ بداخلها «ليلى» في سرعة ومهارة، ينسقون مع بعضهم البعض عن طريق أجهزة لا سلكية حديثة مثبتة بداخل أذن كل منهم، عبر شبكة لا سلكية مغلقة ومؤمَّنة ضد الاختراق.
كانوا يتحركون جميعا باحتراف شديد ينم عن تدريب وتنظيم جيدين؛ فحاصروا البناية والشارع من جميع الجهات، في الوقت نفسه الذي هبطت فيه مجموعة أخرى من رجال «رفيق» فوق السطح من داخل حوَّامة مجهولة لا تحمل أي أرقام تعريفية.. ليصعد بعدها «رفيق» مع مجموعة من رجاله الدرج الرخامي في رشاقة وسرعة، في حين أوقف أحد رجاله جميع المصاعد عن العمل، ووقف أحدهم ليحرس أنبوب القمامة كإجراء وقائي.
وخلال لحظات كان «رفيق» يقف أمام «ليلى» وجها لوجه، التي أخذت ترتجف في رعب بعد أن قيَّدها الرجال في قوة وفحصوا فمها للبحث عن كبسولة السيانيد التي لم يعثروا عليها.
في حين انهمك ثلاثة من رجال «رفيق» في فحص الشقة فحصا دقيقا، فانطلقوا بكل حماس يقلِّبون الأثاث ويحطمون الأواني والتحف الخزفية ويهشمون

ويمزقون الجدران المصنوعة من ألواح الجبس المقاوم للرطوبة، ويفككون كل أجهزة المنزل الكهربية، بدءا من المبرد إلى المغسلة فالموقد فالسخان، في مهارة وسرعة.

المهارة والدقة والسرعة كانت سبب اختيار التنظيم لـ«رفيق» ورجاله، على الرغم من تكلفة استئجارهم الفادحة، إنهم أمهر صائدي الجوائز في القُطر المصري كله.

كان من الواضح أن لـ«رفيق» نفوذا ما على رجال الشرطة؛ فعلى الرغم من كل الضجيج الذي سببوه لم يظهر أحدهم، حتى الدورية القريبة لم يتحرك منها رجل واحد لتفقد الأمر، الفساد يفوح من الأمر كله.

وخلال دقائق معدودة كانت القنبلة بين أيديهم، وكذلك «ليلى».

وكما ظهر «رفيق» في الحي، اختفى تماما دون أثر، بعد أن أتم مهمته البشعة، وترك خلفه مجزرة وحشية رهيبة، فسرها مذيع نشرة التاسعة بحرب عصابات، تشير أصابع الاتهام فيها إلى إرهابيي المعارضة.

* * *

أتم الملثم مهمته المرهقة في وقت قياسي ثم عاد إلى الفيلا التي يقطنها، وبداخله طوفان عاتٍ من المشاعر المتضاربة.

إن خطته أوشكت على الانتهاء، وانتقامه سيكتمل خلال ساعات محدودة، وعلى الرغم من ذلك لا يشعر بذلك الشعور بالنصر، الذي تمنى أن يشعر به ليشفي غليل قلبه الجريح.

لقد تدرب بداخل معسكرات الجيش، في القسم النفسي تحديدا، على تحييد مشاعره والسيطرة عليها، خاصة في تلك المهمات التي تحتاج لردع وقسوة في التعامل، لكنه الآن يشعر بشرخ هائل في قدرته على الصمود.

حأول أن يستعيد تلك التدريبات الذهنية، رغبةً منه في أن يبدل اتجاه أفكاره لاتجاه آخر ويوجهها إيجابيا نحو أداء مهمته كما تدرب من قبلُ.

وفي النهاية نجح، إلى حدٍّ ما، في توجيه كل أفكاره نحو مصير ذلك السفاح سميح رياض، وبدأ عقله في عزل مشاعره وهو يفكر.. هل ينال مصير رجاله أم يختصه بانتقام خاص؟ إن هذا الوغد يستحق أن يموت ألف مرة جزاءً وفاقًا لما ارتكبه من جرائم وفظائع خلال مسيرته المهنية الدموية.

أعادت هذه الأفكار عقله إلى لجة الصراع، فعاد إلى سيرته الأولى، ونسي، أو تناسى، كل ما تلقاه من تدريبات ذهنية.

إنه يرغب في الانتقام من هذا الحقير.. يريد أن يصليه من العذاب ما يجعل أرواح ضحاياه تهنأ في قبورها، لكن روحه قد ملَّت هذا الأمر، ولا يعرف كيف يستمر فيه، إنه يفعل كل شيء بالقصور الذاتي..

كل شيء أصبح بلا معنى، حتى أصداء المجزرة التي قام بها سميح رياض في مصنع الروبوت أصبح تأثيرها بعيدا عن روحه.

الحقيقة أن قتل «سميح» أو رجال الشرطة لن يعيد شقيقته أو زوجها للحياة، كما أن لدى معظم هؤلاء الأوغاد أطفالا وزوجات ينتظرون عودتهم كل مساء.

النصيحة الثابتة لكل قاتل:

ألا يتعرف على هدفه، ألا يقترب منه حتى يرى جانبه الإنساني.. يجب أن يبقى الهدف مجرد رقم، لا شخص لديه حياته وطموحاته وأحلامه.

فحينما يتحول الهدف لإنسان تبدأ عقدة الذنب في الظهور، ويبدأ ضميرك في تأنيبك وعقابك وتأخذ قناعاتك في الاهتزاز وتصير مهمتك مهما كانت نبيلة.. جريمة.

إنه الآن سيرمِّل زوجة ويتيم أطفالا ويهدم كيان أسرة بل أسر كاملة.

كانت الأفكار تموج في عقله كنارٍ تحرق في الخلايا، بدا وكأن لديه حالة فصام متأخرة، وكأن بداخله شخصين أحدهما شرير والآخر جيد. هناك صراع رهيب يهشِّمه من الداخل ويمزِّق كل منطق لديه.. هناك أشياء أكثر خطورة من قاتل يتتبعك، هي أنك تكون انت هذا القاتل، والأكثر خطورة ألا تكون راضيا

عمَّا تفعل، ساعتها انت تهوي إلى قاع الجحيم بسرعة الضوء.
كان عليه أن يحدد اختياراته وأن يعيد برمجة أهدافه بداخل عقله، عليه أن يقرر أن يستمر أو يتراجع، إن خطته مكتملة الآن، لقد قام بزراعة تلك المتفجرات الجيلاتينية بداخل أجساد رجال الشرطة الخمسة المتبقين وجعل من كل منهم قنبلة بشرية شديدة التدمير، تحتاج منه فقط لإرسال إشارة فائقة القصر لتنفجر، كما أن سميح رياض يحيا الآن في جحيم من الخيالات والهلأوس المرعبة التي جعلته يتردد في سرية على طبيب نفسي شهير، وجعل فرصة اقتناصه أكثر سهولة.
فقط عليه أن يقرر..
هل سيستمر في اللعبة حتى النهاية أم سينسحب وكفاه ما أريق من دماء؟.
كان يشعر بضغط نفسي مروع، وفي النهاية قرر أن يستسلم لجهاز النشوة، وإن لم يجرؤ على تعاطي «أبوللو»، لقد أقسم ألا يقترب منه قبل أن ينهي انتقامه.
والحل كان لديه، وأعده كخطة بديلة في حالة سقوطه في هذا المستنقع الرهيب.
ومن إحدى الخزن المعدنية، أخرج جهاز نشوة خاصا، قام بتوصيله بمصدر للطاقة، ثم وضع الأقطاب الإلكترونية المتصلة به على رأسه..
لحظات ثم ذهب إلى عالم الغيبوبة، وهناك تجسَّد حقده من جديد.
لقد رأى جثتي «شذى» و«رمزي» تُبعثان من جديد، ورأى جثث العمال تحاصره وتطالبه بالقصاص، ثم رأى والديه حزينين يبكيان على فقد فلذة كبدهما، واجتاحه غضب شديد.
وعندما انتهى مفعول الجرعة الرقمية السوداء، كانت كل الأفكار قد تلاشت من عقله، ولم يتبقَّ إلا شعور واحد: الانتقام.

* * *

أصاب السعار رجال الحراسة بداخل السجن المركزي بعد اكتشافهم هروب «آدم»، فانطلقوا يبحثون في كل شبر من السجن عنه، ولم يتركوا حجرا إلا بحثوا تحته، وغضب رئيسهم ينتقل إلى نفوسهم مع الوقت، فأصبحوا أكثر غلظة مع المساجين ومع المدنيين الذين قادهم حظهم السيئ ليخيموا بجوار المكان، خاصة أن الجهد الذي بذلوه طوال الساعات الماضية يبدو بلا جدوى. ثلاث ساعات دون أن يفكوا طلاسم الأمر.

تم فحص غرفة اللقاء بعشرات الوسائل المختلفة دون نتيجة، لقد تبخر «آدم» في الهواء.. تلاشى وكأنه عدم، وهذا غير مقبول تماما.

طريقة انقطاع التيار الكهربي ما زالت غامضة، وطريقة هروب «آدم» ما زالت أكثر غموضا.

وسائل الإعلام أصابها الجنون هي الأخرى بعد أن تسربت الأخبار إليها، وهي تتحدث عن ذلك الهجوم الخاطف الذي حقق هدفه دون أن يسقط ضحايا، وحرر زعيم المقاومة والأب الروحي للثورة الأخيرة، الذي ما زال أتباعه يقسمون له بالولاء، والدليل على ذلك ملايين طلبات إعادة المحاكمة التي كان يتلقاها النائب العام طوال السنوات الخمس الماضية ويتم إلقاؤها في صناديق المهملات.

حالة الطوارئ أُعلنت في أنحاء العاصمة دون استثناء، الكباري الرئيسية ومحطات مترو الأنفاق تم غلقها ليصاب البلد بالكامل بالشلل.. كما تم منع كل الرحلات الجوية والنهرية والبرية، وتم إطلاق المتعقبين الآليين لتتحول المدينة إلى مدينة الرعب.

وتم مد حظر التجول ليشمل ساعات اليوم كله، وتحولت العاصمة إلى سجن كبير مغلق، وانتشرت قوات الأمن العام في كل مكان، وأصبح موقف جهاد رشيد والمسئول الكبير حرجا، وبشدة، وانتشرت شائعات غير مؤكدة عن اعتقالهما.

خالد صبري يقبع في مستشفى السجن شديد الحراسة بين الحياة والموت بعد

أن فقد جسده معظم دمائه وأصيب بعنف في أماكن متفرقة من جسده، الفحوصات الأولية تدل على حقنه بمواد مجهولة لم يتبقَّ لها أثر بعد اختفاء «آدم»، والمحققون متحفزون لاستجوابه حتى آخر قطرة من حياته.

حملة واسعة من الاعتقالات العشوائية والإعدام الوقتي تتم على نطاق واسع، أجهزة سيادية تستعد للتدخل؛ فهروب «آدم» قد يعني موجة ثورية جديدة والمزيد من الاضطرابات، ولا بد من احتوائها قبل أن تتفاقم الأمور وتخرج عن السيطرة، خاصة أن البلد في حالة حرب، بسبب المياه.

لم يعد أحد آمنا مع سلسلة المداهمات التي تطال جميع المنازل، معارك محدودة تتم بين النظام وبعض العصابات أو المتمردين يحسمها النظام بكل قسوة وعنف.

الخوف بسط مظلته على العاصمة، في حين بدأت تتهيأ فرق المقاومة لثورة جديدة..

وبداخل أحد المنازل الآمنة بالقرب من القطاع سبعة، كان «آدم» هناك يرقد بداخل تابوت زجاجي معزول ومعقَّم، بعد أن تم لفه بضمادات حديثة تحتوي على مادة خاصة تعمل على شفاء جروحه المتعددة التي أصابته نتيجة اختراق تلك الجزيئات النانومترية الناقلة لجسده، في حين يعمل شعاع خاص بداخل التابوت الزجاجي على معادلة ضغط سوائل جسده وإعادة قراءته الحيوية إلى طبيعتها بعد رحلته الرهيبة المفاجئة، التي تمت عبر تقنية انتقال آني شديدة التطور، أُعدت لهذا الغرض منذ زمن.

إن تأثير هذا الانتقال المفاجئ على الخلايا مروِّع، خاصة أنه لم يتم عبر غرفة معادلة الضغط التي تسبق عملية الانتقال.

وكان من الواضح أن خلايا «آدم» أُجهدت، وبشدة، وأنه سيحتاج لوقت طويل قبل أن يستفيق.

«ليلى» كانت هناك، ومعها كل زعماء المقاومة الذين أصروا على حضور ذلك الحدث الاستثنائي على الرغم من خطورة الأمر، ولم يظهر أثر لـ«رفيق» بعد

أن أتم مهمته.
الجميع كانوا يشعرون بنصر عظيم ومشاعر متضاربة.
«ليلى» كانت تحلم بذراعي «آدم» القويتين وبكل أحلامها المؤجلة معه، وبأن قدومه سينهي معضلة القنبلة، وإن كانت تشعر بذنب عظيم نتيجة المذبحة التي تمت من أجل العثور عليها.
قائد المقاومة المسن شعر بالخلاص، وبأنه أزاح عن كاهله عبئا رهيبا.
باقي قادة المقاومة والأفرع الميدانية شعروا بالحماس، وبدأت لجان المقاومة الإلكترونية في نشر الخبر عبر أرجاء العالم كله.
ولم يعد أمام الجميع إلا الانتظار.
وفي عالم الغيبوبة كان يقبع هناك..
الأسطورة.

* * *

بعد ثلاثة أيام قبع الملثم في غرفة الفندق المطلة على مركز الأمن العام، يتابع الدوريات التي تسلم بعضها مهمة الأمن.. لقد تحوَّل المكان لخلية نحل من كثرة المترددين عليه من قادة الأمن والمساعدين، خاصة بعد أن تم إنشاء غرفة عمليات دائمة بالمكان وبعد أن تم إلغاء جميع الإجازات، بلا استثناء.
كان برنامج مقارنة الوجوه يعمل على تعقب وجوه رجال الشرطة الخمسة، الذين حضر منهم إلى المركز الرئيسي ثلاثة حتى الآن، ليكونوا من فرق تأمينه الرئيسية.
الإرهاق والتوتر يعصفان بكيانه مع ما بذله من مجهود طوال الأيام الثلاثة السابقة، خاصة أن جسده رفض الاستسلام للنوم مع حالة البلد المشتعلة، وتلك الإجراءات الأمنية الاستثنائية التي يفرضها الأمن العام.
إغلاق المدينة تسبب له في مضايقات كثيرة، لكنه تغلب عليها ببطاقة عمله في القوات الخاصة.
لم يكن يحتاج لأي أسلحة، فقط هاتفه المتطور وحاسوبه الهولوجرامي.

والآن لم يكن عليه إلا الانتظار.

مرت ساعة كاملة قبل أن يحضر الشرطيان المتخلفان، ليكتمل العدد، ولم يحضر سميح رياض؛ لأنه كان يشرف على الفرق الميدانية التي تعمل على تمشيط المدينة بحثا عن آدم المصري، وكان هذا مناسبا له وبشدة.

كان عليه أن يقوم بخطوة أخيرة قبل أن يقوم بمهمته الحالية، وبكل تركيز بدأ بإرسال محتوى رقمي خاص إلى كل وسائل الإعلام مع إعلامهم بمفاجأة قريبة ستتم بقلب العاصمة، فلا بد للعالم كله أن يرى نتيجة انتقامه، لا بد للجميع أن يشاركه تلك اللحظة الحاسمة.

ومن دون مشاعر محددة قام بضبط إشارة الانفجار، لتنطلق بعد ست ساعات من الآن، ثم ترك جسده المرهق ليتهاوى فوق الأرضية الباردة.

* * *

تغلَّب جسد «آدم» القوي على كل آثار الانتقال الفجائي العاصف التي أصابته في رحلته الآنية المذهلة، وكأن روحه الحبيسة كانت تهفو لنسيم الحرية، فأجبرت جسده على استعادة قوته في وقت قياسي، فلم يبقَ في الغيبوبة الوقت الذي افترضه له الأطباء، بل تجأوز التوقعات كلها واستيقظ ليفاجِئ الجميع كما اعتاد دائما.

لقد استفاق «آدم» في مساء اليوم التالي بكامل يقظته ووعيه، وإن ظل في غرفة معادلة الضغط يوما آخر ليستعيد جسده طبيعته، وفي النهاية كان بينهم.

أسطورة تُبعث من جديد.

ساعة كاملة قضاها مع «ليلى»، بثها فيها كل أشواقه ولهفته، ومنحته هي من الدموع ما يكفي لإنشاء بحيرة صغيرة، قبل أن يتركها لأحلامها الوردية، ليراجع ذلك المحتوى الرقمي الذي أعده له رجاله، ليحاط علما بما فاته من أحداث طوال خمس سنوات قضاها في عزلته الإجبارية بداخل سجنه الرهيب.

كان من الواضح أن الأمور تتردى نحو الهأوية، إن حالة القطاع سبعة مزرية

بالفعل والقلوب تموج بالغضب، وعشرات الآلاف من الضحايا قد سقطوا خلال السنوات الخمس الماضية في طول البلاد وعرضها، هذا غير مئات الآلاف من المعتقلين الذين تمت محاكمتهم عسكريا والزج بهم في غياهب سجون لا تراعي آدميتهم، وعلى الرغم من ذلك ما زالت المقاومة على أشدها، وما زال الجميع مستعدين لبذل المزيد من الدماء من أجل تحرير وطنهم، وعليه ألا يخذلهم.

ما زال الفساد كما هو، وما زال البسطاء يعانون، وما زال الأمن يبطش.. لم يتغير شيء، إلا أن المقاومة قد تم اختراقها بشكل عنيف.

كان ذهن «آدم» مجهدا، لكنه قرر التحرك، لا بد أن يطرق الحديد وهو ساخن، عليه ألا يخذل رجاله ويستغل حماسهم.. لا بد من عملية نوعية للمقاومة، يعلن بها عن تحرره واستكماله ما بدأه منذ سنوات..

لا بد أن يتحرك قبل أن يضيع كل شيء..

ولا بد له من الاستعداد للانتقال للمنزل الآمن التالي؛ فالأمور لم تعد آمنة كسابق عهدها..

وعليه أيضا أن يجتمع بزعماء المقاومة لوضع لمسات خطته الأخيرة، والأهم أنه عليه أن يعقد قرانه على «ليلى»؛ فلم يعد هناك مجال للتأخير أكثر، كفاه ما ضاع من عمر، وما عانياه معًا.

الجزء الخامس
النهاية

الانتقام

استيقظ الملثم من غفوته بداخل غرفة الفندق المطلة على مبنى مركز الأمن العام الرئيسي، التي اتخذها الملثم كنقطة آمنة للمراقبة، قبل ساعة كاملة من الموعد الذي برمج عليه هاتفه المتطور ليطلق إشارة التفجير فائقة القصر، التي ستعمل على تفجير القنابل الجيلاتينية الخمس المزروعة بداخل أجساد رجال الشرطة، ليمحو مركز الأمن الرئيسي سيئ السمعة من الوجود.

وربما لو لم يكن يرتدي قناعه الأسود لظهر الإرهاق على وجهه جليا، وبدا من ذلك الشحوب الذي كسا وجهه كأنه لم ينم لحظة واحدة منذ أسابيع، وربما شهور.

شعر بوهن غريب يدب في أعماقه فتنأول إحدى حبوب النشاط المصنعة في المختبرات العسكرية، والمحظور تدأولها بين المدنيين، ليجبر جسده على الاستمرار وعدم الانهيار قبل أن ينتهي من مهمته شديدة الخطورة، إن هذه اليقظة الصناعية لها آثار جانبية، لكنه لا يملك غيرها وسيلة ليستمر واقفا على قدميه؛ فالأحداث المتلاحقة التي عاصرها اليوم تخبره بأن النوم لن يكون هدفا سهل المنال في المرحلة المقبلة.

فقد اشتعلت الدنيا في كل مكان، ومن قلب الرماد خرج مارد الغضب الأمني ليمارس قمعه وبطشه، خاصة بعد بث رسالته الرقمية من خلال الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي، وبعد الهروب المدوي لآدم المصري من محبسه..

لينهمك بعدها، ولمدة خمس عشرة دقيقة، في ممارسة بعض التمارين الرياضية العنيفة، ليستعيد بها جسده لياقته وصفاء ذهنه، ومع المجهود

الذي بذله وسريان مفعول حبَّة النشاط في دمائه شعر بالنشاط مجددا يسري في خلاياه.

الآن هو جاهز تماما لعدة أيام من القتال المتواصل، ولن يوقفه شيء عن تحقيق انتقامه الكامل والمدوي.

الحقيقة أن الأمور تزداد صعوبة؛ لأنه يعمل منفردا في هذه المرحلة المعقدة من مهمته، لكنه لن يألو جهدا قبل أن يحقق غايته.

برنامج التعقب يخبره بأن أهدافه في مواقعها ولم تغادر، لا بد أنهم يعدون العدة لعملياتهم الوحشية كأنصاف آلهة، دون أن يدرك كل منهم أن ملك الموت قد أضاف أسماءهم إلى قائمته التي لا تخلو في لحظة من اللحظات من الضحايا.

دوَّت النبضة معلنة عن وصول بريد إلكتروني جديد فتحفز جسده، قبل أن يطالع تلك الرسالة الإلكترونية المحدثة من عميله القابع في مركز معلومات الأمن العام، التي تحتوي على شفرات الاتصال الجديدة التي وُزعت على رجال الأمن، ليدخلها عبر برنامج التجسس المتصل بالأقمار الصناعية، ليتابع كل المستجدات عبر هاتفه المتطور.

كان عليه أن يعد نفسه للخطوة الأخيرة في خطة انتقامه، إن سميح رياض ما زال على قيد الحياة وما زال يمارس مهنته في إراقة الدماء بحماس منقطع النظير، هذا الوغد لم تهزمه تلك الأوهام التي يبثها له يوميا في أحلامه، والتي تكفي لإفقاد أي شخص آخر توازنه وتقوده نحو الجنون.

ربما لأن روح ذلك الوغد قد ماتت منذ زمن مع كل هذا الكم من الأرواح التي أزهقها دون ذرة ندم.

هذا الحقير بلا ضمير، ويكفيه ما نعم به من وقت على قيد الحياة، إن القبر هو المكان الوحيد الملائم لأمثاله، القبر فقط ما سيحتوي شروره ويوقف نهر الدم المتدفق.

فتح قناة الأخبار على حاسوبه ليتابع التطورات المتلاحقة التي أصابت

الجميع بصدمه مروعة.
كان من الواضح أن الأمور تسوء جدا بعد هروب آدم المصري، مع ما يلف طريقة هروبه من غموض.
إن أنباء المداهمات الوحشية لا تتوقف، ورجال الأمن يستغلون قانون الطوارئ الاستثنائي بأبشع ما يكون، والضحايا بالمئات.
إن هروب آدم المصري في هذا التوقيت علامة أخرى ترسلها له السماء.
علامة تخبره بأن عليه أن يتم مهمته على الفور، وعلى أكمل وجه، لعلها تكون شرارة الثورة التالية.
همَّ بالنهوض ليغادر المكان عندما رأى رسالته المصورة التي أرسلها منذ ساعات إلى جميع القنوات الفضائية، والتي كانت تبثها بالتتابع مع أخبار المداهمات وأخبار تساقط خلايا المقأومة المدوي، لا يعرف لماذا قرر أن يسمعها للمرة الأخيرة..
وعلى الشاشة الهولوجرامية التي يبثها حاسوبه المحمول، ظهر وجهه الملثم وخلفه صورة شديدة الدقة والوضوح لوجهي «شذى» و«رمزي» في ليلة زفافهما.
ثم جاء صوته الصارم ليخترق أذنيه مع تلك المرارة التي تفوح منه وهو يقول:
- «بسم الله الرحمن الرحيم (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ) صدق الله العظيم.
هذه هي رسالتي الأولى والأخيرة إليكم يا شعبنا العظيم، جميعكم لا يعرفني ولن تزيدكم المعرفة أي شيء ولن تثير حماسكم لشيء، أنا مجرد جندي من جنود الحق، جندي خاض الكثير من الحروب دفاعا عن أرض هذا الوطن وثراه، جندي لم يرفع سلاحه إلا دفاعا عن الحق ومن أجل الحق، ومن أجل رفعة هذا الوطن، جندي لم يتصور يوما أن يرفع سلاحه في وجوه أبناء وطنه، لكنه اكتشف، بعد أن فقد أقرب الناس إليه على يد النظام الغاشم،

أن الوطن ليس مجرد كلمة تُكتب في البطاقة التعريفية، بجوار خانة الاسم، الوطن هو أنتم، ومن يخونكم تحت أي مسمى فقدْ فقدَ الانتماء لهذا الوطن واستحق جزاء خيانته، إنني الآن أقوم بجزء من مهمتي المقدسة، أبحث عن القصاص العادل، من ترونهما الآن على شاشاتكم المجسمة بتلك البسمة المقبلة على الحياة، هما أقرب الناس إلى قلبي: شقيقتي وزوجها، اللذان لم يرتكبا جريمة أكبر من عشقهما لهذا الوطن وقتالهما من أجل حريتهما.

هذان الوجهان لهما اسمان، لكنهما لم يعودا يُدرجان في سجلات الأحياء.

هل تعرفون لماذا؟

لأن أوغاد النظام المستبد قد استغلوا قانون الطوارئ الذي أقر بموافقتكم، فسحقوهما وسحقوا معهما أحلامهما في غد سعيد.

لقد حققت معهم نصف انتقامي، والنصف الآخر ستشاهدونه معي خلال ساعات.

إن غياب العدل الحقيقي والقضاء الشريف جعلني أتحول إلى قاضٍ وجلاد، لا تخدعوا أنفسكم بخدعة القضاء العادل؛ فمثله لا يوجد على هذه الأرض، وحتى لا أطيل عليكم أخبركم بأنني أحقق عدالتي الخاصة، وهذه المرة أنتم معي في هذا الأمر.

إن استكانتكم وصمتكم واستسلامكم للظلم.. كل ذلك هو ما جعلني أشارككم هذا الأمر لتعرفوا أنه لا أحد في مأمن في ظل هذا القهر والجور..

قصة (رمزي) و(شذى) قد تتكرر مع أي منكم، ومن سيصمت منكم مجددا لا يلومن إلا نفسه.. لأنه بصمته واستسلامه منح للجلاد الحبل الذي سيشنقه به ومَن بعده.

أنا أنفذ عدالة الله في الأرض، الله الذي كتب أن القصاص حق، وأن الساكت عن الحق شيطان أخرس، وأنا لم أعد أومن بالصمت؛ فالصمت موت.

القصاص هو الحق وهو العدل على الأرض؛ لذا فلتنتفضوا ولتثوروا، ولتصنعوا لأولادكم غدا لا يقبل ألا تشرق عليه شمس الأمل.

الآن أنا كارت محروق.. لكن باقي الكروت هي أنتم، وأنتم لو اتبعتم طريق الحق فإنكم لغالبون.

الثورة حياة، فلا تقتلوا أنفسكم بصمتكم».

انتهى البث، فتحرك الملثم لينتهي من مهمته، بعد أن حدد، عن طريق أجهزة التتبع، موقع سميح رياض الجديد.

كان يعرف أن القصاص هو العدل، والعدل أن يواجه تبعات أفعاله، لقد كشف نفسه لأنه أراد أن يخضع هو أيضا للحساب، لكن بعد أن ينهي مهمته؛ فالعدل يجب أن يطبَّق على الجميع.

كان يسعى لإنهاء مهمته دون أن يعرف أن رجال الأمن في طريقهم إليه بعد أن حددوا مكانه عن طريق تصريحه الأمني.

* * *

اجتمع آدم المصري مع قادة الأفرع الميدانية الثلاثة ومع قائد المقاومة الأعلى المسن في منزل آمن جديد، يتابعون كل تبعات هروبه وبطش رجال الأمن برجالهم بداخل العاصمة والمدن الرئيسية الثلاث.

جواسيسهم في كل مكان يخبرونهم أن الأوامر هذه المرة صدرت من مؤسسة الرئاسة بسحق كل خلايا المقاومة بأي ثمن، وكل من يقع تحت طائلة الشك.. لقد أصبح الأمر حربا علنية حقيقية، والنظام لن يقبل بأقل من فنائهم هذه المرة.

إن خبرة النظام في قمع الاحتجاجات طوال عقود أنبأتهم بأنهم على مشارف ثورة جديدة.

والقمع كان طريقتهم لوأدها في مهدها.

الحل الأمني أثبت قدرته على النجاح عبر التاريخ.

أكثر من عشرة آلاف عملية اعتقال تمت خلال الساعات الأخيرة، وضحايا قانون الطوارئ تعدوا الألف، وما زال العدد في تزايد.

ظهور الملثم الذي عرف هويته قادة المقاومة وأذناب النظام، بعد ربطه بـ«شذى» و«رمزي»، أشعل الأمور أكثر، وكان عليهم أن يضعوا خطة متكاملة لفرملة آلة النظام الوحشية التي بدأت في سحق رجالهم، بعد أن أخذوا تفويضا مفتوحا من رؤوس النظام.

ولأن الخطط الجيدة لا يتم صهرها تحت الضغوط الشديدة، خاصة مع اختراق المقاومة ومع حالة التنظيم القديم المترهلة، ومع أخبار المقاومة المسلحة التي بدأت تظهر، وبطش النظام.. كان لا بد من خطة استثنائية..

وظهرت القنبلة كشبح مخيف أمام الجميع.

ناقش الجميع الأمر وخطة الإخلاء، وعلى الرغم من بشاعة الأمر وضعوها كخطوة أخيرة وكحل نهائي روَّعهم هم أنفسهم، وفي التوقيت نفسه تم تذخير القنبلة وحملتها فرقة خاصة للموقع المنشود في سرية تامة بقلب العاصمة، تحت إشراف قائد المقاومة المسن.

وبعد أن أنهى «آدم» اجتماعه وإصدار أوامره الجديدة لرجاله، استمع لآراء الأطباء الصارمة وقرر أن يخلد إلى الراحة.. وبقلب غرفته بداخل ذلك المنزل الآمن كانت آلاف الأفكار تتصارع في رأسه، ومن بينها ظهر شبح خالد صبري، الصحفي، الذي تمت التضحية به من أجل إخراجه من سجنه الرهيب.

إن خالد صبري يحتضر ويعاني الآن سكرات الموت في مستشفى السجن، والخبر الجيد الوحيد في الأمر أن كل محاولات النظام في استقراء أي معلومات من ذاكرته عبر خوذات الأفكار قد باءت بالفشل مع غيبوبته وإصاباته العنيفة.. وهي تضحية أقل ما يقال عنها: فادحة جدا؛ فله طفلة تنتظر عودته، وأحلام وطموحات ستزول بموته..

العنف مقابل العنف.

الحل الأكثر دناءة ووحشية عبر التاريخ، لكنه لن يتورع عن انتهاجه لو أُجبر عليه؛ فالأمور تغيرت الآن ومعها تغير هو ذاته.

إن الساعات التي جلسها مع قادة المقاومة، والتي ناقش فيها كل الأفكار

والتداعيات، بالإضافة لذلك المحتوى الرقمي الذي شاهده، والذي امتد لخمس ساعات كاملة، جعلته يبدل الكثير من أفكاره، ويتبنى كل الأفكار التي لم يكن ليتقبلها في وقت سابق.

الأمر الذي لا مفر منه أن التغيير يجب أن يشمله ويشمل أفكاره هو الآخر؛ فالجميع يعتمدون عليه الآن، وكل نقطة دماء تراق في عنقه، ولا يجب أن يسمح بأن تضيع هدرا، وعليه أن يستغلها ليحرر وطنه من براثن هذا النظام الوحشي وزبانيته.

كانت هناك أسئلة لا يعرف حقيقة إجاباتها، منها:

- كيف تحوَّل النظام إلى هذه الدرجة من الوحشية؟

- ما العامل الذي جعل النظام يختار الحل الأمني المخيف وينفق عليه من الموارد ما يكفي للنهوض بالشعب ودعم اقتصاده؟

- هل تلبستهم شياطين السلطة فظنوا أنهم خالدون وأن مقعد السلطة يجعلهم محصنين وبعيدين عن انتقام الخالق؟

- أيَّة لعنة تحيط بذلك المقعد المخيف؟

إن ما يحيره وبشدة:

- كيف أن الرئيس المدني الذي جاء عبر صناديق الانتخابات هو من أقر هذه الأمور؟

- كيف استطاعوا السيطرة عليه؟ وأي أفكار زرعوها بداخل عقله ليتبدل بهذا الشكل ويعادي من أتوا به؟

- كيف تم إقرار قانون وحشي كقانون الطوارئ الأخير؟

إنه يحوِّل رجال الشرطة إلى قضاة وجلادين دون رادع أو مسئولية.

إن المنطق ليعجز عن فهم مثل هذه الأمور.

حأول أن ينام دون جدوى، فأخذ يتقلب فوق الفراش المزوَّد بوسائد هوائية خاصة وهو يشعر بآلام شديدة في جسده المرهق من جرَّاء عملية الانتقال الآني المؤلمة، فقام من فوق الفراش ليدور في غرفته كليث جريح..

وفي عقله دارت الفكرة الصاعقة.
الحرية باهظة الثمن، ولا تُنتزع إلا بالدماء.
أي حكمة وراء هذا الأمر؟ وأي شرور سكن الكون ليجعل أبناء الجنس الواحد يتقاتلون بهذا العنف والوحشية؟ أما زالت لعنة هابيل وقابيل تطاردهم؟
لقد قاد الثورة السابقة بعد أن دُفع دفعا إلى الأمر، بعد عمليته المبهرة بنسف المركز التشريعي كساحر؛ باستخدام تلك التكنولوجيا المتطورة التي منحها له صديقه العالم سمير رضوان، قبل أن يلقى مصرعه في إحدى المواجهات أثناء بحثه عن حلمه.
كان يتمنى أن يركع النظام بعد الضغط الشعبي الهائل والعصيان المدني الشامل، ليوقف شلال الدماء المتدفق، لكن النظام أبى أن يستسلم وقابل السلمية بوحشية رهيبة، الآلاف سقطوا في غمضة عين ومئات الآلاف أكملوا مسيرتهم.
كان من الممكن أن تنجح الثورة بعد أن شلت مفاصل الدولة وحدث العصيان المدني الكبير، لولا أن أتت الخيانة من أحد قادة المقاومة المقربين، الذي تمت استمالته بالمال والوعود.
لقد تسربت كل المعلومات عن الصف الأول من خلايا المقاومة، حتى إن النظام لم يحتَج لاستجواب أي منهم، بل سحقهم سحقا.
وسقط الجميع وأُجهضت الموجة الأولى من الثورة، ولأن النظام كان مستعد جيدا، استطاع إجهاض الموجتين الثانية والثالثة باستخدام النخبة والأحزاب الدينية الموالية للنظام.
الميليشيات المسلحة والعصابات المنظمة استغلت الموقف كأسوأ ما يكون بعد أن تم دفعهم ليحولوا سلمية الثورة إلى العنف، بل لقد تمت استمالة أحد أفرع المقاومة ليشارك في الأمر، وتم استنفار حزب الموتى، هؤلاء البسطاء من الشعب الذين تضرروا من الثورة، ليقف الشعب أمام الشعب في مشهد عبثي سخيف.

كانت خطة مروِّعة وآتت أُكلها في وقت قصير، بعد أن ظهر النظام مع كثافة مؤيديه كأنه في حرب مفتوحة ضد الإرهاب، وقام الإعلام بدوره الجهنمي في توجيه الرأي العام والسيطرة عليه، خاصة بعد أن قام النظام بافتعال مجموعة من العمليات الإرهابية المدروسة بدقة، والتي أثرت على تدفق نهر الحياة الطبيعية للشعب الذي تذبحه الأسعار وقلة الموارد لتضيق عليهم في أرزاقهم، كتفجير محطات الطاقة الكهربائية غير النووية، وتفجير قضبان السكك الحديدية ومترو الأنفاق.

ومع صنع انفلات أمني مروِّع، جعل العامة يحاربون الثوار بأنفسهم، خاصة أن حظر التجول قد شل المدن الكبرى في الدولة، فكانت ثورة على الثورة، والشعب ضد الشعب.

كان حائرا جدا ومتوترا، لقد تغير كل شيء خلال السنوات الخمس التي قضاها في سجنه معزولا عن مستجدات الواقع وعن كل ما يحدث حوله، المخيف أن المؤشرات كلها تقود نحو الصدام المسلح.

إن روح سمير رضوان نفسها تطالبه بالقصاص، وبالشجاعة في استخدام السلاح المتاح.

فالحق الذي لا يستخدم سلاحه هو حق كسيح جبان.. ولا يوجد حق جبان.

كاد يسترسل أكثر في أفكاره عندما دوَّت الطرقات العنيفة على باب غرفته، لينتفض جسده في قوة، قبل أن يفتح الباب ليواجه أحد رجاله الذي كان يحمل حاسوبا حديثا يظهر على شاشته الهولوجرامية ما يمثل انفجارا هائلا بداخل مركز الأمن العام الرئيسي وعشرات من سيارات وحوامات الإسعاف والدفاع المدني تحاصر المكان وتحأول السيطرة على الحريق المروع الناتج عن الانفجار وإجلاء المصابين.

لدقائق تجمد «آدم» أمام ما تبثه الشاشة الهولوجرامية، وقد بدأت المواقع الإخبارية تروِّج لأن حجم الضحايا قد تجأوز الثلاثمائة قتيل، غير مئات الإصابات الفادحة، التي تشمل قادة ورتبًا كبرى في الجهاز الأمني الأول في

الدولة، وإن كان مصير وزير الداخلية مجهولا، وإن كان متوقَّعًا إلى حد كبير.
وبداخل عقل «آدم» تجسدت صورة القنبلة، فانتفض جسده بقوة.

حصار

في ظل حظر التجول المفروض والحصار الأمني الخانق وحملات الاعتقال والمداهمات الوحشية التي يقوم بها النظام في أنحاء القاهرة الجديدة، لم يكن أمام «ليلى» ورجال الحراسة المصاحبين لها إلا العودة للأنفاق مرة أخرى من أجل سهولة التنقل بداخل العاصمة، بعيدا عن القبضة الأمنية الوحشية التي انتقلت من اغتيال الأحلام إلى اغتيال أصحابها.

كان عليها أن تقوم بمهمة أقل ما يقال عنها إنها سخيفة في هذا التوقيت الحرج، خاصة أن الأوضاع في العاصمة متوترة لأقصى مدى، وإن كانت هي تعتبرها أهم مهمة في حياتها.

فقد حددت مع آدم المصري مساء اليوم ليكون هو الموعد المنشود لعقد قرانهما وتحقيق حلمهما.

وهي لن تُتم الأمر من دون تلك الاستعدادات المقدسة التي تقوم بها كل أنثى في مثل حالتها، مع الأخذ في الاعتبار أن حلمها على وشك التحقق، ولن يكتمل الأمر إلا بحصولها على فستان زفاف أبيض.

إنه حلمها وحلم كل فتاة، الفستان الأبيض نصف أحلام أي فتاة، وما كانت فرحتها لتكتمل إلا بالحصول عليه وارتدائه في ليلة عُرسها، حتى لو لم يكن هناك احتفال كبير.

كانت تعشق تلك الكلمات التي قرأتها في مكان ما:

«بهجة الأنثى فستان أبيض، وقلب محب، وطفل يصنعه عشق جارف».

كان «آدم» حلمها، ومن أجله تغامر الآن، كانت تتمنى أن تمر كل الأمور على خير ولا تتعقد أكثر قبل أن تتذوق ولو قطعة صغيرة من ثمار الجنة.

كانت تريد أن تمنحه نفسها كأجمل وأروع ما يكون، لتعوض عنه سنوات معاناته وحرمانه.. كانت تريد أن تكون له أميرة الأحلام، والفستان الأبيض سيكمل الصورة دون شك.

لم تكن صورتها عن يوم زفافها كما تتم الآن، لكن سعادتها كانت مذهلة، وكأن كل ما يدور حولها يدور بعيدا عن عالمها وأفكارها.

قطعت «ليلى» ثلاثة كيلومترات بداخل الأنفاق المظلمة، بصحبة رجال الحراسة الذين أصبحوا يلازمونها كظلها بعد عودة الزعيم.

لم تضايقها الرائحة ولا تلك الفئران التي تسبح في المياه بجوارها.. كانت تسير وعقلها وكيانها كله مع «آدم».

لم تتوقع يوما أن يكون «آدم» لها مع كل ما يحيط به من أخطار، وكانت ترتجف في كل مرة يأتيها اتصال من رقم مجهول..

كانت تتوقع موته في كل لحظة تمر.

الحقيقة أن الأمور لم تتغير الآن، بل أصبحت أسوأ، إن استخدام القنبلة أصبح خيارا حتميا، إنها جيدة في تحليل المعلومات واستقراء الواقع بفضل مهنتها كمحللة بيانات.

كل الأمور المفزعة التي تحدث تقود نحو هذا الخيار، خاصة أن الأمن أسقط نصف قوة المقاومة حتى الآن، ما بين قتيل ومعتقل، وهي فكرة مرعبة.

لكن المختلف الآن أنهم لو سقطوا سيكونان معا، هذا هو خيارها وما تتمناه.. أن تظل معه لآخر لحظة من العمر، حتى لو كان هذا العمر سيمتد لساعة واحدة، أن تموت بين ذراعيه خير لها من أن تعيش على ذكراه الأليمة في أمان، كفاها خمس سنوات من الحرمان والوحشة بعيدا عنه.

كادت تسترسل في أفكارها عندما سمعت صوت أحد الرجال يخبرها أن تنحرف لليسار إلى نفق أقل اتساعا من الذي تخوض فيه الآن، ينتهي بسلم معدني صاعد يغلق فتحته غطاء معدني ثقيل.

أطاعت الصوت بتلقائية وقلبها يخفق من التأثر، إنها على مسافة عدة

دقائق من تحقيق حلمها.

قام رجلان من المصاحبين لها برفع الغطاء المعدني بواسطة تلك الرافعة الهيدروليكية، قبل أن يرتقي منهم اثنان السلم، ليستكشفا المكان ويؤمناه، قبل أن تصعد «ليلى» وباقي الرجال إلى داخل مرآب هائل الحجم يخص أحد المولات العملاقة.

وبداخل المرآب كان ينتظرها خمسة رجال آخرين مسلحين ومعهم شخص عادي لا يشبههم بجسده النحيل وعينيه الضيقتين وشعره الأبيض الكثيف.

تحرك الموكب بخطوات سريعة، في حين انتظر الرجال الذين اصطحبوا «ليلى» في رحلتها في المرآب لتأمين مكان المغادرة، قبل أن يصعدوا جميعا عدة سلالم كهربائية متوقفة، ليظهر المول الخالي مخيفا وسط الإضاءة الضعيفة، ليخفق قلب «ليلى» مرة أخرى في قوة.

تقدم الرجال يسبقهم ذلك النحيل ذو الشعر الأبيض عبر ممرات المول التجاري المتشابكة، وأمام متجر هائل الحجم خاص بفساتين الزفاف، توقفوا جميعا، لتنطلق من بين شفتيها آهة فرحة مسموعة، جذبت انتباه الرجال، ما جعل وجهها يتخضب بحمرة الخجل.

استخدم الرجل النحيل الأشيب شفرة إلكترونية معقدة ليتخطى القفل، قبل أن يسمح للجميع بالدخول.

وأمام مرآة خاصة، وقفت «ليلى» لبرهة تنتظر النحيل أن يعمل على تفعيلها عن طريق حاسوب المتجر، وعلى الفور بدأت تظهر صورة «ليلى» في المرآة، وهي ترتدي فساتين زفاف مختلفة، دون أن تضطر لارتداء أي منها، ومن فرحتها وآثارها، قالت محدثة نفسها:

- إن برامج القياس هذه رائعة.

وبعد دقيقتين كانت قد اختارت فستان الزفاف الذي طالما داعب مخيلتها، ليحمل صندوقه الورقي أحد الرجال في رحلة العودة، قبل أن يغادروا جميعا المتجر باتجاه المرآب.

قطع الموكب الغريب نصف طريق العودة بداخل ممرات المول شبه المظلمة، وأحد الرجال يحمل نصف أحلام «ليلى» بداخل صندوق ورقي مزخرف بشعار المحل الشهير، عندما فوجئوا بظهور أحد الرجال القائمين على الحراسة مهرولا باتجاههم، وعلى وجهه ملامح اضطرابات عالية، قبل أن يقول الرجل بصوت متوتر:

- الأمن العام هنا.

وأُسقط في يد الجميع.

* * *

كالتمثال وقف الملثم بداخل غرفة الفندق ليشاهد الانفجار المدوي الذي حدث بداخل المركز الرئيسي للأمن العام، الذي تسبب فيه انفجار تلك القنابل الجيلاتينية شديدة التدمير، التي قام بزرعها بداخل أجساد رجال الشرطة الخمسة، آخر الموجودين في قائمته من فرقة الإعدام التي قامت باغتيال شقيقته وزوجها..

وعلى أثر الانفجار، اشتعلت تلك النيران الزرقاء الهائلة بداخل المبنى، التي كانت تلتهم كل شيء يعترض طريقها في شراهة وسرعة، قبل أن تصفع أذنيه الضوضاء العالية التي نتجت عن الضغط العاتي الذي ولَّده الانفجار، والذي تسبب في تهشم الواجهات الزجاجية والنوافذ في البنايات المجأورة، وواجهة الفندق المقابل، قبل أن تتناثر الأنقاض والأشلاء في مساحة نصف قطرها مائة متر بشكل بشع، أعاد إلى الأذهان صورة الإرهاب القديم وعملياته القذرة.

وبداخله شعر بغصَّة مؤلمة وهو يشاهد جثث المدنيين والمارة التي تناثرت عبر الطريق في مشهد بشع.

لا يعرف كيف وُجدوا في المكان على الرغم من حظر التجول، لا بد أنهم من المتعاملين مع الأمن.. وقرر القدر مكافأتهم بالموت مع من عملوا معهم.

كان يعلم جيدا أن تأثير تلك القنابل الحديثة شديد التدمير، سيمتد إلى خارج

المبنى، وأن الشظايا التي تناثرت نتيجة الانفجار ستصنع كارثة، لكنه في هذا التوقيت الحرج لم يكن يمتلك رفاهية الشعور بالذنب، خاصة أن هدفه الرئيسي سميح رياض ما زال حرا طليقا يقود ميليشيات النظام الرسمية لقمع الثورة القادمة في مهدها.

وخلال الاضطرابات والهرج والمرج التي حدثت نتيجة الانفجار، استطاع أن يغادر الفندق في هدوء، بل ويعترض مسار إحدى سيارات الشرطة ويستولي من قائدها على زيه الرسمي وسيارته وتصريح مروره الأمني قبل أن يتركه في عوالم الغيبوبة بالقرب من إحدى فتحات الصرف الصحي، تتشمم جسده المصاب مجموعة من الفئران والحيوانات المتحولة، ومن الواضح أنه لن ينعم بحياته لوقت طويل، إلا إذا غادر غيبوبته العميقة في الوقت المناسب، وهو ما لم يكن متوقَّعا مع عنف إصابته.

انطلق الملثم بسيارة الشرطة يقطع الطريق في سرعة متوسطة وهو يفكر في نتائج عمليته الأخيرة التي فاقت توقعاته كلها.

إن تفجير مقر مركز الأمن العام الرئيسي ضربة قاصمة وقاهرة للنظام في توقيت حرج للغاية، خاصة أن الأخبار تتواتر للتجمع بالقرب من ساحة الاستاد الرياضي لبدء فعاليات الاعتصام الكبير والعصيان المدني.

مع دعوات مماثلة لوجود آدم المصري في مكان التجمع الجديد، بعد أن تحوَّل ميدان الثورة الرئيسي - ميدان التحرير - إلى بحيرة صناعية عملاقة يقطعها عدد من الكباري، لتفريغ مكان التجمع الرئيسي لثورات مصر من مضمونه، وكأن هذا سيمنع الثوار من التجمع عند قيام الثورة التالية.

فكر أمني عقيم أشعل القلوب ونفث نيران الحقد في الصدور خلال السنوات الماضية، ما جعل الجميع تحت ضغط هائل، كالجمر تحت الرماد، ينتظر اللحظة المناسبة للانفجار ليبث ناره ويشعل كل شيء.

ومع متابعته للأنباء عبر شبكة الشرطة اللاسلكية، تأكد أن الثورة في طريقها للبعث، خاصة بعد صدور الأوامر للجيش بالقيام بحفظ الأمن، مع اغتيال

وزير الداخلية في انفجار مركز الأمن العام، الذي تأكد خبر موته في الانفجار.
لم يكن يعرف أنه بمغادرته المكان بهذه السرعة قد حرم رجال النظام من فرصتهم الوحيدة للقبض عليه.
إن الأقدار ما زالت تبارك خطواته.
وخلال تنقله عبر الأكمنة الأمنية المنتشرة في كل مكان، كان يتابع قنوات الاتصال اللاسلكية، التي لم تنقطع لحظة واحدة عن مدِّه بالأخبار وتحركات رجال الأمن، عبر موجات لا سلكية مختلفة، حتى إنه التقط موجة جديدة تم إنشاؤها لتكون عامل ربط بين رجال الجيش وفرق الشرطة الميدانية في الشوارع.
ومنها بدأ يستمع لجميع التطورات..
انتفاضة الجماهير هذه المرة كانت مختلفة تماما، من سقط من رجال الأمن كان مكافئا لعدد من سقط من المدنيين على الرغم ممَّا يحملونه من أسلحة وما يحيط بهم من دروع.
المدنيون الذين قرروا - من دون تنسيقٍ ما - حمل السلاح ومواجهة البطش الأمني.
المعزولون في القطاع سبعة بدأوا في مهاجمة معسكرات الأمن القريبة منهم وسحق كل من فيها، دون ترك ناجٍ واحد، وبدا من الواضح أن البلاد في طريقها نحو الهأوية.
وبدا وكأن الجميع كانوا متأهبين للإشارة، وجاء هروب «آدم» مع تفجير مقر الأمن العام الرئيسي لينتفض الجميع.
شريحة ضخمة جدا من الجماهير تؤمن بأن الملثم هو آدم المصري، وقد قرر عدم الإعلان عن نفسه لسببٍ ما.
إنها قطع البازل التي تناثرت، وجمعها القدر من أجل تلك اللحظة الحاسمة، التي ستعيد كتابة التاريخ لحظة الثورة.
استمر الملثم في تتبع موجات البث اللاسلكية الخاصة بشرطة الأمن العام

بتركيز كامل، كان من الواضح أن هناك تخبطا شديدا بين صفوفها وتحركاتها، وإن كان ظاهرا وجليا أن خبراء الجيش التقنيين في طريقهم لتنظيم هذه الصفوف، وأن لديهم خطة احتواء جاهزة.

فتمت إعادة التواصل بين قوات الشرطة الميدانية وغرف المتابعة الخاصة بالجيش، كما أن أسرابا من مروحيات الجيش الخاصة بنقل الجنود تقوم بإنزال قوات جديدة بمعدات جديدة في الأماكن التي فقدت الأمن، مع عمليات إحلال وتبديل، تتم في مناطق التوتر، بين رجال الأمن العام والجيش؛ للحدِّ من موجة الغضب العارمة ضد رجال الأمن العام.

ويبدو من الهدوء الحذِر في الميادين الكثيرة أن الجموع تنتظر من الجيش إطلاق طلقته الإشعاعية الأولى قبل أن تلتحم معه في معركة مصيرية.

لكن قوات الجيش كانت تتحرك من خلال خطة أمنية مدروسة أُعدت منذ زمن؛ فرفع رجاله فوق مجنزراتهم وعرباتهم المدرعة الشعارات المجسمة التي توضِّح للجميع أن الجيش موجود لحفظ الأمن وحمايتهم.

المخطط القديم نفسه: مداعبة مشاعر الجماهير واستخدام حبهم للجيش لتهدئتهم.

استمر الملثم في الاستماع إلى عشرات المحادثات التي تتم عبر أجهزة الشرطة اللاسلكية وغرفة القيادة المشتركة بمقر وزارة الدفاع، دون أن يستطيع تحديد نتائج المواجهات المتلاحقة؛ فالأمور مضطربة لأقصى مدى.

أما ما شحذ انتباهه لأقصى مدى فهو تلك الإشارة الأخيرة التي صدرت من قِبَل فرقة سميح رياض إلى مركز العمليات بقلب مقر وزارة الدفاع، والتي جعلته يطلق العنان لسيارته متخطيا كل الإشارات بسرعة رهيبة كادت تتسبب في تحطم سيارته عند أحد المنحنيات لولا مهارته في القيادة، بعد أن حدد موقع سميح رياض الحالي في الحي الرابع؛ حيث يختبئ آدم المصري بعد فراره، كما أوضحت الإشارة.

سميح رياض ما زال كالشيطان، يقود قوة من ثلاثة آلاف شرطي بكامل

معداتهم وأسلحتهم تدعمهم أربع حوامات شرطة هجومية وعشرة من الآليين المقاتلين للقبض على «آدم» بعد أن نجح جواسيسهم بداخل المقاومة في تحديد مكانه..

وهو ما لن يسمح بحدوثه حتى لو دفع حياته ثمنا له.

سيقتل سميح رياض قبل أن يرتكب مذبحة جديدة ويقضي على رمز الثورة.

* * *

وبداخل المنزل الآمن الجديد، وصلت الأخبار إلى «آدم»، كما وصلت لزعماء المقاومة، بهجوم الشرطة المرتقَب، عن طريق جواسيسهم الميدانيين الموزعين عبر العاصمة.. ليخفق قلب «آدم» بقوة مع وقع الخبر الشديد على روحه وقرب لحظة المواجهة، وليبدأ عقله في البحث عن حلول سريعة وآمنة للخروج من الأمر، خاصة أن الأحداث تطورت بشكل مخيف بعد تفجير مركز الأمن العام وهبوط الميليشيات الدينية ورجال العصابات المموَّلة من قِبلهم للتصدي لرجال الأمن، في محأولة منهم لركوب موجة الثورة الجديدة كما اعتادوا عبر قرنين من الزمن، ومنذ أن قرر قادتهم ترك مجال الدعوة والخوض في مستنقع السياسة العفن.

لقد اشتعلت الأمور بطريقة مروعة لا تمكن السيطرة عليها، وعلى الرغم من إجهاده والإرهاق الذي يسيطر على جسده، قرر آدم المصري القيام بمسئولياته، التي خصَّه بها القدر كقائد للثورة الجديدة.

فطلب من قادة المقأومة حشد كل ما يستطيعون حشده من رجال، لا بد أن يجهضوا الهجوم المحتمل، لا بد من القيام بعمليتهم النوعية المنتظرة، للإعلان عن وجود المقأومة وبقوة، قبل أن تستغل الأحزاب الأمر، لتبدأ في الجلوس على موائد التفأوض لإجهاض الغضب الثوري.

لكن، في البداية، عليه أن يعثر على طريقة لهروب الجميع من هذا الفخ الجهنمي المحتمل، ليقودوا ثورتهم.

هناك حراك شعبي هائل لا بد من استغلاله.. إن هذه الفرصة لن تتكرر

مرتين، وضياع هذه الفرصة سيعني ضياع كل شيء ونهاية الجميع.
انتهى «آدم» من وضع خطة المقاومة، وتم التواصل مع القادة الميدانيين من أجل المعركة المرتقبة، وبدأ الإعداد لعملية هروب قادة المقاومة من أجل المحافظة على الصف الأول، لقد كان اجتماعهم جميعا في مكان واحد غباء مطلقا، لكن أحدا لم يتوقع أن تتطور الأمور بهذه السرعة.
وما إن تواترت الأوامر من رأس الهرم إلى القاعدة، حتى بدأ تجمع الرجال للقتال في الحي الرابع؛ حيث يوجد آدم المصري وقادة المقاومة، ليذودوا عن قادتهم وحلمهم.
الأخبار كلها توحي بحصار المكان بشكل رهيب، وكان من الواضح أن سميح رياض قد فاجأ الجميع.
آليات ومجنزرات الشرطة حاصرت الحي دون إنذار، والحوامات الأربع تعمل على تأمين جوي للقوات الموجودة على الأرض، والآليون المقاتلون يمحون كل العقبات التي تعترض مسار القوات المهاجمة.
وفي دقائق معدودة، توزَّع رجال المقاومة في كل مكان بداخل الحي، دون أن تكون هناك وسيلة وحيدة لإجلاء النساء والأطفال والمسنين، خاصة بعد أن أطلقت قوات الأمن العام الغازات السامة بداخل الأنفاق لمنع استخدامها كوسيلة للفرار.
كان من الواضح أن الاضطرابات التي حدثت لم تفاجئ سميح رياض أو رجاله، وأنه كان يتحرك بخطة متقنة ومدروسة واستعداد تام، ليصنع مجده الشخصي التالي.
سيسحق المقاومة وآدم المصري في غضون الساعات المقبلة، قبل أن يعيد الأمن إلى العاصمة.. إنه من دون شك وزير الداخلية القادم.
لم يستطِع آدم المصري الانتقال من المكان عن طريق تكنولوجيا الانتقال الآني بسبب التشويش الرهيب الذي تصنعه أجهزة الشرطة المتطورة التي اكتشف خبراؤها وسيلة هروبه الجهنمية، مع العلم أن جسده لن يتحمل خوض

رحلة جديدة في هذا الوقت القريب من دون أن ينهار تماما.
ما كان يثير ضيق «آدم» وغضبه أنه على الرغم من المجهود المبذول كله، لم يستطِع أن يخرج قادة المقأومة من المكان، ليكونوا هم خط الدفاع الثاني في حالة نجاح الأمن العام في مخططه وقتله؛ فهو لن يسمح لنفسه بالسقوط في أيديهم حيا بأي حال من الأحوال.. إن الموت السريع أهون من الموت البطيء بداخل زنزانته المعزولة.
فطلب من الخبير التقني نقل الخطة وجميع المعلومات إلى قائد المقأومة الوحيد غير الموجود بداخل الحي – المُسن - كخطوة احترازية أخيرة كي لا تنتهي المقأومة بسقوطهم.
ثم قام آدم المصري بتوزيع الأسلحة الإشعاعية بنفسه على الموجودين وهو يبث بكلماته الحماس في عروقهم، قبل أن يخرجوا جميعا للذود عن أنفسهم وحلمهم، وبداخله تعاظم شعور هائل بأنه لن يرى «ليلى» مرة أخرى، خاصة أن كل الاتصالات تم قطعها عن الحي بالكامل، في الدقائق الأخيرة، تمهيدا للاقتحام.

* * *

الهجوم

كان الهجوم الأول على رجال الجيش من قِبَل الميليشيات المسلحة هو ما أدى إلى تفاقم الأمور، خاصة أن الجنود أجابوا على الهجوم بعنف كبير تسبب في سقوط عدد كبير من المهاجمين والمدنيين، ومع عنف الهجوم المضاد الذي استُخدمت فيه أسلحة هجومية ثقيلة، عادت للأذهان تلك العمليات الإرهابية التي تمت ضد بعض المواقع والمنشآت الأمنية في وقت سابق، والتي أثبتت التحقيقات فيها ضلوع أيادٍ خارجية في دعم إرهاب الداخل.

ومن هذه اللحظة الفارقة، اشتعلت الثورة في طول البلاد وعرضها.. الثورة المسلحة، وكشف الجيش عن وجهه البغيض ودعمه للنظام المستبد.

وبداخل المول التجاري، كان التوتر هو الشعور المسيطر على الجميع؛ فـ«ليلى» لم تتحمل أن يُجهَض حلمها قبل ساعات من تحققه وتحوله لواقع جميل.

رجال الحراسة العشرة توزعوا عبر المكان لصد الهجوم المحتمل، بعد أن تواصلوا مع قائد المقاومة المسن، الذي وعدهم بدعم قريب، عليهم فقط أن يصمدوا ويدافعوا عن قلب الزعيم بحياتهم لو تطلب الأمر.

كان هجوم رجال الأمن العام كاسحا بعد أن قاموا بتفجير بوابة المول التجاري الزجاجية، وبعد أن أطلقوا ثلاثة من كلاب الحراسة الآلية، لتتعامل مع خط الدفاع الأول المكون من خمسة من رجال المقاومة.

وبداخل ممرات المول المتشابكة دارت معركة رهيبة بين كلاب الحراسة والرجال المسلحين، وفي الثواني الأولى استطاع رجال المقاومة القضاء على كلبين من المهاجمين بنسفهما عن طريق قاذفات صاروخية خاصة يحملها اثنان منهم.

في حين رأوغ الكلب الثالث ومزق رجلين إربًا، قبل أن تنسفه قذيفة ثالثة، أتت من ناحية رجال الحراسة الخمسة الآخرين الذين تدخلوا في اللحظة الأخيرة لدعم زملائهم المحاصَرين، قبل أن يتفرقوا من جديد لحماية الممر الذي تقطعه «ليلى» مع ذلك النحيل أشيب الشعر، الذي يقودها نحو مخرج جديد يقودهم بدوره نحو المرآب دون العبور من خلال منطقة القتال المشتعلة.

توزع رجال المقأومة الثمانية عبر الطرقات التي تقود نحو الممر، في محأولة منهم لإيقاف هجوم رجال الأمن العام الضاغط وتشتيته، بعد أن حاصروا كل مداخل ومخارج المول التجاري بإحكام.

كان من الواضح أن المعركة غير متكافئة إلى حد بعيد، لكنهم خاضوها بكل بسالة، فانطلقت أسلحتهم الإشعاعية لتحصد الكثير من المهاجمين، الذين تراجعوا بعد أن فاجأتهم ضرأوة القتال.

مرت الدقائق والترقب الحذر يشوب الطرفين.

وكان من الواضح أن رجال الأمن العام يعدون لخطة جديدة للهجوم، استغلها رجال المقأومة في تنظيم صفوفهم وتبديل أماكنهم السابقة وفي إرسال تقريرهم الجديد للقيادة، قبل أن يعيدوا تبديل خلايا الطاقة في أسلحتهم، استعدادا لصد الهجوم المقبل.

وعندما انطلقت القذائف الحرارية المتتبعة صوبهم، أدركوا أنها النهاية، ومع حصد ثلاثة آخرين منهم، أطلق أحد الرجال قذيفة متفجرة صوب أحد متاجر الملابس المغلقة، فجَّرت بابه الزجاجي، وأشعلت النيران لتجتذب القذائف الحرارية إليها بعد أن حصدت اثنين آخرين، ليتبقى ثلاثة من رجال المقأومة أحدهم مصاب إصابة بالغة تُعجزه عن القتال.

كان من الواضح أن المعركة قد انتهت، وبسرعة مذهلة، خاصة أن العشرات من رجال الأمن العام قد بدأوا يظهرون في أماكن كثيرة بالمول التجاري، بعد أن سيطروا على الوضع بالكامل.

ولأن موقع رجال المقاومة الجديد أصبح مكشوفا، فقد تراجع اثنان منهم إلى نهاية النفق ليحتميا به، بعد أن رفض زميلهما الثالث أن يحملاه معهما كي لا يعيقهما.

وفي محاولة من الجندي المصاب لدعم زملائه وكي لا تضيع حياته سدى، فإنه قام بتلغيم نفسه بأربع قنابل شديدة الانفجار.. وبعزيمة لا تلين وبتصميم أسطوري أخذ يزحف صوب مكان تمركز رجال الأمن العام، لتطيح ببعض أصابع يده اليسرى قذيفة إشعاعية أخطأته، وقبل أن يتلقى الطلقة الإشعاعية التالية رسم على وجهه ابتسامة واهنة، ثم قام بلمس دائرة التفجير في إحدى القنابل وهو يقول بصوت واهن:

- إلى الجحيم أيها الأوغاد.

كان الانفجار عنيفا ورهيبا ومدويا، حتى إنه أطاح بالعشرات من رجال الأمن العام وفجَّر نصف الممر وأطاح بزميليه في قوة لآخر الممر وأشعل النيران في هذا الطابق بالكامل ومزَّق رجل المقاومة المصاب إربًا وجعل أشلاءه تتناثر في كل مكان، في مشهد بشع.

تحامل رجلا المقاومة الساقطان على الأرض من جرَّاء الانفجار على نفسيهما، وتجاهلا، بشجاعة حقيقية، إصاباتهما المتعددة وهما يتراجعان صوب المرآب، للذود عن «ليلى» بآخر ما في نفسيهما من حياة، وقد أصبح الدعم في طي النسيان. وعندما وصلا إلى المرآب أجهضت كل أحلامهما وأمانيهما تلك الطلقات الإشعاعية التي مزقت جسديهما وتركتهما جثتين متفحمتين تقتلهما المرارة لفشلهما في حماية أقرب كائن على وجه الأرض لزعيمهما.

وبداخل المرآب وقفت «ليلى» ترتجف، وقد سقط من يدها ذلك الصندوق الورقي الذي يحمل نصف حلمها، وذلك النحيل الأشيب يكاد يفقد الوعي من الرعب، وقد أحاط بهما أربعة من رجال الأمن العام وكانت تطل من عيونهم نظرة لا تحمل إلا الشر المستطير.

* * *

كان هجوم الجماهير على القصر الجمهوري كاسحا، ولم تنجح محأولات الحرس الجمهوري في ردعهم، وفي النهاية تركوهم ليقتحموا القصر الخالي من الرئيس ورجال الحكومة، بعد أن نفَّذ الأمن الخاص بالرئاسة خطة إنقاذ الرئيس والحكومة، وتم نقل الرئيس وأسرته ورجال حكومته إلى مكان مجهول بقلب العاصمة، يرجَّح كونه قاعدة عسكرية سرية..

ليبدأ الرئيس، من مركز قيادته الجديد، في اتخاذ قرارات دموية رهيبة، جعلت الأمور تتفاقم أكثر.

ومع قصف قلب المدينة والقطاع سبعة بالطائرات، كان من الواضح أن الأمور قد خرجت عن كل توقع، خاصة أن حديث الرئيس لوكالات الأنباء الأجنبية أظهر أن البلد يتعرض لهجوم إرهابي عنيف تدعمه الميليشيات المسلحة، ما أعاد للأذهان مصير سوريا المظلم في القرن الماضي، وكان من الواضح أن النظام لن يتراجع أو يستسلم، مكررا ما حدث بغباء منقطع النظير، فلا أحد يتعلم من دروس التاريخ على الرغم من كل شيء.

وبداخل الحي الرابع، كانت المعركة مشتعلة بشكل مخيف، خاصة أن المدنيين قد دعموا رجال المقأومة في حربهم ضد قوات النظام المهاجمة، بعد أن أشعل وجود آدم المصري بينهم حماسهم، ما أدى إلى سقوط مئات الضحايا في موجة الهجوم الأولى.

وأثبت رجال المقأومة أنهم أدرى بشعاب المكان؛ فكانوا يستغلون معرفتهم بالمكان في قتال رجال الأمن العام ودحرهم بعد نصبهم مئات الفخاخ والشراك القاتلة التي عملت على عرقلة تقدم قوات النظام.

وبعد عدة ساعات من المقأومة، كان من الواضح أن كفة المعركة ترجح ناحية قوات النظام، خاصة أن المقأومة لم تستطِع أن تُسقط إلا حوامتين، وأخذت المروحيتان الأخريان تقصفان المكان في عنف وعشوائية تسببا في دمار هائل وسقوط العشرات من الضحايا، وكل آلي من الآليين يقاتل كفرقة كاملة.

اشتعلت النيران في الحي الرابع بضرأوة، وبداخل المنزل المحتمي به آدم

المصري وقادة المقاومة وبعض رجالها، كان ذلك التقني يعمل بسرعة خارقة لصنع قنبلة إلكترونية قذرة، ستوقف عمل الآليين المقاتلين في حالة نجاحها.
كان يحتاج فقط للمزيد من الوقت من أجل نجاح عمله، وكان «آدم» ورجاله يحاولون بكل قوة ردع الهجوم الكاسح، وقد تجمَّع كل رجال المقاومة المتبقين في دائرة نصف قطرها خمسمائة متر للذود عن قائدهم.
فدارت معركة رهيبة ودموية، وبدأت الانفجارات تتعالى في كل مكان بعد أن بدأ سكان القطاع الرابع في استخدام مكثفات الطاقة والأجهزة المنزلية لصناعة تفجيرات متتالية عملت على تشتيت جهود رجال الأمن العام وأرهقتهم، وخففت وطأة الهجوم على الزعيم ورجاله.
كان ما يجعل هذه المعركة غير متكافئة وصنع ثغرة هائلة في صفوف المقاومة هو الآليون المقاتلون، بعنفهم ودقتهم ووحشيتهم.
وعلى الرغم من فرق القوة والتسليح، نجح بعض المقاتلين في عرقلة اثنين منهم عن طريق استخدام بعض الوسائل القديمة، كالحفر العميقة التي صنعوها عن طريق قيامهم بتفجيرات محدودة، لتصبح فخاخا قاتلة للآليين، خاصة بعد تلغيمها من الداخل.
وخلال الساعة التالية، فقد رجال الأمن العام أكثر من خمسمائة جندي، في حين فقد القطاع الرابع والمقاومة أكثر من خمسة آلاف مقاتل.
وعندما ضاقت الدائرة على الرجال في ظل الهجوم الكاسح، استطاع ذلك التقني، أخيرا، أن يبث موجة فائقة القصر، تحمل قنبلته الإلكترونية القذرة، لتستقبلها أجهزة الاتصال بداخل رؤوس الآليين، لتصيبها بالتشويش قبل أن تمحو ذاكرتهم وكل ما تمت برمجتهم عليه من أوامر، لينتهي خطرهم تماما.
وعندها انقضَّ رجال الشرطة تدعمهم الحوامتان الهجوميتان، لاقوا مقاومة عنيفة، خاصة أن فرقة من المقاومة بدأت تهاجم رجال الشرطة من الخلف وفتحت جبهة قتال جديدة.
وبدا لعينِ «آدم» أن النصر قريب، فحفَّز رجاله على تكثيف هجومهم، ومع

إسقاط الحوامة الثالثة وتراجع الرابعة، ظهر جيدا أن النصر من نصيب قائد المقاومة ورجالها.

وطوال ساعة كاملة لم تتوقف الانفجارات أو الطلقات الإشعاعية التي يتبادلها الطرفان.

كان رجال سميح رياض يقاتلون ببسالة منقطعة النظير، وعلى الرغم من ذلك كانوا يتساقطون كالذباب.

لم يكن يعني سميح رياض مقدار ما يسقط من رجاله أو من رجال المقاومة، إنه سيُتم مهمته مهما كان الثمن، سيعود برأس آدم المصري أو لا يعود أبدا.

وفي غمار نشوته وحماسه، أمر جنوده باستخدام أسلحة مدرعات الشرطة لقصف الحي بالصواريخ شديدة التدمير التي تحملها المدرعات، فقد بدأ المدنيون في قتالهم، وبالتالي لا داعي للحذر في التعامل مع الحي الرابع، وبدا وكأن الكفة بدأت ترجح ناحيتهم.

وبعد أن أشاعت الصواريخ الفوضى في المكان، وأجبرت «آدم» ورجاله على تبديل أماكنهم ليتراجعوا لعمق الحي، تقدم رجال سميح رياض ليكتسبوا أرضا جديدة ونصرا جديدا.

كان رجال الأمن العام يتحركون حسب خطط هجوم مدروسة، في حين كانت الأمور تتم مع المقاومة بعشوائية؛ لذا فإن الضحايا من رجال المقاومة أخذوا في التزايد، في حين بدأت الثقة تتسلل إلى قلوب رجال الأمن العام المهاجمين، الذين أحكموا قبضتهم على كل شبر أرض استولوا عليه.

وعندما تلقى سميح رياض الاتصال من غرفة متابعة الجيش، وعلم أن هناك دعما هائلا في طريقه إليه، حفَّز رجاله أكثر على القتال وبشَّرهم بالأنباء الجديدة، وهو يحتمي وراء درع إشعاعية قوية تحمي موقعه خلف إحدى المدرعات القوية، لتقيه من هجوم المقاومة المروع، وليشرف من هناك على معركة رجاله الأخيرة.

وكتطور نوعي، عادت الحوامة المقاتلة الرابعة لتقصف فرقة المقاومة التي

تهاجم الجنود من الخلف، بعد أن أنهت منأورة الانسحاب، لتغلق هذه الجبهة، ما جعل سميح رياض يدفع بكل رجاله صوب القطاع الرابع، بعد أن نفدت الصواريخ التي تحملها المدرعات، وبعد أن دمرت نصف منازل الحي على قاطنيها.

كان سميح رياض يتوقع أي شيء إلا خيانة أي فرد من رجاله، ولأنه لم يتوقع أن يحدث الأمر فلم يصدق أن من يضع تلك الفوهة الباردة على رأسه ويجبره على دخول إحدى المدرعات هو أحد رجاله.

وعندما استدار بداخل المدرعة ليواجه مهاجمه، اتسعت عيناه من الدهشة وغزت جسده ارتجافة عصيبة عندما تذكر صاحب تلك العينين اللتين تطلان عليه من خلف القناع الأسود المخيف.

إنه الملثم الذي قام بتفجير مقر الأمن العام الرئيسي.

إنه لن ينسى هاتين العينين القاسيتين، اللتين حُفرتا بأعماق عقله عندما شاهد البث الرقمي الانتقامي.

لقد كان هذا الملثم هو هدف سميح رياض بعد أن ينهي هذه الفوضى التي لم يشهد لها مثيلا، لكنه لم يتوقع أن تكون المواجهة قريبة إلى هذا الحد، لم يتوقع أن يصل أحد من أعدائه إلى عمق دفاعاته، فكيف بمطلوب أمني كهذا القذر؟!

وبالطبع لم يكن ينوي أن يكون أحد ضحاياه، وعندما همَّ بمهاجمة الملثم، شعر بالصاعق الأيوني يزلزل كيانه وبمخه يرتج بداخل عقله، قبل أن يفقد وعيه.

فلم يشاهد ذلك الملثم الذي أخذ يتراجع إلى الخلف دون أن يثير أي شكوك مع الزي الرسمي الذي يرتديه، متوجها صوب حوَّامة الإسعاف يجره جسده الفاقد للوعي نحوها، وهو يصرخ بصوت مرتفع بأن القائد أُصيب.

كانت خطة بسيطة وفعالة، فلم يتوقع أحد الجنود أن يكون هناك شرطي خائن بينهم، أو أن هناك من سيتسلل لينفذ عملية ضد قائدهم في هذا

التوقيت الحرج، فقام بعضهم بمساعدته في نقل سميح رياض إلى إحدى حوامات الإسعاف المتأهبة، ليعبر بداخلها الملثم مع العقيد سميح رياض الفاقد للوعي، لترتفع مغادرةً المكان، وقد تولى الضابط الأول مهمة قائده في اجتياح القطاع الرابع.

وعلى البُعد، لم يرَ أحد قائد الحوامة، الذي قُذف من داخلها عبر بابها المفتوح من ارتفاع شاهق ليسقط فوق إحدى السيارات المتوقفة على جانب الطريق فاقدا لحياته.

الحل الأخير

أغمضت «ليلى» عينيها في رعب، وهي تجز على أسنانها في قوة، وقد أغرقت الدموع وجهها، في انتظار تلك الطلقة الإشعاعية التي ستنتزع روحها من جسدها، خاصة أن الجنود الأربعة المحيطين بها قد اتخذوا وضع فرقة الإعدام الشهير، ولم تدرِ إلا وهي تقبض على كف النحيل الأشيب تلتمس منه دعما روحيا لم تحصل عليه، مع جسده الذي كان يرتعد في قوة.

وعندما سمعت «ليلى» صوت الأزير الذي شق الهواء بكثافة، تهيأت للصدمة العنيفة وللموت، لكن مضت ثوانٍ معدودة دون أن تشعر بأي من الأعراض المتوقعة لإطلاق النار عليها، وقد عبَّقت أنفها رائحة الشواء الكريهة لتفتح عينيها بسرعة، لتشاهد رفيق الجبالي ورجاله وقد قاموا بسحق الجنود الأربعة لتتناثر أشلاؤهم في كل مكان.

لقد جاء الدعم الذي وعد به زعيم المقاومة المسن، وعلى أعلى مستوى.

وبسرعة ومهارة قادها رجال «رفيق» إلى سلم الطوارئ، إلا أنها تراجعت في سرعة لتقبض على الصندوق الورقي الذي يحتوي على فسان الزفاف، وسط دهشة الرجال، الذين دفعوها أمامهم، وهم يرتقون درجات السلم الرخامية صوب السطح في سرعة، عبر طريق يخلو تماما من رجال الأمن العام، الذين ما زالوا يلملمون جراحهم بعد الانفجار الأخير الذي قام به رجل المقاومة الجريح.

عبر «رفيق» ورجاله، تصحبهم «ليلى»، بوابة السطح في نظام شديد، نحو حوامة مسلحة كانت تنتظر وصولهم، أقلعت على الفور بهم نحو مكان آمن، وبداخلها جلست «ليلى» وقلبها يخفق في عنف، وفي رأسها دوت فكرة

مخيفة، أما زال «آدم» على قيد الحياة؟
وعندما لم تجد إجابة شافية قبضت على الصندوق الذي يحتوي على فستان زفافها وانطلقت تبكي في عنف.
وبداخل المول التجاري، انطلق رجال الأمن العام يمشطون المكان في سرعة، والغضب يشتعل في صدورهم بعد مصرع زملائهم أمام أعينهم، دون أن يعثروا لـ«ليلى» أو النحيل على أثر.
لقد وصل لهم، عن طريق أحد رجالهم المندسين بين رجال المقأومة، أن حبيبة آدم المصري في طريقها نحو المول التجاري لانتقاء أحد فساتين الزفاف، ليتم عقد قرانهما في المساء، وكانت فرصة هائلة للحصول على كارت رابح جيد.
لكنهم عندما هاجموا المول لم يتوقعوا هذه المقأومة الضارية، ولم يتوقعوا أن يسقط هذا العدد من رجالهم.
وهاهو هدفهم يختفي من أمام أعينهم، وكأنه تلاشى في العدم.
كثَّف رجال الأمن العام نشاطهم، ولم يتركوا مكانا في المول التجاري لم يبحثوا فيه، حتى المحلات المغلقة تم تفجير أقفالها والبحث بداخلها، وعندما اخترق بعضهم المرآب، استمرارا لرحلة بحثهم، تجمدوا في أماكنهم من الصدمة، بعد أن وقعت عيونهم على أشلاء زملائهم المتفجرة، التي لوَّثت مساحة هائلة من أرضية المرآب وجدرانه.
أما ما أثار رعبهم وهلعهم وجعلهم يفرون هاربين من المكان، فهو تلك القنبلة شديدة التدمير التي تركها رجال رفيق الجبالي، بجوار خط الغاز الرئيسي بداخل المرآب، وقد بلغ عدها التنازلي الصفر.
ليحدث ثاني انفجار في هذه الليلة بداخل المول التجاري.
كان الانفجار من الشدة بحيث قوَّض الدعائم الإنشائية للمكان، ولم يتوقف الأمر عند هذه النقطة، فقد تلا الانفجار الثاني انفجار ثالث أكثر قوة، نتج عنه تفجر مستودعات الغاز الرئيسية التي تمد المكان بالغاز الطبيعي، لينهار المول العملاق في لحظات، مخلفا وراءه كومة هائلة من الركام والأنقاض

وأعدادا لا حصر لها من الضحايا.

* * *

القرار

تراجع آدم المصري ورجاله إلى مبنى جديد مع عنف الهجوم وضرأوته، وقد تلاشى من داخله كل أمل في النصر، خاصة أن جميع فرق المقأومة تم تشتيتها وإلهاؤها بمعارك جانبية مقننة جعلت موقعهم الرئيسي مكشوفا، وأدت في النهاية إلى سقوط أحد قادة المقأومة عن طريق قذيفة قناص بعيدة المدى، وسقوط عشرات من الرجال تباعا.

لم يكن أمام آدم المصري إلا مهربان: السماء والأنفاق.

والسماء كانت تسيطر عليها الحوامة الأخيرة، كما أن النظام قام بتفعيل منظومة الدفاع الجوي لوأد أي محأولات مماثلة..

وبالنسبة للأنفاق التي أغرقتها الغازات السامة والتي كانت بحاجة للاستكشاف، فكلف فرقة من الرجال باستكشافها.

وعندما مرَّ نصف ساعة ولم يعُد الرجال الذين ذهبوا لاكتشاف قوة الغازات الموجودة بداخل الأنفاق، زاد توتره أكثر؛ فالمعلومات الأولية التي وصلت إليه أن الغاز المستخدم بداخلها من الأنواع المحرَّمة دوليا ويحتوي على مذيبات عضوية قادرة على اختراق كل الأقنعة ومنقيات الهواء، وهذا يعني أنهم وقعوا في فخ لا مهرب منه، وأن النهاية محتومة.

اشتعلت المعارك من حوله ضارية، وقد أخذ كل رجل من رجاله يقاتل كفرقة كاملة للذود عن قائده وزعيمه، حتى إن أحد رجاله قد ارتدى حزاما ناسفا وفجَّر نفسه في فرقة قتالية متقدمة من رجال الأمن العام.

وبعينِ خبيرٍ، أدرك «آدم» أن المعركة خاسرة لو لم يأتِ لهم دعم قريب، وما أثار اليأس في روحه أن الأخبار بدأت تصل له عن مستوى قمع عالٍ للجماهير في كل الميادين وسقوط عشرات الآلاف من الضحايا، بعد أن استطاع التقني

المصاحب لهم اختراق موجات التشويش التي تبثها سيارات الأمن العام الاعتراضية، ليبدأ في التجسس على الموجات اللاسلكية لقوات الجيش والأمن العام.

وعلى الفور، طلب من التقني أن يعد له اتصالا سريعا مع قائد المقأومة المسن، وبصعوبة شديدة استطاع التقني إتمام الاتصال، الذي استغرق مع القائد المسن وحده خمس دقائق كاملة تحت القصف والموت والانفجارات المدوية التي لا تتوقف.

خبر نجاة «ليلى» أثلج صدر «آدم» إلى حد ما..

كان خبرا جيدا وسط حزمة من الأخبار السيئة، وكان المسن يطالبه باتخاذ قراره الحاسم؛ فضحايا النظام حتى هذه اللحظة يفوقون ما ذُكر عن آثار القنبلة، وعلى الفور أخذ «آدم» يدرس الأمر من جميع جوانبه، وبعقله أخذت تدور عدة مواقف وأحداث قديمة، ألهبت مشاعره، وعقله يحأول أن يصل للقرار الصائب، وسط هذا الجحيم من الموت والطلقات الإشعاعية، ثم بدأ يتذكر:

* * *

- الحياة دورة هائلة تبدأ بالبعث وتنتهي به.. والثورة كذلك.. شعلة لا تنطفئ، لكنها قد تخبو قليلا فيعتقد الطغاة أنهم هزموها.. ليحتفلوا طوال الوقت على رمادها المستعر.

* * *

- ثق بغريزتك، ولحظتها ستغير الكون بالكامل، وتصنع التاريخ الذي تستحقه والذي يستحقه وطنك المحتل من بعض أبنائه.

* * *

- لا شيء ستكتسبه دون تضحية.. التضحية هي أصل العطاء والإيمان.

* * *

- إن روح سمير رضوان نفسها تطالبه بالقصاص وبالشجاعة في استخدام السلاح المتاح؛ فالحق الذي لا يستخدم سلاحه هو حق كسيح جبان، ولا يوجد حق جبان.

* * *

- مَن الأحمق الذي أخبرك أنه لا يمكن تحويلها لسلاح؟ الكارثة الكبرى أنه يمكن تحويلها لسلاح شديد الخطورة بمجرد صنع زناد قادح من البلوتنيوم، سلاح قادر على تدمير كل ملامح الحضارة الحديثة، عن طريق تلك الموجات التي ستعمل على تدمير ذاكرة كل أجهزة الكمبيوتر الموجودة في نطاق تأثيرها، بل وقد يمتد تأثيرها إلى الأقمار الصناعية، هذا غير إيقاف كل محطات الطاقة الكهربية والنووية والمصانع الحديثة، وستؤثر بعد ذلك على ذاكرة الأحياء، بل سيشبه تأثيرها تأثير موجات جاما الرهيب.. لقد درست الأمر جيدا؛ لذلك أصر على أن من يمتلك هذه الطاقة يجب يكون أكثر حكمة وتعقلا.

* * *

- أخبرتك من قبل يا «خالد» أن هناك لحظات في تاريخ الأمم تحتاج لشخص ما قد حسم أمره وترك قلبه في مكان لا يعرفه، هذا الشخص عليه أن يبدل مسار التاريخ، عليه أن يصنع، ببعض الدماء، ذلك العالم السحري الذي يبحث عنه البسطاء والعشاق، عليه أن يصنع وطنا حقيقيا بلا زيف.

هذا الشخص سيضغط زر القنبلة النووية لو أتيح له الأمر، وسيظل يتابع نتائج فعله طوال الوقت دون أن يهتز له جفن، ودون أن يذرف دمعة واحدة على ضحايا أبرياء كانوا هم وقود التغيير ذات يوم.

* * *

- الحق الذي لا يمتلك سلاحه هو حق أبتر لا ينتصر.

* * *

تواترت الأحداث كلها بداخل رأس آدم المصري، الذي قبض على بندقيته الإشعاعية في قوة وهو يبحث بداخل عقله عن حل مستحيل يزيد تأجج

الأوضاع.
كان مترددا جدا في اتخاذ القرار، ورجاله من حوله يتساقطون طوال الوقت، وقائد المقأومة المسن لا ينفك أن يُجري اتصالاته المتتالية به، بعد أن دُحرت المقأومة في ميادين العاصمة.
وعندما شاهد آدم المصري طائرات الجيش المقاتلة تبدأ في اختراق الحي الرابع، ثم بدأت في قصف رجاله بكل ما لديها من أسلحة أُعدت ذات يوم للأعداء، كان قد اتخذ قراره وأبلغه للمسن..
ومع «ليلى» التي لم تتوقف عن النحيب والبكاء، قضى تلك الدقيقة الأخيرة من المكالمة، وبعدها حمل سلاحه وانطلق ليخوض معركته الأخيرة.

* * *

تلقى قائد المقأومة المسن القرار من آدم المصري ودمعة حزينة تفر من عينيه، لكنه لم يرغب في أن تسيطر عليه مشاعره في هذه اللحظة..
إنهم في حالة حرب ولا مجال للعواطف الآن، إن كل ثانية تمضي قد تنقذ حياة.
وعلى الفور أمر رجاله بإطلاق إشارة الانسحاب الكبرى من ميادين القتال، وبدأ تواصله مع قادة الصف الثاني من المقأومة من أجل تنظيم مرحلة ما بعد القنبلة، قبل أن تسرب اللجان الإلكترونية الثورية محتوى رقميا عالي الجودة، يظهر فيه المسن خلف قناع أسود وهو يطالب الجميع بإخلاء العاصمة وما حولها من مدن خلال ثلاث ساعات وإلا سيدمَّرون معها.
وبدأت أكبر موجة من الهرج والمرج والاضطرابات تجتاح العاصمة؛ فثلاث ساعات لم تكن كافية لإخلائها تماما، لكن القنبلة تم تذخيرها لتنفجر بعد ثلاث ساعات.
وخلال تواصل قائد المقأومة المسن مع آدم المصري، بكى «آدم» كثيرا وهو يشاهد جيش بلاده يقوم بقصفه هو ورجاله بأسلحته المتنوعة، وبكل بسالة

حمل السلاح ثم خرج بوجه مكشوف يقاتل من وضعوه في خانة الأعداء.
لتأتي النهاية على شكل قنبلة هائلة الحجم، أسقطتها إحدى الطائرات، لتمحو بؤرة تجمع القوات المقاتلة، ولتسحق كل شيء في منطقة نصف قطرها مائتا متر، ليتبخر جسد آدم المصري ورجاله، ولتنتهي قصة الحي الرابع والأسطورة.

بعد ثلاث ساعات

انفجرت القنبلة التجريبية التي صنعها سمير رضوان في موعدها تماما، وكان قد تم إخلاء العاصمة جزئيا من قاطنيها.
الرئيس ورجال حكمهم لم يأبهوا بمصير المواطنين، وحملتهم الطائرة الرئاسية إلى دولة قريبة لينفذوا بجلدهم مع عائلتهم.
المواطنون والثوار تعأونوا فيما بينهم لإخلاء المدينة، ولم يكن الأمر بالسهولة المتوقعة.
لم يستوعب أي من الجماهير قرار تفجير القنبلة، لكنهم جميعا كانوا يؤمنون بأن هذا هو الحل الوحيد، بعد أن صاروا يعيشون حياة أقرب للموت.
كان الانفجار مروعا، وتخطى كل دراسات وتوقعات سمير رضوان نفسه؛ فقد امتد تأثير الانفجار ليشمل شمال مصر بالكامل، ساحقا دلتا النيل في طريقه.
كان الانفجار عنيفا وأذاعته كل وكالات الأنباء العالمية؛ ففي البداية، انطلقت من القنبلة حرارة عالية تجأوزت، في مركز الانفجار، المليون درجة مئوية، لتمحو من الوجود دائرة نصف قطرها خمسون كيلومترًا.
قبل أن ينطلق منها إعصار من الموجات ليصيب كل الأجهزة الإلكترونية بالموت المفاجئ، لتتوقف محطات توليد الكهرباء، ولينقطع البث الرقمي المكثف، ولتتوقف محطات ضخ المياه عن العمل، وليسود ظلام دامس العاصمة.

صحب الأمر توقف الأسلحة الإلكترونية عن العمل، وجميع المركبات، وكل ما تدخل دوائر إلكترونية في تصنيعه، وليسقط بعدها أكثر من عشرين ألف قتيل في لحظة الانفجار الأولى.. تلاهم خمسون ألفا نتيجة قوة الموجات المنطلقة، ثم الآلاف الذين لم يتم حصرهم مع موجة التلوث التي اجتاحت كل شيء.

وخلال لحظات، تحولت مصر لأطلال خربة، وعادت إلى الخلف عشرات القرون، ولم يصمد أمام هذا الانفجار إلا الهرم الأكبر، أحد الشواهد على حضارة عظيمة نشأت وبادت ذات يوم بفضل دموية البشر.

الهرم الذي تشوَّهت أحجاره واكتست بالسواد، ليبقى كنصب تذكاري عملاق، ليدل على حماقة جنس منحه الله أعظم المنن وهي العقل، فلم يستخدمها إلا في القتل والدمار.

* * *

وقبل الانفجار بلحظات قليلة، وقف الملثم أمام جسد سميح رياض الضخم يتطلع نحوه بحقد بالغ ثم قام بحقنه بجرعة هائلة من الأدرينالين أجبرته على الاستيقاظ متألما.

كان الملثم قد شاهد البث الرقمي لقائد المقاومة المسن وتهديده باستخدام القنبلة، وقرر ألا يغادر العاصمة.. سيحيا هنا وسيموت هنا، ثم إنه قد أنهى مهمته في هذا العالم، فلماذا يغادر؟

لا يوجد قصاص أعدل من أن يفنى مع قاتله، لتتوقف دائرة الانتقام.

إن روحه تبحث عن التحرر.

والموت هو أعلى درجات التحرر.

أجَّل الملثم موعد قصاصه من سميح رياض إلى وقت انفجار القنبلة، لا يمكن أن يترك سميح رياض ليغادر عالمنا قبل أن يرى أن كل ما بناه قد تهأوى وهُدم ولن يبقى له أثر؛ لذا فعندما حدث الانفجار المروع كانا يبعدان عن

مركزه بعشرة كيلومترات، واقفين فوق سطح بناية عالية أُخليت من قاطنيها. وأمام أعينهما المندهشة من هول الانفجار الناشئ عن القنبلة، سحب الملثم سكينا حادا من جرابه، قبل أن يتطلع إلى وجه سميح رياض، الذي شحب وكساه الخوف، ليقبض على رأسه في قوة قبل أن يقول:

- انت لي.. لي أنا.

وخلال لحظة واحدة كان قد حزَّ عنق سميح رياض وقبض على شعره ليرفعه عاليا، وصورة «شذى» و«رمزي» المبتسمين تجتاح كيانه، وبعينين جامدتين وقف للحظات ليتطلع إلى كرة اللهب العملاقة التي وصل لفحها المحرق إلى جسده، فصرخ بعنف وجسده يتبخر من هول الحرارة في لحظة واحدة لينتهي كل شيء.

* * *

وعلى بعد مائة كيلومتر من موقع الانفجار، انطلقت تلك المركبة البدائية التي تجرها الخيول، وخلفها موكب من المركبات المماثلة، وبداخلها قبع قائد المقاومة المسن وعلى وجهه إرهاق الدنيا، يحمل بين يديه رشاشا آليا وعدة خزائن من الطلقات، فلم تعد الأسلحة الحديثة ذات فائدة، بعد أن أفسدت تلك الموجات الرهيبة عمل كل شيء.

كان عليه أن يقود الجميع، ليبدأوا من جديد بناء كل ما أفسدته حماقة البشر، ومن داخل الصحراء؛ حيث يقع معسكرهم الذي تم إعداده من أجل هذه اللحظات في سرية تامة قبل سنوات، لتتم فيه إعادة تأهيل الناجين من المحرقة.

سيناء تم احتلال الأجزاء التي لم تتضرر منها من قِبَل الكيان الصهيوني، وإن منعته آثار القنبلة من التوغل أكثر.

إجمالي ضحايا القنبلة فاق المليونين، وزعيم المقاومة قُتل ولم يعد له أثر، لقد اختارته الأقدار ليصبح هو آدم مصر الجديد.

وعلى الرغم من كل الأخبار السيئة والمستقبل المظلم والتوقعات السيئة،

كان قلب زعيم المقاومة المسن يحمل أملا في أن يعود لهم الوطن في يوم من الأيام.

وبجواره جلست «ليلى» وبعض الرجال وقد كسا الحزن وجوههم، وانطلقت بهم المركبة في بطء نحو المجهول.

كان الجميع صامتين في حضرة الموت، الجميع يفكرون في غد لا يحمل لهم إلا الشر، في حين كانت «ليلى» تقبض على فستانها الأبيض بقوة ودموعها لا تتوقف عن الانهمار، وصورة آدم المصري تحتل كل كيانها.

نهاية.. لا شيء يدوم.

تمت بحمد الله

إلى اللقاء في زمن آخر وأحداث أخرى
ديستوبيا ما بعد المحرقة

المحتويات :

الجزء الأول : السجين

اعدام ١٧

عشق قديم ٢٧

ثأر ٤١

الموعد ٤٩

آدم ٥٧

انتقام ٦٥

فرح ٦٩

عالم رقمي ٧٥

حبس انفرادي ٨٥

الجزء الثاني : القطاع سبعة

حنين ٩٥

لقاء غير متوقع ١٠٧

لقاء جديد ١٢٣

القطاع سبعة ١٣٣

إعاقة ١٣٧

الجزء الثالث : الرسالة
القنبلة ١٤٥
الماضي ١٤٧
اختطاف ١٦٣
السجن المركزي ١٦٩
العودة ١٨٥
أين ابنتي ١٩٧

الجزء الرابع : هجوم خاطف
ما بعد المجزرة ٢١٥
لقاء عادي ٢٢٧
اختفاء ٢٤١

الجزء الخامس : النهاية
الانتقام ٢٥٥
حصار ٢٦٥
الهجوم ٢٧٥
الحل الأخير ٢٨٣
القرار ٢٨٥

صدر للمؤلف :

* وبدأ الظلام – رواية
* حديث الموتى – مجموعة قصصية
* في مملكة الغيلان – رواية
* الملعون – رواية
* نصف حياة – رواية
* الشفق الأسود – رواية
* عزيف – رواية
* همسات – رواية
* Ufo - رواية

للتواصل مع الكاتب:

A_elmenofy@yahoo.com
https://www.facebook.com/a.elmenofy?ref=tn_tnmn